الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة أبي بكر بلقايد -تلمسان-

كلية العلوم الاجتماعية والعلوم الانسانية

قسم التاريخ

أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في الأنثروبولوجية اللسانية موسومة بـ:

بنو إسرائيل في النص الديني

-القرآن الكريم أنموذجا (دراسة أنثروبو-لسانية)-

من إعداد الطالبة:

حساين عويشة

إشراف:

أ.د. شايف عكاشة

أعضاء لجنة المناقشة:

أ.د. موسوني محمد	أستاذ التعليم العالي	جامعة تلمسان	رئيسا
أ.د. شايف عكاشة	أستاذ التعليم العالي	جامعة تلمسان	مشرفا ومقررا
د. بلخير عثمان	أستاذ محاضر (أ)	جامعة تلمسان	عضوا مناقشا
أ.د. بوعرفة عبد القادر	أستاذ التعليم العالي	جامعة وهران2	عضوا مناقشا
أ.د. منصوري مصطفى	أستاذ التعليم العالي	جامعة سيدي بلعباس	عضوا مناقشا
د. بن دحان عبد الوهاب	أستاذ محاضر (أ)	جامعة مستغانم	عضوا مناقشا

السنة الجامعية: 2015 -2016م

بسم الله الرحمن الرحيم

شكر وتقدير

أحمد الله الذي منحني القدرة ووهبني العافية لإتمام هذه الرسالة .

وأتوجه بالشكر الخالص لكل من ساعدني في إعداد هذه الرسالة سواء

بتوجيهه أو مساعدته .

وأخص بالذكر أستاذي المشرف أ . الدكتور "شايف عكاشة" الذي وجدت فيه نموذج

الأستاذ إذ رعى هذا البحث منذ ولادته كفكرة إلى أن اكتمل في الصورة التي هو

عليها .

إهداء

أهدي هذه الرسالة إلى كل من ساعدني في إنجازها .

وإلى والدي المحترمين أبقاهما الله لي ذخرا وبركة .

وإلى زوجي الكريم الذي ساندني في هذه الرحلة العلمية .

وإلى أختي الحبيبة الغالية التي كانت سببا في كل دراستي ، والتي طالما وجدتها بجانبي في السراء والضراء .

وإلى بناتي العزيزات .

وإلى كل من اتخذ القرآن دستورا .

مقدمة:

لقد كان الإنسان ولا يزال موضع التأمل والدراسة من قبل كثير من العلوم الإنسانية والطبيعة. هذا ما أدى إلى ظهور ميدان معرفي جديد من فروع المعرفة استقل وأصبح علما معترفا به سمي بالأنثروبولوجيا – علم الإنسان –؛ فهو علم يهتم بدراسة مظاهر الحياة الاجتماعية للمجتمعات الإنسانية، وهو علم لا يتقيد بفترات الزمان أو المكان، ولكنه يتقيد بموضوع واحد لا يخرج عنه وهو "الإنسان" فهو علم يهتم بكل ما ينتجه الإنسان سواء أكان مادة أو علاقة اجتماعية أو طقوس دينية أو فكرة...

اهتم علماء الأنثروبولوجيا بالجانب اللغوي لما له من أهمية كبرى في حياة الإنسان، فبفضل اللغة يتم الاتصال بين أفراد المجتمع وتنشأ من ذلك علاقات اجتماعية، ثقافية، دينية اقتصادية، ...ومن أشهر من ساهم في كشف العلاقة بين الأنثروبولوجيا واللغة، الأنثروبولوجي مالينوفسكي، الذي بيّن أهمية الأنثروبولوجيا في توطيد دعائم علم اللغة وتوسيع آفاقه، فقد كتب حول أهمية البحوث اللغوية واللسانية للفهم الأنثروبولوجي الصحيح لكل أنواع المجتمعات البشرية؛ فرأى أن عالم اللغة عليه بالضرورة أن يهتم بالمشكلات المتعددة للأنثروبولوجيا كعلم يمتد في مجال اللغة. غير أن هذه الدراسات الغربية كانت لها أهداف سياسية واقتصادية واستراتيجية بعيدة عن البحث العلمي النزيه؛ إذ ذهب بعض الباحثين الغربيين إلى دراسة القرآن الكريم دراسة أنثروبولوجية لسانية واعتبروا هذا الكتاب المقدس كأي كتاب، فشكلت هذه الدراسات محورا هاما، فبحثوا في كل قضاياه الجزئية منها والكلية، مما جعل هذه الدراسات تحتل حيزا هاما من تاريخ البشرية، وشيّدت هذه الدراسات عبر الزمان معلما بارزا في الفكر والأدب، فطغى على الدراسات الفكرية العربية والإسلامية والذي لم ينتبه من العالم العربي والإسلامي إلى خطورة هذه الظاهرة بل جعل منها حقلا لدراسته وحذا حذو هذه الدراسات وساهم – سواء بحسن نية أو بسوء نية – في تشويه الحقائق. فظهرت طائفة من الباحثين المسلمين الذين درسوا علم الأنثروبولوجيا في ظل القرآن الكريم، فعلموا أن المحور الأساسي في القرآن

الكريم هو الإنسان وبهذا فقد بلوروا تصور جديد لهذا العلم، إذ يحفظ للإنسان خصوصياته وكرامته، ويجعله يعيش الوحدة الإنسانية في إطار التعدد الشكلي، واللوني، والثقافي، لقوله تعالى:﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ خَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفُ أَلۡسِنَتِكُمۡ وَأَلۡوَٰنِكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡعَٰلِمِينَ ٢٢﴾[1].

ومن هذا المنطلق جاءت هذه الرسالة الموسومة بـ "بنو إسرائيل في النص الديني القرآن الكريم أنموذجا " – دراسة أنثروبولوجية لسانية –، فالذي يستعرض كتاب الله تعالى، يجد أنه استفاض في الحديث عن اليهود في أطول سورتين في القرآن الكريم البقرة وآل عمران، إضافة إلى بعض السور الأخرى والتي اشتملت على معظم صفاتهم والتي صورها لنا القرآن الكريم من كفر وخداع ومكر وخيانة وغدر، إذ لم تبق معصية أو جريمة إلا ارتكبوها، ولم يذهبوا لمكان إلا وأجرموا فيه، بدءا من تكذيب موسى عليه السلام والسعي بالإفساد في الأرض، مرورا بإيذاء الأنبياء، وانتهاء بجرأتهم على الله مع أنهم أكثر الناس أنبياء ومعجزات، ومع ذلك بقيت قلوبهم قاسية لا تعرف معروفا ولا تنكر منكرا، فالحديث عن اليهود ومواقفهم حديث مثير للجدل، لأنه يتناول شخصية في غاية التعقيد والتناقض، فبينما معجزات الله تتنزل عليهم، يشاهدونها بأعينهم، إلا أنهم قابلوها بالعناد والجدل، حتى إنهم تجرؤوا على الله فتهموه بما لا يرضوه لأنفسهم.

وعلى ضوء ذلك تقدم هذه الرسالة آيات القرآن الكريم التي تتحدث عن اليهود والابتلاءات التي تعرضوا لها، ونعم الله الكثيرة عليهم، إضافة إلى صفاتهم.

تعددت البحوث القرآنية وكثرت جوانبها، إلا أنها بقيت عاجزة عن الإحاطة بكل أسرار هذا الكتاب الخالد، الذي يتسم بسمو المعاني، وقوة البيان، وروعة الإعجاز.

[1]–سورة الروم، آ 22

لقد حظي بنصيب وافر من القصص، واللوحات الفنية والتعبيرية والجمالية في لغة الخطاب القرآني، والقرآن حينما يعرض قصة بني إسرائيل، إنما يعرضها لاستخلاص العبر والعظات.

وبشكل عام، فإن لغة الخطاب القرآني عن بني إسرائيل تمثل نصا دلاليا خاصا، ينطلق باللغة إلى مستوى يعج بالطاقات الإيحائية، والظواهر الجمالية، التي تشكل تربة خصبة لدراسة لغة الخطاب القرآني عن بني إسرائيل.

والذي دفعنا إلى هذه الدراسة، خدمة كتاب الله، والتبحر فيه لأن عجائبه لا تنقضي، قلة الدراسات حول الأنثروبولوجية اللسانية في المكتبات الجزائرية، كشف أحوال بني إسرائيل، أخلاقهم، وأكاذيبهم، وقبائحهم، معتمدين في ذلك كله على ما جاء في القرآن الكريم وبعض النصوص من التوراة. كما أردنا أن نقدم للمسلمين الشخصية اليهودية، تلك الشخصية المعقدة والحاقدة كما عرضها القرآن الكريم.

تكمن أهمية هذه الدراسة في أنها جاءت لإثراء المكتبة الإسلامية، تبين كيف تعامل القرآن الكريم مع قبائح اليهود، بيان أن اليهود هم اليهود في الماضي والحاضر، بيان سر اهتمام القرآن باليهود، إحصاء لغة الخطاب القرآني عن بني إسرائيل ووصفها وتحليلها، إلقاء الضوء على أبرز المحطات التاريخية لبني إسرائيل، بما يعزز الدراسة اللسانية.

تهدف هذه الدراسة إلى استنباط منهج علمي محكم من القرآن الكريم، لتبين كيفية تطبيق الدراسة الأنثروبولوجية اللسانية على النص القرآني، بيان حقيقة اليهود، ونفوسهم الخبيثة التي تتصف بأقبح الصفات.

أما مشكلة هذه الدراسة، فتكمن في قلة الدراسات السابقة من هذا النوع من التخصص بمعنى الدراسة الأنثروبولوجية اللسانية فكان موضوع شائكا وصعبا من حيث الحصول على مصادره ومراجعه وصعب من حيث تناوله وتحليله.

تمثلت في دراستي هذه منهج الاسترداد التاريخي، والمنهج الاستقرائي، والتحليلي، والوصفي، إضافة إلى الإعجاز البياني الذي كان له دور بارز في كشف العديد من خفايا اليهود، ولعل هذا أعانني على تحديد الجانب الأنثروبولوجي لبني إسرائيل، كما اهتم بدراسة لغة الخطاب القرآني دراسة تحليلية وصفية.

تعددت الدراسات القرآنية والتاريخية التي تحدثت عن بني إسرائيل، وأخلاقهم، وسماتهم وأحوالهم مع الأنبياء من لدن موسى عليه السلام، وحتى نبينا محمد عليه الصلاة والسلام، ولعل أهمها على حد اطلاعنا، ما يأتي:

- دراسة محمد سيد طنطاوي وهي بعنوان "بنو إسرائيل في القرآن والسنة"، حيث عرض الباحث تاريخ بني إسرائيل، وتناول حديث القرآن عنهم، فبحث في نعم الله عليهم، وعقوباته التي أنزلها بهم، نتيجة نكولهم، وتمحلهم، لتأخذ الدراسة بعدها التاريخي والديني؛ ذلك أنها تهدف إلى توجيه الحدث التاريخي بما يحقق الغاية الدينية، المتمثلة بضرورة الطاعة لله عز وجل والبعد عن مخالفته وعصيان أمره. كما استفاد (طنطاوي) من بعض التوجيهات اللغوية، دار الشروق،ط1، 1997م.
- دراسة د. صلاح الدين عبد الفتاح الخالدي بعنوان " الشخصية اليهودية من خلال القرآن" – تاريخ وسمات ومصير –، دار القلم، دمشق، ط2، 2013م
- دراسة صابر طعيمة بعنوان "بنو إسرائيل بين نبأ القرآن الكريم وخبر العهد القديم" عالم الكتب، ط1، 1984م.
- دراسة د. أحمد فارس بعنوان النداء في اللغة والقرآن، دار الفكر،ط1، 1989م، بيروت لبنان.
- دراسة د.إبراهيم أنيس، بعنوان دلالة الألفاظ، مكتبة الأنجلو المصرية، ط5، 1984م

إلى جانب دراسات أخرى لا يمكن إحصائها كلها هنا، وتحقيقا للهدف الذي وضعناه أمام أعيننا، فقد اشتملت خطة الرسالة على مدخل وخمسة فصول وخاتمة.

مدخل: بعض المفاهيم عن النثروبولوجيا

الفصل الأول: اللغة والمجتمع

1- اللغة ظاهرة اجتماعية متغيرة

2- أسباب التغير اللغوي

1.2- الصراع اللغوي

2.2 -الاحتكاك اللغوي

3.2- الغزو اللغوي

الفصل الثاني: الدراسة الأنثروبولوجية للنص القرآني

1- البحوث المنبثقة عن اشتراك علم اللغة بعلم الأنثروبولوجيا

1.1- الأنثروبولوجيا اللغوية

2.1- علم اللغة الاثنولوجي

3.1- الاثنوغرافيا الدلالية

4.1- الأنثروبولوجيا المعرفية

5.1- اثنوغرافيا الاتصال

2- اللغة ظاهرة اجتماعية

3-الدراسة الأنثروبولوجية للنص القرآني على المنهج الغربي

1.3- علمانية المناهج الجديدة

2.3- دراسة محمد أركون للقرآن بالمنهج الغربي نموذجا

الفصل الثالث: مصطلحي بني إسرائيل واليهود في السياق القرآني

1.القصة في القرآن

2.الحكمة من التفصيل القرآني لقصص بني إسرائيل

3.مصطلح إسرائيل في السياق القرآني

4.مصطلح بنو إسرائيل في السياق القرآني

5.مصطلح اليهود في السياق القرآني

6.الفرق بين مصطلحي بني إسرائيل واليهود في القرآن

1.6- بنو إسرائيل

2.6- اليهود

الفصل الرابع: نعم الله على بني إسرائيل وموقفهم الجحودي منها –دراسة أنثروبولوجية–

1-نعم الله المتوالية على بني إسرائيل بعد خروجهم من مصر

2-تفضيل الله بني إسرائيل على عالمي زمانهم

3-فرق البحر

4-النجاة من عدوهم

5-فساد طباع وأخلاق بني إسرائيل كما يصورها القرآن الكريم

1.5 -سوء أدبهم مع الله وعداوتهم للملائكة وقتلهم الأنبياء

2.5 - تحايلهم على استحلال محارم الله وجحود الحق بعد بيانه

3.5 -نبذهم لكتاب الله واتباع السحر

4.5 -الحرص على الحياة وإفراطهم في حب المال

الفصل الخامس: دراسة لسانية للغة الخطاب القرآني عن بني إسرائيل

1. الإعجاز البياني
2. التحليل الدلالي
   1.2- حقل ألفاظ السلوك
   2.2- حقل ألفاظ الوصف
   3.2- حقل ألفاظ الجزاء
3. أساليب الإنشاء الطلبي في لغة الخطاب القرآني لبني إسرائيل
   1.3- الأمر
   2.3- النهي
   3.3- الاستفهام
   4.3- النداء

الخاتمة: أوجزنا فيها الحديث عن أهم النتائج التي توصلنا إليها ثم أوردنا قائمة المصادر والمراجع.

إن الإنسان سيد في هذا الكون عظيم في طبيعته ومعجز في مآله ومصيره، ومعجز في وظيفته وغاية وجوده، فهو المخلوق المميز المنفرد لأنه المختص بالعلم والبيان والعقل. لقد كان الإنسان ولا يزال، موضع التأمل والدراسة في كثير من العلوم الإنسانية والطبيعية. فمنذ القدم لاحظ الإنسان الفروق المتجسدة بين شعوب الجنس البشري، فاهتم العلماء والفلاسفة في كل مكان وزمان عبر التاريخ الإنساني على وضع نظريات لمعرفة طبيعة المجتمعات البشرية، وما يدخل في نسيجها وأبنيتها من دين أو سلالة، ومن ثم تقسيم كل مجتمع إلى طبقات بحسب عاداتها وتقاليدها ودياناتها وغير ذلك من مظاهر الحياة الإنسانية. كما ساهمت الرحلات التجارية والاكتشافية، وكذا الحروب في حدوث اتصالات مختلفة بين الشعوب والمجتمعات البشرية، فوجدوا تنوعا وفوارق فيما بينها، من حيث النواحي السلالية والدينية واللغوية والثقافية.

وفي إطار هذا الاهتمام تطورت الدراسات تاريخيا، وهذا ما أدى إلى ظهور ميدان معرفي جديد من فروع المعرفة استقل وأصبح علما معترفا به سمي بالأنثروبولوجيا –علم الإنسان– ولكن من الصعوبة، تحديد تاريخ معين لبداية هذا العلم.

1. مفهوم الأنثروبولوجيا

إن اصطلاح الأنثروبولوجيا يعني حرفيا –علم الإنسان – وهو عبارة عن كلمة مركبة من مقطعين من اللغة اليونانية وهما Anthropos وتعني الإنسان Logy وتعني علم وبهذا تكون الأنثروبولوجيا علم الإنسان أو المعرفة المنظمة للإنسان[1].

لقد قدم علماء من مختلف الفروع العلمية مجموعة من التعريفات التي شرحت وفسرت معنى الأنثروبولوجيا. فمثلا يرى نيكولسون (Nicholson) أن علم الإنسان هو العلم الذي يدرس الإنسان.[2]

كما اعتبرها آخرون أنها علم متطور، يدرس الإنسان وسلوكه وأعماله[3].وعرّفها البعض الآخر بأنها علم الإناسة الذي يدرس الإنسان كمخلوق ينتمي إلى العالم الحيواني من جهة، ومن جهة أخرى أنه الوحيد من الأنواع الحيوانية كلها، الذي يتميز عنها جميعا .[4]

وقد جاء في قاموس الأنثروبولوجيا الذي وضعه شاكر سليم "إن الأنثروبولوجيا هي علم دراسة الإنسان طبيعيا واجتماعيا وحضاريا".[5] فيحدد لنا هذا التعريف ثلاثة فروع رئيسية هي الأنثروبولوجيا الطبيعية، والأنثروبولوجيا الاجتماعية، والأنثروبولوجيا الثقافية. ومن خصائص هذا التعريف أنه يشير إلى خاصة مميزة للأنثروبولوجيا وهي النظرة الشاملة في دراسة الإنسان.

أما الباحثة الأمريكية مارجريت ميد M. Mead 1901-1979 فإنها تقول "نحن نصف الخصائص الإنسانية، البيولوجية والثقافية المحلية كأنساق مترابطة ومتغيرة، وذلك عن طريق نماذج

[1]– الأنثولوجيا–دراسة المجتمعات البدائية محمد الخطيب ،منشورات دار علاء الدين ، دمشق الطبعة الأولى ، د ت، ص 13 .

[2] Nicholson, c, anthropologie education,london,1968,p1

[3]مقدمة في الأنثروبولوجية التربوية، أبو هلال أحمد، المطابع التعاونية، الأردن ،عمان ،د ت، د ط، ص 9

[4]– الأنثروبولوجيا علم الإناسة الجباوي علي، جامعة دمشق ،1997، د ط، ص9

[5]– قاموس الأنثروبولوجيا شاكر سليم، جامعة الكويت، 1981 ، د ط، ص56

ومقايس ومناهج متطورة. كما تهتم بوصف وتحليل النظم الاجتماعية والتكنولوجية، و نعني أيضا ببحث الإدراك العقلي للإنسان وابتكاراته ومعتقداته ووسائل اتصالاته"[1] .

أما آل كروبير (A-L.Kroeder) فعرفها كالآتي "إن دراسة الإنسان هي الحد الوحيد للأناسة، فهي لا حدَّ لها من حيث الزمان ولا من حيث المكان، إذ أن تقصيها يمتد ليشتمل على العالم بأسره...وإذا كانت قد اتجهت نحو المجتمعات الغربية فإن ذلك لا يحول دون اهتمامها أيضا بمجتمعاتنا. وبالتالي فإن الإناسة تدرس الإنسان عبر جسده ومجتمعاته وإنتاجه وأساليب اتصاله ولغاته وثقافته، إنها تسعى إلى تبيان العلاقات القائمة بين هذه النشاطات على اختلافها وبين الثقافة الشاملة التي تندرج ضمنها هذه النشاطات، فإذا كانت تتوصل إلى بلورة هذا التوليف فهي إنما تتوصل إلى ذلك عن طريق مقولة الثقافة".[2]

إن الأنثروبولوجيا علم يهتم بدراسة مظاهر الحياة الاجتماعية للمجتمعات الإنسانية، وهو علم لا يتقيد بفترات الزمان أو بحواجز المكان ،ولكنه يتقيد بموضوع واحد لا يخرج عنه وهو"الإنسان"، ولكن لا يدرس الإنسان ككائن وحيد بذاته، أو منعزل عن أبناء جنسه، إنما تدرسه بوصفه كائنا اجتماعيا بطبعه، يحيا في مجتمع معين له مميزاته الخاصة و في مكان وزمان معينين. يهتم هذا العلم بالجنس البشري وكل ما ينتجه سواء أكان ظاهرة مادية أو علاقة اجتماعية أو فكرة. فالأنثروبولوجيا بوصفها دراسة للإنسان في أبعاده المختلفة، البيوفيزقية والاجتماعية والثقافية علم شامل يجمع بين ميادين ومجالات متباينة ومختلفة بعضها عن بعض، اختلاف علم التشريح، عن تاريخ تطور الجنس البشري والجماعات العرقية، وعن دراسة النظم الاجتماعية من سياسية، واقتصادية، وقرابية، ودينية وقانونية، وما إليها ...وكذلك عن الإبداع الإنساني في مجالات الثقافة المتنوعة التي تشمل "التراث الفكري وأنماط القيم وأنساق الفكر و الإبداع الأدبي و الفني ، بل و العادات و التقاليد و مظاهر

[1] - الأثنولوجيا-دراسة المجتمعات البدائية محمد الخطيب ، ص13

[2] - نفسه، ص11

السلوك في المجتمعات الإنسانية المختلفة ، و إن كانت لا تزال تعطي عناية خاصة للمجتمعات التقليدية[1]. وهذا يتوافق مع تعريف تايلور Taylor الذي يرى أن الأنثروبولوجيا هي " الدراسة البيوثقافية المقارنة للإنسان" فهي تحاول الكشف عن العلاقة بين المظاهر البيولوجية الموروثة للإنسان وما يتلقاه من تعليم وتنشئة اجتماعية وثقافية، ومقارنة التنوع الهائل للجماعات الإنسانية للحفاظ على وحدة العلوم وتكاملها[2].

وبهذا المعنى تتناول الأنثروبولوجيا موضوعات مختلفة من العلوم والتخصصات التي تتعلق بالإنسان، فهي إذن الدراسة المتكاملة للإنسان بما تحويه من جوانب سيكولوجية وفسيولوجية وبيولوجية وثقافية واجتماعية، كما عرفها بعض العلماء على أنها العلم الذي يدرس الجماعات الإنسانية وسلوكها وإنتاجها[3].

وخلاصة القول إن الأنثروبولوجيا تدرس الإنسان ككائن اجتماعي يحيا في مجتمع، وعليه حقوق وواجبات، ويؤدي وظائف اجتماعية، ويعيش في ثقافة معينة وينتشر في الأرض زمرا. ومن ثم فهي تدرس سلوك الإنسان كعضو في المجتمع من ناحية، ومنشئ للثقافة من ناحية أخرى، وذلك في كل مكان وزمان فهي لا يقتصر نطاقها في مرحلة تاريخية محددة بالذات، وإنما تهتم بالأشكال الأولى والمبكرة للإنسان وأجداده وأصوله منذ أقدم العصور والأزمنة حتى يومنا هذا، فهي تهتم بتاريخ الشعوب التي تفتقر إلى التاريخ المسجل أو المكتوب، ونمو الحضارات منذ القدم والتي وصلتنا عنها أي سجلات أو بقايا.[4]

---

[1]- الطريق إلى المعرفة أبو زيد-كتاب العربي رقم46 منشورات مجلة العربي ،الكويت ،2001 ،ص 7

[2]- الأنثروبولوجيا في المجال التطبيقي د.حسين عبد الحميد أحمد رشوان، ،المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية،1989 م، د ط، ص5

[3] - الأنثروبولوجيا في المجال التطبيقي، د.حسين عبد الحميد أحمد رشوان، ص7

[4]-ينظر، نفسه، ص9

إن الأنثروبولوجيا ليست فقط ما يخترعه ويبتكره الإنسان من ثقافات وإنما يشمل أيضا جسم الإنسان، ومن هنا تنوعت الموضوعات التي دخلت ضمن نطاق علم الإنسان.

2. نشأة الأنثروبولوجيا وتاريخها

أولا – الأنثروبولوجيا في العصور القديمة

أ–عند الإغريق(اليونان القدماء)

يعتبر المؤرخ الإغريقي هيرودوتس Herodotus (484- 429ق.م) أبو الأنثروبولوجيا الأول .فكتابه "التاريخ" مليء بالمعلومات الوصفية المعتمدة على الملاحظة الميدانية لأعراف الجماعات غير المتمدنة، وظروفهم الغذائية وتقاليدهم الخاصة بالزواج ونظمهم السياسية ومعتقداتهم الدينية . وقد فرّق في كتاباته بين الحكايات التي رويت له والظواهر التي رآها والاستنتاجات التي توصل إليها[1]. ولا يوجد كتاب آخر في العصور القديمة قد قام في استعراض أحوال العالم القديم بهذه الدقة، والذي لاحظه المحللون المحدثون هو أن كتابات هذا المؤرخ كانت خالية من النزعة الشخصية "لقد جمع معلومات عن عدد كبير من الشعوب حيث تناول بالتفصيل تقاليدهم وعاداتهم، وملامحهم الجسمية وأصولهم السلالية"[2].

وكذلك الفيلسوف اليوناني أرسطو Arestos (348-322 ق. م) كان ممن ينسب إليه توجيه الفكر نحو وصف نشأة الحكومات وتحليل أشكالها وأفضلها، الأمر الذي يجعل من دراسته مساهمة مبدئية وهامة في دراسة النظم الاجتماعية والإنسانية [3].

---

[1] – ينظر مدارس الأنثروبولوجيا الدكتور قيس النوري ،جامعة بغداد ،د ط، 1991 م ،ص 15

[2] -Darnell ,reading in the history of man's search to know his world and himself, vintage book edition, 1978,p13.

[3] –ينظر قصة الأنثروبولوجيا –فصول في تاريخ الإنسان فهيم حسين ،سلسلة عالم المعرفة (198) الكويت،1986، د ط، ص46 .

لقد قدم الفكر الفلسفي اليوناني، الكثير من الأحوال الاجتماعية والثقافية للشعوب القديمة، التي ساعدت الفكر الأنثروبولوجي في العديد من أبحاثه وخاصة في أبحاثه عن الشعوب البدائية.

ب–عند الرومان

لقد دام حكم الإمبراطورية الرومانية حوالي ستة قرون، تابع خلالها الرومان أبحاث اليونانيين حول أفكار بناء المجتمعات الإنسانية وطبيعتها، ولكنهم لم يرقوا مثل اليونانيين لأنهم كانوا دائما يجدون في أنفسهم امتيازا وأفضلية على الشعوب الأخرى، فكان هذا الاتجاه العنصري هو السبب في عدم منحهم للفكر الأنثروبولوجي ما يفيده في أبحاثه لهذه الفترة من التاريخ، ولكن يمكن أن نستثني الشاعر الروماني كروس لوكر تيس carlos lucritus الذي عرض بعض الأفكار الاجتماعية الهامة في أشعاره، فقد خصص الباب السادس من كتابه المبوب بستة أبواب لعرض فكرتيِ "التطور والتقدم، حيث تحدث عن الإنسان الأول والعقد الاجتماعي، ونظامي الملكية والحكومة، ونشأة اللغة، إضافة إلى مناقشة العادات والتقاليد والفنون والأزياء والموسيقى"[1]

جـ–عند الصينيين القدماء

لقد اعتقد الصينيون القدماء على أنهم أفضل الخلق، وأنه لا وجود لأية حضارة أخرى أرقى من حضارتهم، ولتأكيد هذا الواقع أقام ملوكهم "سور الصين العظيم" حتى لا تدنس أرضهم بأقدام الآخرين [2]. ومع ذلك لم يخل تاريخهم من بعض الكتابات الوصفية لعادات الجماعات البربرية، والتي كانت تتسم بالازدراء والاحتقار[3].

[1]– ينظر قصة الأنثروبولوجيا –فصول في تاريخ الإنسان فهيم حسين، ص47

[2]– ينظر الحضارة– دراسة في أصول وعوامل قيامها وتدهورها، مؤنس محمد، عالم المعرفة (198)، الكويت 1978 م، د ط، ص15

[3] – Darnell ,reading in the history of man's search to know his world and himself,p15

ثانيا– الأنثروبولوجيا في العصور الوسطى :

اتفق معظم المؤرخين على أن هذه العصور، تمتد من القرن الرابع إلى القرن الرابع عشر بعد ميلاد سيّدنا عيسى عليه السلام ، وعرفت هذه العصور بالعصور المظلمة في حين كانت الحضارة العربية قد ازدهرت واتسعت لتشمل مجالات العلوم المختلفة.

أ–العصور الوسطى في أوروبا

اعتبر المؤرخون العصور الوسطى في أوروبا على أنها العصور المظلمة وذلك لتدهور الفكر الإنساني، وكان هذا راجع إلى وقوف الكنيسة ضد كل من يأتي بأفكار جديدة حول الكون أو الحياة الإنسانية والتي تخالف تعاليم المسيحية. فلم يجد الفكر الأنثروبولوجي في الفكر الأوروبي خلال العصور الوسطى ما يعتبره كإسهامات أصيلة في دراسة الشعوب وثقافاتهم، أو تقاليدهم تساعدهم في دراساتهم الأنثروبولوجية .

ب–العصور الوسطى عند العرب (منتصف القرن 7م–إلى القرن 14م عصور الازدهار)

تركت الحضارة الإسلامية آثارا بارزة ظلت باقية على مر الدهر وكرّ العصور، لترشد الأجيال المتعاقبة على أسرار هذه الحضارة التي امتدت من منتصف القرن السابع الميلادي إلى نهاية القرن الرابع عشر تقريبا، فقد ازدهرت هذه الحضارة في مختلف العلوم، كالأدب والأخلاق، والفلسفة، والتاريخ ، والجغرافيا، والطب، والهندسة، وغيرها من العلوم .

كانت الفتوحات العربية الإسلامية، سببا في دراسة أحوال الناس في البلاد المفتوحة. فقد برز عدد كبير من العلماء الذين وضعوا المعاجم الجغرافية، كمعجم "البلدان" لياقوت الحموي، وكذلك الموسوعات الكبيرة مثل "مسالك الأمصار" لابن فضل الله العمري، "ونهاية الأرب في فنون العرب "للنويري [1].

[1]– ينظر ، قصة الأنثروبولوجيا –فصول في تاريخ الإنسان فهيم حسين ، ص54

لقد ساهمت هذه الأبحاث في دراسة الشعوب والثقافات الإنسانية في الدراسات الأنثروبولوجية. فاتسمت كتابات الرحالة ابن بطوطة بالطابع الأنثروبولوجي ، الذي وصف فيه الحياة اليومية للشعوب فتناول بالتفصيل تقاليدهم وعاداتهم، وطبائعهم الشخصية وأنماط سلوكياتهم، ومما كتبه في أهل السودان " فمن أفعالهم قلة الظلم، فهم أبعد الناس عنه وسلطانهم لا يسامح أحدا في شيء منه، ومنها شمول الأمن في بلادهم، فلا يخاف المسافر فيها ولا المقيم من سارق ولا غاصب؛ ومنها عدم تعرضهم لمال مَن يموت في بلادهم مِن البيضان (البيض و الأجانب) ولو كان القناطير المقنطرة، وإنما يتركونه بيد ثقة من البيضان، حتى يأخذه مستحقيه ".[1]

نال كتاب ابن خلدون (1332م-1406م)" العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر، ومَن عاصرهم مِن ذوي السلطان الأكبر "شهرة كبيرة بسبب مقدمته التي سجلت الحياة الاجتماعية لشعوب شمال إفريقيا، ولاسيما العادات والتقاليد والعلاقات الاجتماعية، فمن أهم ما عالجه ابن خلدون في مقدمته موضوعات لها صلة وثيقة بالاهتمامات الأنثروبولوجية. فاعتبره الأنثروبولوجيون مفكرا أنثروبولوجيا من الطراز الأول لأنه اعتبر ثقافة الشعوب النابعة من بيئتها الحياتية أهم القوى المتحكمة في تفكيرها وميولها السلوكية.[2]

كما رأى ابن خلدون أنّ للعمران دورا هاما لمعرفة الطبيعة الإنسانية، إذ قال" أن العمران البشري يُعدُّ كمدخل لفهم الواقع الثقافي والإنساني في صورته الشمولية" وهو في هذا التركيز يعبر عن الروح العلمية لعلم الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية لأن العمران، الذي يقصده هو النظام الثقافي الذي

[1]-رحلة ابن بطوطة :"تحفة النظار في غرائب الأمصار"، ابن بطوطة أبو عبد الله، حققه محمد عبد المنعم العريان، راجعه وأعد فهرسته مصطفى القصاص، دار إحياء العلوم، بيروت، الطبعة الأولى، 1407هـ-1987م، ص672

[2]- مدارس الأنثروبولوجيا الدكتور قيس النوري ،ص 16

يهتدي به البشر في حياتهم سواء كانوا يعيشون في الضواحي أو الجبال أو القفار أو في الأمصار والقرى والمدن[1].

ومن أهم الموضوعات التي عالجها ابن خلدون والتي كانت لها صلة وثيقة بالدراسات الأنثروبولوجية هي تلك العلاقة بين البيئة الجغرافية والظواهر الاجتماعية. إذ قال أن "اختلاف البشر في ألوانهم وأمزجتهم النفسية وصفاتهم الجسمية والخلقية، يعود إلى البيئة الجغرافية التي اعتبرها أيضا عاملا هاما في تحديد المستوى الحضاري للمجتمعات الإنسانية ".[2]

كما وضح نظريته الرئيسية عن الإنسان التي تربط العمران البشري بالطبيعة الإنسانية التي بدورها تدفع البشر للبحث عن الجماعة والمؤانسة. فالإنسان بطبيعته لا يستطيع قضاء حاجاته بمفرده لذا فهو مضطر أن يعيش مع الآخرين. ومن هذا المبدأ يرى ابن خلدون "أن الميول الثقافية والحضارية، والاجتماعية، والإنسانية من الأساس الإيكولوجي القائم على الحاجات المادية والدفاعية التي يتوقف على إشباعها بقاء الأفراد والجماعات ".[3]

ومن خلال هذه النظرة الوجيزة على بعض أفكار ابن خلدون يتضح لنا أنه أرسى بعض الأسس المنهجية لدراسة المجتمعات البشرية، ودورة الحضارات التي تمر بها .

لقد كان للمفكرين وفلاسفة العرب في الفترة ما بين نصف القرن السابع ميلادي إلى القرن الرابع عشر ميلادي أثر كبير في معالجة الكثير من الظواهر الاجتماعية، وكذلك التنوع الحضاري والثقافي بين الشعوب أي دراسة بعض الخصائص لثقافةٍ ما، أو بمقارنتها مع ثقافة أخرى وهذه الدراسات كلها ساهمت في مساعدة بعض الأبحاث الأنثروبولوجية بصفة عامة.

---

[1] – مدارس الأنثروبولوجيا الدكتور قيس النوري ، ص18

[2] – مقدمة ابن خلدون لكتاب" العبر وديوان المبتدأ والخبر .. "عبد الرحمن ابن خلدون، ،تحقيق محمد تامر، مكتبة الثقافة الدينية، الطبعة الأولى، 1426هـ-2005م،القاهرة، ص291

[3] – مدارس الأنثروبولوجيا الدكتور قيس النوري ، ،ص 18

ثالثا– الأنثروبولوجيا في عصر النهضة الأوروبية

اتفق معظم المؤرخين على أن عصر النهضة الأوروبية، بدأ في نهاية القرن 14م، إذ قام الأوروبيون بدراسة العلوم العربية وانتقاء بعض المعارف الإغريقية، وعصر النهضة هو عصر تحرر العقل الإنساني من قيود القرون الوسطى والنظر إلى العالم المحيط بالإنسان نظرة جديدة. و هو تاريخ لتحرير العقلية الإنسانية وشعور الفرد بالحرية والاستقلال . وقد أطلق المؤرخون هذه التسمية على الفترة التي تتوسط العصور الوسطى والعصور الحديثة والتي تشمل القرنين الرابع عشر والخامس عشر على وجه التقريب.[1] كما تعتبر حركة الكشوف الجغرافية من العوامل الحاسمة التي ترتَّب عليها انتقال أوروبا من العصور الوسطى إلى العصور الحديثة . وقد سارت حركة الاستكشافات الجغرافية في خط مواز لحركة إحياء التراث القديم وحركة الإصلاح الديني[2].

إن هذه التغيرات التي طرأت في المجتمع الأوروبي أدت إلى نتيجة حتمية وهي انفتاح العقل البشري ودراسة الظواهر الإنسانية والاجتماعية بطريقة علمية غير مقيدة، كما كان ذلك في العصور الوسطى، إذ كانت الكنيسة تشكل حاجزا بين العلم والعقل. فأصبحت هناك نظرة جديدة عن الإنسان إذ يمكن دراسته على أنه ظاهرة طبيعية، هذا ما أدى بصورة تدريجية إلى بلورة البدايات النظرية للأنثروبولوجيا خلال عصور التنوير.

وكان من أهم نتائج هذا التفكير الحديث الاهتمام البالغ بالدراسات الإغريقية واللاتينية والعبرية، وبمعنى آخر كل الدراسات القديمة الموجودة بأوروبا، ذلك أنها وجدت هوى لدى رجال ذلك العصر ورأوا أنّ هذه الثقافاتِ هي أرقى ما وصل إليه الإنسان، وأنّ الإنسان لن يصل إلى درجة مرموقة دون

[1] تاريخ أوروبا الحديث والمعاصر من عصر النهضة إلى الحرب العالمية الثانية الدكتور ميلاد القرحي ، منشورات الجامعة المفتوحة ، الطبعة الثانية،1995، ص 30.

[2] – نفسه ،ص 43

دراسة هذه الثقافات بقدر مناسب، ومعنى ذلك أنّ هذه الدراسةَ هي الجواز للوصول إلى درجة سامية في المجتمع[1] .

لقد اعتبر كريستوف كولومبس Christopher.Colombus (1446-1506) رائد حركة الكشوف الجغرافية الإسبانية . فقد قام بعدة رحلات، الرحلة الأولى كانت سنة 1492م حيث وصل إلى جزيرة تدعى غوانا هاني وهي إحدى جزر باهاما، ومنها أبحر إلى كوريا وهايتي [2]، ثم رجع كولومبس من رحلته الأولى في مارس 1493م ثم قام بثلاث رحلات أخرى في سنة 1494م - 1502م اكتشف خلالها الساحل الرئيسي من هنداروس إلى فنزويلا [3].

ومن أهم النتائج التي ترتبت عن هذه الرحلات الاستكشافية، أنها ساعدت علماء الأنثروبولوجيا في أبحاثهم حول الشعوب القديمة،التي وصفها هؤلاء الرحالة في مذكراتهم والتي اتسمت بالموضوعية .

لقد تميز عصر النهضة الأوربية، بظاهرة كان لها تأثير في ظهور نظريات جديدة عن العالم والإنسان، وهي أن المفكرين اتفقوا، على الرغم من تباين وجهات نظرهم، على مناهضة فلسفة العصور الوسطى اللاهوتية، التي أعاقت فضول العقل الإنساني إلى معرفة أصول الأشياء ومصادرها، وتكوين الطبيعة وقوانينها، وصفات الإنسان الجسدية والعقلية والأخلاقية [4].

ونتيجةً لهذه التغيرات، ظهرت نظرة جديدة للإنسان على أنه ظاهرة طبيعية، يجب دراستها من خلال البحث العلمي، ومن ثَمَّ معرفة العوامل المؤثرة في مسيرة التطور الإنساني والتقدم الاجتماعي، وكل هذه المواقف كانت سببا في بلورة البدايات النظرية للدراسات الأنثروبولوجية، خلال عصر النهضة.

---

[1] – التاريخ الأوروبي الحديث من عصر النهضة حتى نهاية الحرب العالمية الأولى د.عبد العزيز سليمان نوار، د. محمود محمد جمال الدين، دار الفكر العربي، 1999م، ص 30

[2] – تاريخ أوروبا الحديث والمعاصر من عصر النهضة إلى الحرب العالمية الثانية، د ميلاد القرحي، ص 47

[3] – نفسه، ص 47

[4] –قصة الأنثروبولوجيا –فصول في تاريخ الإنسان، ص 86

ويأتي القرن 18م، ليحمل معه بعض الكتابات لبعض الكتاب والفلاسفة الذين درسوا بعض الشعوب البدائية وقارنوها مع المجتمعات الغربية، فوصفوا عاداتِهم وتقاليدَهم، فسمي هذا النوع من الدراسات عند الأنثروبولوجيين بالدراسات الإثنوغرافية والتي شكلت الخطوة الأولى لعلم الأنثروبولوجيا، وفي القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين أصبحت هذه الدراسات تسمى بالدراسات الإثنولوجية التي اعتبرت بمثابة فرع من علم الاجتماع المخصص لدراسة المجتمعات البدائية [1].

وفي بداية القرن العشرين بدأت الأنثروبولوجيا تستقل تدريجيا كعلم يدرس لوحده خال من الاتجاه العنصري الذي كان سائدا من قبل في الدراسات الإثنولوجية، وفي النصف الثاني من القرن ذاته أصبحت للدراسات الأنثروبولوجية أهداف تدرس فروعها مثل العلوم الإنسانية الأخرى.

وتأسيسا على ما تقدم، فالأنثروبولوجيا هي نتيجة تطور علمي برز في الغرب عبر ثلاث مراحل أساسية، كانت المرحلة الأولى من انطلاقة الفلسفة اليونانية والرومانية غير المألوفة، وهي انطلاقة أرست الأسس لا للأنثروبولوجيا والتاريخ فقط، بل للماورئيات والجماليات والأخلاق والبلاغة والرياضيات ...آلخ، وأما المرحلة الثانية فتوافقت مع التطور العلمي والفلسفي في عصر التنوير، وأما المرحلة الثالثة فهي المرحلة التي تتوافق مع الثورة الصناعية [2].

3. فروع الأنثروبولوجيا

إن الأنثروبولوجيا هي دراسة الإنسان بشكل عام، فهي تهتم بكل أصناف وأعراق البشر في كل الأزمنة، وتدرس المجتمعات البدائية والمجتمعات الحديثة على حد سواء، وفي نفس الوقت تعنى بدراسة أصول وتطور بنية هذه المجتمعات. تشمل الأنثروبولوجيا بعدا اجتماعيا ثقافيا فضلا عن كونها تضم بعدا بيولوجيا سيكولوجيا. وبهذا تشغل الأنثروبولوجيا مكانا واضحا في العلوم الإنسانية والاجتماعية

[1] – الأنثروبولوجيا ،مارك أوجيه، جان بول كولاين ،دار الكتاب الجديد المتحدة، ترجمة وتحقيق جورج كتوره، 2008م، د ط، ص 13

[2] – نفسه، ص 100

بل والطبيعية. وعندما تقدّمت أبحاث العلماء في مختلف الميادين العلمية أصبح من مقدور الأنثروبولوجيين الاستفادةُ من دراستهم للوصول إلى تحديد بعض عناصر ثقافة مجتمعٍ ما، وبعض الظواهر الاجتماعية وذلك من خلال العوامل الثقافية والاجتماعية والبيولوجية .

فإذا تذكرنا أن موضوع علم الإنسان ليس فقط ما يخترعه الإنسان من ثقافات وإنما يشمل أيضا جسم الإنسان ذاته، يتّضح لنا كثرة وتنوع الموضوعات التي تدخل في نطاق علم الإنسان [1].

اختلفت آراء العلماء في تحديد أقسام أو فروع الأنثروبولوجيا. ولكن معظم العلماء المعاصرين يتفقون على تقسيم الأنثروبولوجيا إلى أنثروبولوجيا الطبيعية أي دراسة الإنسان في مظهره البيولوجي، وإلى أنثروبولوجيا اجتماعية وثقافية، أما الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية فتعتني بالطريقة التي تطورت فيها اللغات على مر الزمان، والتنظيمات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والدينية [2].

فالإنسان لا يرتبط بمحيط خاص به، فهو يتأقلم من خلال ثقافته مع أوساط مختلفة، ومن خلال تكويناته البيولوجية يمكنه اكتساب مُروحة واسعة من السلوكيات المختلفة، ذلك لأنه لا يتطور داخل محيط طبيعي فحسب بل هو يتطور أيضا من خلال مرحلة طويلة من التعلم في وسطٍ اجتماعي وثقافي خاص.[3] وبذلك تبيين الأنثروبولوجيا الترابط الحميم بين الجسد الفردي وبين العلاقة الاجتماعية[4].

وفي ضوء هذا تنقسم الأنثروبولوجيا إلى:

[1] – الأنثروبولوجيا ،مارك أوجيه، جان بول كولاين ، نفس المرجع السابق ،ص 16

[2] – نفسه، ص 13

[3] – نفسه ، ص 15

[4] – نفسه، ص 15

أ-الأنثروبولوجيا الفيزيقية أو الطبيعية

تعد الأنثروبولوجيا الفيزيقية أو الطبيعية من أقدم فروع الأنثروبولوجيا، وقد ظهرت بشكل متميز في أواخر القرن 18 ميلادي وأوائل القرن 19 ميلادي تحت تأثير المدرسة الداروينية. ونشأ هذا العلم نتيجة علم التشريح والأبحاث التي أجريت على الحيوانات خلال تلك الفترة وكان في مستهله علما وصفيا فلم يبد إلا اهتماما عرضيا بمشكلة الأصول العنصرية والقوى المحركة للتباين البشري[1]. يرتبط هذا الفرع بالعلوم الطبيعية وخاصة علم التشريح وعلم وظائف الأعضاء Physiology ، وعلم الحياة Biology، وينتمي هذا القسم إلى طائفة العلوم الطبيعية، وأهم تخصصاته علم العظام Osteology، وعلم بناء الإنساني Human morphology، ومقاييس جسم الإنسان Anthropometry، ودراسة مقاييس الأجسام الحية Biometrics، وعلم الجراحة الإنساني human Serology.[2]

وتتناول الأنثروبولوجيا الطبيعية دراسة الإنسان كسلالة متميزة فيهتم الباحث الأنثروبولوجي بدراسة سماته الفيزيقية، بمعنى دراسة خصائصه الجسمية كالسير منتصبا، القدرة على استعمال اليدين، وكذلك الصفات التشريحية مثل الجمجمة، وارتفاع القامة، وشكل الأنف، ولون العين وغيرها، فإن الأنثروبولوجيا الطبيعية تدرس جميع تلك الخصائص والملامح العامة "للبناء الفيزيقي "للإنسان [3].

ومن جهة أخرى تهتم الأنثروبولوجيا الطبيعية بدراسة الإنسان من الناحية العضوية وذلك في نشأته الأولى، ودراسة مراحل تطوره من الرئيسيات Primate حتى اكتسابه الصفات والخصائص السلالية والوراثية التي تميز وتصنف سلالته وأجناسه. وبمعنى آخر، فهي تدرس التاريخ التطوري للكائن البشري بالالتفات إلى مختلف خصائصه وملامحه الحالية والمنقرضة [4]. فقد اهتم علماء الأنثروبولوجيا

[1] – الأنثروبولوجيا- دراسة المجتمعات البدائية محمد الخطيب –، ص 18

[2] – الأنثروبولوجيا الاجتماعية د.عاطف وستي، الطبعة الثانية، دار النهضة العربية، بيروت، 1981 م ،ص 10- ص 12

[3] –ينظر الأنثروبولوجيا محمد الخطيب ، ،ص 19

[4] – نفسه، ص 19

الطبيعية وكذلك علماء الجغرافيا البشرية بدراسة الخصائص الجسمية لتلك السلالات ودراستها، كما درسوا هجراتها وتحركاتها وتأثير العوامل الجغرافية من مناخ وإقليم في أسلوب حياتها [1]. فقد قسم العالم كول " Cole " الجنس البشري إلى أربع مجموعات سلالية ويتفرع من كل مجموعة سلالات فرعية والمجموعات الأربعة الأساسية هي كالآتي :

1-المجموعة القوقازية

2- المجموعة المغولية

3-المجموعة الزنجية

4- المجموعة الأسترالية.

كما تبين الأنثروبولوجيا الطبيعية أهمية الاتصال والاحتكاك بين مختلف الأجناس والشعوب وما ينتج عنه. فقد استفادت الأنثروبولوجيا الطبيعية في دراستها بالنتائج التي توصلت إليها الدراسات الأيكولوجيا، بمعنى دراسة العلاقات المتبادلة بين الإنسان وبيئته الطبيعية التي يعيش فيها . فالبيئة كما فهمها العلماء تشمل كل مِن الأرضِ والماءِ والهواءِ، وكذلك المناخ والطقس وأشعة الشمس[2] فالكائنات الحية كالنبات والحيوانات التي تحيط بالإنسان لها أثر كبير في حياة الإنسان وكذلك في تكوينه. فالبيئة لها دور هام في حياة الإنسان فهي تمده بتلك الثروة الحيوانية والنباتية التي يستخدمها في طعامه، وتساعده في نمو جسمه، فيتحرك وينجب، كما أن البيئة تمد الإنسان والحيوان بالمأوى لتخفف عنهما وطأة المناخ المحيط بهما.

ومن خلال الأنثروبولوجيا الطبيعية تبين أن الإنسان ليس مجرد حيوان ثدي وإنما هو حيوان عاقل يتميز عن جميع الحيوانات بالقدرة على التفكير والتميز ولذلك يسمى الجنس البشري الحالي باصطلاح

[1] - الأنثروبولوجيا ،مارك أوجيه، جان بول كولاين ،ص 20

[2] - ينظر الأنثروبولوجيا محمد الخطيب ، ص21

"الإنسان العاقل " " Homo sapiens " واستطاع الإنسان عن طريق عقله تغير صور عناصر البيئة المحيطة به [1].

ب–الأنثروبولوجيا الثقافية

إن الأنثروبولوجيا الثقافية هي أحد فروع علم الأنثروبولوجيا، فالعالم الأنثروبولوجي يدرس الإنسان في وسط مجتمعه الذي يحيط به، فيدرس سلوكه وقيمه، وعاداته والأنظمة التي يدين بها، واللغة التي يتحدث بها. فالأنثروبولوجيا الثقافية تهتم بدراسة كلٍّ هذه السلوكيات والعادات والتقاليد تحت وطأة الثقافة المحيطة بهذا الإنسان.

فالإنسان على حد ما يقول مالينوفسكي Malinowsky " هو كائن له شكله الفيزيقي، وتراثه الاجتماعي، وسماته الثقافية. فإذا كانت الأنثروبولوجيا الفيزيقية تصف الإنسان تبعا لبنائه العضوي وخصائصه الفسيولوجية، وإذا كانت الأنثروبولوجيا السيكولوجية تهتم بالطبيعة الإنسانية، فإن الأنثروبولوجيا الثقافية، تدرس الإنسان كما يعيش في ثقافته. ومعنى ذلك أن الإنسان في كل زمان ومكان له ثقافته وتراثه الاجتماعي وهذا التراث هو المجال الرئيسي في الأنثروبولوجيا الثقافية [2].

فمعظم التعريفات التي وضعت لفهم المعنى الحقيقي للثقافة تصب في مجرى واحد، رغم اختلاف ألفاظها ولكنها تتفق كلها في النهاية مع التعريف الكلاسيكي الذي وضعه تايلورTaylor في مطلع كتابه عن "الثقافة البدائية " إذ يقول "الحضارة أو الثقافة بمعناها الإثنوغرافي الواسع، هي ذلك الكل المركب الذي يشمل المعرفة والعقائد والفن والأخلاق والقانون والعرف وكل القدرات والعادات الأخرى التي يكتسبها الإنسان من حيث هو عضو في مجتمعه. فعلى الرغم من البساطة الظاهرية لهذا التعريف

[1] – ينظر الأنثروبولوجيا ،مارك أوجيه، جان بول كولاين ،ص 16

[2] – الأنثروبولوجيا محمد الخطيب، ص23

فإنه يكشف في الحقيقة عن كثير من العناصر الأساسية التي يجمع علماء الأنثروبولوجيا والاجتماع على أنها تؤلف أهم خصائص الثقافة ومقوماتها[1].

اهتم علماء التربية والاجتماع والأنثروبولوجيا، بدراسة ثقافة مجتمعٍ ما ومن خلال هذه الدراسة يمكن معرفة أنماط الحياة الاجتماعية للناس ويمكن تفسيرها والتمييز فيما بينها. فللثقافة دور فعّال على أفراد المجتمع وقد قام بعض الباحثين بإلقاء الضوء على بعض الجوانب الهامة للثقافة وهي كالتالي[2]:

1-تُوفِّر الثقافةُ للأفراد صورَ السلوك والتفكير والمشاعر التي ينبغي أن يكون عليها، ولاسيما في مراحله الأولى، إذ ينشأ على قيم وعادات تؤثر في حياته بحسب طبيعة ثقافته التي عاش فيها.

2- توفر الثقافة للأفراد تفسيراتٍ جاهزةً عن الطبيعةِ والكونِ وأصلِ الإنسان ودورةِ الحياة.

3 – تمد الثقافة للفرد المعاني والمعاييرَ التي يستطيع أن يميز على ضوئها ما هو صحيح من الأمور، وما هو خاطئ.

4 – تنمي الثقافة المشتركة في الفرد شعورا بالانتماءِ والولاءِ، فتربطه بالآخَرين في جماعته بشعور واحد، وتميزهم عن الجماعات الأخرى.

5 –تبرز الثقافة الضمير الحي عند الأفراد، إذ يصبح هذا الضمير فيما بعد الرقيب القوي على سلوكياتِهم ومواقفهم.

6 – وأخيرا تكسب الثقافة الفرد، الاتجاهات السليمة لسلوكه العام، في إطار السلوك المعترف به من قبل الجماعة.

[1] – الأنثروبولوجيا محمد الخطيب، المرجع السابق، ص 21

[2] – في أصول التربية، عفيفي محمد الهادي، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1972، د ط، ص 141

فالأنثروبولوجيا الثقافية إذن هي ذلك العلم الذي يهتم بدراسة الثقافة الإنسانية ويعنى بدراسة أساليب حياة الإنسان وسلوكياته النابعة من ثقافته، وهي تدرس الشعوب القديمة، كما تدرس الشعوب المعاصرة.[1]

إن من أهم أهداف الأنثروبولوجيا الثقافية فهم الظواهر الثقافية وتحديد عناصرها، فمن خلال هذه العناصر يمكن معرفة بعض عمليات التغير الثقافي والتمازج الثقافي، وتحديد الخصائص المتشابهة بين الثقافات، وتفسير المراحل التطورية لثقافةٍ معينةٍ في مجتمعٍ معينٍ.

لم تظهر الأنثروبولوجيا الثقافية كفرع مستقلّ عن الأنثروبولوجيا العامة، إلاّ في النصف الثاني من القرن التاسع عشر. وربما يعود الفضل في ذلك إلى تايلور الذي يعد من رواد الأنثروبولوجيا، والذي قدّم أولَ تعريف شامل للثقافة عام 1871م في كتابه "الثقافة البدائية " وقد مرت الأنثروبولوجيا الثقافية بمراحل متعددة، منذ ذلك الحين حتى وصلت إلى ما هي عليه في العصر الحاضر [2].

لقد تعددت العناصر الثقافية التي تدخل في بنية المجتمع الإنساني، فمن أهم عناصر الثقافة اللغةُ إذ عن طريقها تجمع وتسجل الثقافة وتنتقل من جيل لآخر فيمكن نموها وتقدمها، كما أن الثقافة تُزود اللغة بمعظم مضموناتِها، فهي التي تعطي الإنسان الموضوعات التي يتكلم عنها، وتشمل الثقافة كذلك كل ما يصنفه الإنسان من عناصر المادة مثل الملبس والمباني والآلات والأدوات التي تزداد كثافة كلما تقدم الإنسان. ومن أهم عناصر الثقافة العلاقات الاجتماعية التي تربط بين الإنسان وأخيه الإنسان، أي النظم الاجتماعية التي يخترعها الإنسان وذلك بصورة جماعية لينظم تلك العلاقات

[1] – مقدمة في الأنثروبولوجيا العامة بيلزرالف، هويجراهاري، ترجمة محمد الجوهري وآخرون، دار النهضة المصرية، القاهرة، 1977، د ط، ص 21

[2] -Barnuow V ,cultural anthropologie, home Wood illios ,Irwin Inc.,1972,p 7

الاجتماعية[1]. فقد اتفق الأنثروبولوجيون على تقسيم الأنثروبولوجيا الثقافية إلى ثلاثة أقسام أساسية علم الآثار، علم اللغويات، علم الثقافات المقارنة.

1- علم اللغويات

تعتبر اللغة الوعاء الناقل للثقافات البشرية، فقد وصف دارسوا اللغات، علاقة اللغة بالفكر البشري كالآتي "علاقة اللغة بالفكر في تصور القدماء تتحدد جدلا بما يؤول إلى معادلة متسلسلة مؤداها أن اللغة هي التفكير الذي يتحرك ليحرر نفسه فيدرك ثم يدرك نفسه بنفسه "[2].

فاللغة هي من أهم الصفات التي تميز الكائن الإنساني عن غيره من الكائنات الحية الأخرى، فهي الوسيلة التي يتواصل ويتخاطب بها الأفراد والشعوب عامّة.

إن علم اللغات هو العلم الذي يبحث في تركيب اللغات الإنسانية، فهو يحتل مكانا هاما في فرع العلوم الاجتماعية، فقد قدّم الكثير من الإنجازات التي سهلت في معرفة بعض الوقائع الاجتماعية.

إن اللغة لها صلة بالمجتمع الذي ينظمها ويؤطرها على نحو يجعلها مختلفة عن اللغات الأخرى نظاما وعادة وسلوكا، فاللغة ظاهرة اجتماعية تتفق عليها الجماعات البشرية، وهي تعكس كل ما يموج فيها من عادات وتقاليد وثقافة ودين وتنوعات جغرافية وإقليمية، هذه الصلة بين اللغة والمجتمع ولدت ما يسمى علم اللسانيات الاجتماعي (Sociolinguistics)[3].

كما أن اللغة لها صلة بمعرفة أصل الإنسان (Anthropological linguistics)، ذلك لأنه لا يمكن لنا معرفة الأصول الأولى للغة إلا إذا عرفنا أصل الإنسان، وهذا يؤكد الحقيقة القائلة " بأن اللغة عضو بيولوجي كبقية الأعضاء البيولوجية التي خلقت مع الإنسان، ولكن على الرغم من

[1] – ينظر الأنثروبولوجيا ،مارك أوجيه، جان بول كولاين ، ص 21

[2] – مدخل في قضايا أساسية في علم اللسانيات الحديثة، مازن الوعر ،الطبعة الأولى ،1988، ص 27

[3] – المرجع السابق، ص 14

ذلك فإن اللغات البشرية متفاوتة من حيث الرقي الحضاري، فمعرفة العلاقة بين الظاهرة اللغوية والظاهرة الإنسانية يولد لنا ما يسمى بعلم اللسانيات الأنثروبولوجي [1].

إن علماء الأنثروبولوجيا اللغوية، يدرسون اختلافات اللغة، ليكشفوا الإدراكات والنماذج الفكرية المختلفة، في عدد وافر من الحضارات ويدخل في ذلك، دراسة الاختلافات اللغوية في سياقها الاجتماعي، وهو ما يدعى (علم اللغة الاجتماعي) الذي يدرس الاختلاف الموجود في لغة واحدة، ليظهر كيف يعكس الكلام الفروقات الاجتماعية[2]. إن لعلم اللغة دورا هاما في مساعدة بعض الدراسات الاجتماعية والأنثروبولوجية على حد سواء، فبفضل دراسته لبعض الألفاظ وأصول الكلمات نجد علاقة القرابة التي لم تكن واضحة من قبل العالم الاجتماعي أو العالم الأنثروبولوجي.

والذي يمكن ملاحظته هو أن فرع اللغويات حاليا هو من أكثر فروع الأنثروبولوجيا الثقافية، استقلالا وانعزالا عن الفروع الأخرى. ومما لاشك فيه، أن اللغات بما فيها من تراكيب معقدة وغريبة وما تنطوي عليه من تنوع هائل، ولاسيما عند الشعوب البدائية تزود الباحث بمادة دراسة غنية لا يمكن حصرها [3]. ولذلك يعطي كلود ليفي ستروس claude Levis strauss أهمية بالغة للغة ويعتبرها أحدَ الأركان الأساسية في علم الإنسان، وعلى هذا الأساس يرى أن اللغة هي الخاصية الرئيسية التي تميز الإنسان عن باقي الكائنات الحية الأخرى، ولذلك يعتبرها الظاهرة الثقافية الأساسية التي تساعد على فهم الكثير من الظواهر الاجتماعية . ولقد أكد هذا المبدأ في كتابه المشهور "المناطق المدارية الحزينة " فهو نوع من السيرة الذاتية في قالب أنثروبولوجي، إذ يقول "حين نقول الإنسان،

[1] – – مدخل في قضايا أساسية في علم اللسانيات الحديثة، مازن الوعر ، المرجع السابق، ص 14

[2] - KOTTAK PHILLIP ,ANTHROPOLOGIE THE EXPLORATION OF HUMAN DIVERTY ,MC GROW, Hill Inc.,NEW YORK,1994,P 10

[3] – الأنثروبولوجيا وأزمة العالم الحديث لينتون رالف، ترجمة عبد المالك الناشف، المكتبة العصرية، بيروت،1967م،د ط، ص 20

فإننا نعني اللغة، وحين نقول اللغة.فإننا نقصد المجتمع " هذا ما دفعه إلى استخدام مناهج اللغويات الحديثة وأساليبها في تحليله للمعلومات الثقافية [1].

إن جميع اللغات المستعملة في العالم عبارة عن أصوات متناسقة تدل على هذه اللغة أو تلك، وذلك وفق أصولٍ وقواعدَ خاصة بها، ولهذا يرى دارسوا اللغة أن علم اللغويات ينقسم إلى فرعين أساسيين هما علم اللغة الوصفي وعلم أصول اللغات، إذ يهتم الأول بتحليل اللغة في زمن محدَّد، ويقوم اللغوي أو اللساني بدراسة النظم الصوتية، وقواعد اللغة، والمفردات، وتعتبر عملية تحليل اللغات وتصنيفها، كعملية تحليل الأجناس البشرية وتصنيفها، بحيث لا تشكل إلاّ الخطوة الأولى لغيرها من الدراسات المهمة. فاللغات على اختلاف أنواعها، تمثل أداة قيمة في يد العالم، ولاشك في أنها ستساعده في النهاية على التوصل إلى فهم أعمقَ لسيكولوجية الأفراد والمجتمعات[2].

أما الفرع الثاني وهو علم أصول اللغات فهو علم يهدف إلى تحديد أصول اللغات الإنسانية، ولذلك يختص بالجانب التاريخي والمقارن.

إن اللغةَ فضلا عن كل ذلك كما وصفها مازن الوعر «حقيقةٌ تاريخية وتاريخيتها من وجهين خارجي وداخلي، فهي أولا ذاكرة الإنسان الجماعية، يأتمنها الناس على تاريخهم فتستجيب حاملة سجل حضارة الأمم حتى لكأن صيرورة التاريخ البشري وقف على اللغة، وهي ثانيا كيان متطور يحمل طي مضانه بذورَ تبدله وانسلاخه، فجوهره الصيرورة بذاتها، ولا تكتمل دراسة اللغة إلاّ إذا تفاعلت دراسة البنى اللغوية والعلاقات الاجتماعية مع الأبعاد التطورية عبر التاريخ»[3]. وبناء على ما سبق ذكره يتضح لنا أهمية اللغة في دراسات الأنثروبولوجيا الثقافية.

[1] – الطريق إلى المعرفة أبو زيد حامد، كتاب العربي، مجلة العربي ، الكويت ،2001م، ص 86

[2] – الأنثروبولوجيا وأزمة العالم الحديث لينتون رالف ، ص 20

[3] – مدخل في قضايا أساسية في علم اللسانيات الحديثة مازن الوعر، ص88

2- علم الآثار القديمة (Archeology)

يبحث هذا الفرع من علم الأنثروبولوجيا الثقافية، في الأصول الأولى للثقافات الإنسانية، ولاسيما الثقافات المنقرضة. ولعل علمَ الآثار القديمة أكثرُ شيوعا بين فروع الأنثروبولوجيا، وربما كانت مكتشفاته مألوفة لدى الشخص العادي أكثر من مكتشفات الفروع الأخرى. وعلى سبيل المثال، أن اسم (توت عنخ آمون) أحدِ ملوك قدماء المصريين، يكاد يكون معروفا بين معظم الأوساط العامة[1].

إن علم الآثار يعد من أهم العلوم الإنسانية والاجتماعية فهو يعين الدراسات والبحوث الاجتماعية على اكتشاف حضارات وثقافات الشعوب القديمة وخاصة تلك التي لم تكن فيها كتابة، وليس ثمة وثائق مدونة عنها.

فعلم الآثار يستند في دراسته، على البقايا التي خلفها الإنسان في تلك الفترة القديمة، والتي تظهر طبيعة ثقافاته وأهم مميزات تلك الحضارة. ما توصل إليه علم الآثار وهو تفهم العمليات المتصلة بنمو الثقافات والحضارات والعوامل الرئيسية التي ساهمت في ازدهارها أو اندثارها وبالتالي معرفة العوامل المسئولة في هذه التغيرات الثقافية. إن الهدف الواضح من الأبحاث الأركولوجية، هي إعطائنا رؤية واضحة وعلمية عن ماضي الإنسان القديم. كثير ما يلجأ علماء الآثار –الأنثروبولوجيون- إلى الاستفادة من أبحاث علماء الجيولوجيا والمناخ للتحقيق من البقايا التي يكتشفونها، وتاريخ وجودها، كما يتعاون علماء الآثار أيضا، مع المتخصصين في الأنثروبولوجيا الطبيعية، وذلك لعثورهم على البقايا الإنسانية في الحفريات مع البقايا الثقافية وقد نجح علماء الآثار المحدثون في استخدام –الكربون المشع –كوسيلة لتحديد البقايا بدقة[2].

[1] – الأنثروبولوجيا وأزمة العالم الحديث لينتون رالف، ص 22

[2] – الأنثروبولوجيا الثقافية وصفي عاطف، دار النهضة العربية، بيروت ،1971م، د ط، ص 31

فعلم الآثار هو علم يدرس التسلسل التاريخي للأجناس البشرية، ومعرفة التغيرات الثقافية من فترة إلى أخرى وبهذا يكتمل تصور بناء الحياة الاجتماعية في الماضي.

3- علم الثقافات المقارن "الإثنولوجيا " Ethnology

تعد الاثنولوجيا فرع من الأنثروبولوجيا، يختص بالبحث والدراسة عن نشأة السلالات البشرية والأصول الأولى للإنسان. وترجع لفظة (أثنولوجيا) إلى الأصل اليوناني أثنوس Ethnos وتعني دراسة الشعوب . ولذلك تدرس الأثنولوجيا، خصائص الشعوب اللغوية والثقافية والسلالية[1].

ومن هذا المنطلق تعتبر الاثنولوجيا من أقرب العلوم إلى الأنثروبولوجيا، من حيث دراسة الشعوب القديمة وتصنيفها على أساس ميزاتها السلالية والثقافية والاجتماعية دون أن ننسى أنه علم يهتم أيضا بعادات وتقاليد تلك الشعوب.

إن الاثنولوجيا علم يبحث في السلالات القديمة وأصولها وأنماط حياتها، كما يبحث في الحياة الحديثة في المجتمعات المعاصرة، وتأثرها بتلك الأصول القديمة ولذلك تعرف الاثنولوجيا بأنها دراسة الثقافة على أسس مقارنة وعلى ضوء نظريات وقواعد ثابتة،بقصد استنباط تعميمات عن أصول الثقافات وتطورها، وأوجه الاختلاف فيما بينها وتحليل انتشارها تحليلا تاريخيا[2].

وفي النهاية يمكن قول ما قاله توماس بينمان T.peniman "إن هدف الأنثروبولوجيا سواء في الحاضر أم في الماضي هو الدراسة الاثنولوجية، بل إن هدف فروع الأنثروبولوجيا جميعها، الأنثروبولوجيا الجسمية ودراسة ما قبل التاريخ والتكنولوجيا والأنثروبولوجيا الاجتماعية هي أن تثري

[1] – الأنثروبولوجيا العامة اسماعيل قباري محمد، ،منشأة المعارف بالإسكندرية ،1973م، د ط، ص 406

[2] – الإنسان في المرآة كلوكوهون كلايد، ترجمة شاكر سليم، بغداد،1964م،د ط، ص31

معلوماتنا الاثنولوجية وتضيف إليها حتى تساعدنا على فهم الناس في أوضاعهم الخالية والكيفية التي انتهت بهم إلى هذا الوضع[1].

ت –الأنثروبولوجيا الاجتماعية

لقد استخدم هذا المصطلح جيمس فريزرJames Frazer عام 1908م وحدد الأنثروبولوجيا الاجتماعية بأنها محاولة علمية للكشف عما يسميه بالقوانين العامة التي تحكم الظواهر الاجتماعية، وتفسر ماضي مجتمعات الإنسان حتى نتمكّن بفضلها أن نتنبأ بالمستقبل[2].

في حين يعرفها بعض الأنثروبولوجين الاجتماعيين بأنها دراسة السلوك الاجتماعي الذي يتخذ في العادة شكل نظم اجتماعية كالعائلة، ونسق القرابة، والتنظيم السياسي، والإجراءات القانونية، والعبادات الدينية، وغيرها. كما تدرس العلاقة بين هذه النظم سواء في المجتمعات المعاصرة أو في المجتمعات القديمة، التي توجد لدينا عنها معلومات مناسبة من هذا النوع، يمكن معها القيام بمثل هذه الدراسات.[3]

يهتم هذا الميدان بدراسة الكائن البشري اجتماعيا، وبالنظم والعلاقات الإنسانية وكذلك البناءات الاجتماعية. فالأنثروبولوجيا الاجتماعية تقوم بتحليل البناء الاجتماعي للمجتمعات الإنسانية وخاصة المجتمعات البدائية التي يظهر فيها بوضوح تكامل وحدة البناء الاجتماعي، وهكذا يتركز اهتمام هذا الفرع بالقطاع الاجتماعي للثقافة ويتميز بالدراسة المركزة التفصيلية للبناء الاجتماعي وتوضيح الترابط والتأثير المتبادل بين النظم الاجتماعية[4].

[1] – الأنثروبولوجيا محمد الخطيب، ص 26

[2] – نفسه، ص 25

[3] – الأنثروبولوجيا الاجتماعية بريتشاد إدوارد –، ط5، ترجمة أحمد أبو زيد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الإسكندرية،1975م، ص 13

[4] – ينظر الأنثروبولوجيا ،مارك أوجيه، جان بول كولاين ، ص 29

وهكذا إذا كان الأنثروبولوجيون الثقافيون يهتمون بدراسة الإنسان ككائن حضاري يعيش في ثقافة، ويركزون في دراستهم على ثقافة الشعوب بشقيها المادي واللامادي، فإن الأنثروبولوجيين الاجتماعيين يهتمون بدراسة الإنسان الاجتماعي وبالنظم والعلاقات الإنسانية والبناءات الاجتماعية[1].

ولفهم الأنظمة والعمليات الاجتماعية يجب فهم ودراسة النسق الكلي الذي يؤلف النظام الاجتماعي جزءا منه، وينظم هذا النسق ثلاثة عناصر متميزة، هي شخصيات الأفراد الذين يؤلفون المجتمع والبيئة الطبيعية التي يتعين على المجتمع أن يكيف حياته وثقافته معها، وأخيرا المجموعة الكاملة من الوسائل الفنية اللازمة للمعيشة، التي تضمن استمرار بقاء المجتمع عن طريق نقلها من جيل إلى جيل[2].

فالنظام الاجتماعي إذن، هو التعبير التقني الأنثروبولوجي الذي يدل على المظهر الأساسي في حياة الجماعة الإنسانية، وهو يشمل النظم التي تؤلف إطارا لأنواع السلوك جميعها، سواء كان فرديا أو اجتماعيا.[3]

كما أن اللغة والحياة الاجتماعية المنظمة، زودتا الإنسان بأدوات لنقل الثقافات، مهما بلغت من التعقيد، والمحافظة على تراثها. وعملت الحياة الاجتماعية أيضا على جعل الإنسان في حاجة إلى إرث جماعي، يفوق في ثروته ما تحتاج إليه الحيوانات، ولذا كانت المجتمعات، هي نفسها حصيلة الثقافة[4].

[1] – الأنثروبولوجيا محمد الخطيب، ص 25

[2] – ،دراسة الإنسان لينتون رالف، ترجمة عبد المالك الناشف ، المكتبة العصرية ، بيروت ،1964م،د ط، ص357

[3] – أسس الأنثروبولوجيا الاجتماعية هرسكوفيتز ميليفل، ترجمة رباح النفاخ، وزارة الثقافة، دمشق ،1974م، د ط، ص20-21

[4] – دراسة الإنسان لينتون رالف، ص 119

وبناء على ما تقدّم فالأنثروبولوجيا الاجتماعية تهتم بدراسة السلوك الاجتماعي الذي يشكل عادة النظم والأنساق الاجتماعية، كما تهدف الأنثربولوجيا الاجتماعية في أبحاثها إلى دراسة العلاقات المتبادلة بين هذه الأنظمة سواء كانت الدراسة حول المجتمعات المعاصرة أو المجتمعات التاريخية.

ظهرت اللغة بظهور الإنسان، أو بنشأة المجتمع الإنساني، وبالدماغ الإنساني ونموه، وبأطوار الحياة الاجتماعية التي مر بها الإنسان وبالحاجات التي يحتمل أن تكون قد ألجأته إلى اصطناع هذا النظام وهو "اللغة" [1].

يبدو أن كل ما يحدث على الفكر البشري، أو السلوك الأخلاقي، أو المجتمع الإنساني في جميع أحواله السياسية والاقتصادية والدينية والاجتماعية ظاهرا بينا في لغة ذلك المجتمع، بل أننا يمكن أن نتصور حالة ذلك المجتمع الغابر من خلال البقايا اللغوية التي وصلت إلينا، فنعلم ما خلفه لنا من قيم حضارية وفكرية.

اللغة عبارة عن مظهر متفاوت من النشاط الإنساني فهي تراث تاريخي لكل مجتمع، ونتيجة منطقية لنظام اجتماعي نشأ وترعرع فيه. وهو يتفاوت كما يتفاوت كل جهد إبداعي للإنسان بين أمة وأمة، كالعادات والتقاليد والمعتقدات والفنون[2].

وتعد اللغة ظاهرة اجتماعية، نشأت وترعرعت وتطورت داخل المجتمعات البشرية. ومن السهل أن نلتمس البعد الاجتماعي في اللغة، وخير دليل على ذلك ما جاء في النص القرآني في عرض قصة خلق آدم عليه السلام، وتلقينه الأسماء من عند الخالق عز وجل؛ .إذ يقول عز من قائل:﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل

[1]– علم اللغة مقدمة للقارئ العربي د.محمود السعران، د.ت، د ط، لبنان بيروت، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، ص 53

[2]–ينظر اللسان والإنسان مدخل إلى معرفة اللغة د حسن ضاضا، الطبعة الثانية، سوريا دمشق، دار القلم للطباعة والنشر والتوزيع ، 1990 م، ص 32

لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَأَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ ﴿٣٣﴾[1].

فاللغة هي عبارة عن نظام مشترك يتبعه أفراد المجتمع، إذ يتخذونها وسيلة للتواصل فيما بينهم وللتعبير عما يجول في خواطرهم. كما أنها ليست من صنع فرد معين بل هي من صنع المجتمع كله. ولهذا تعتبر اللغة كسائر النظم الاجتماعية يتلقاها الفرد من مجتمعه، فهي ظاهرة اجتماعية جبرية، كما وردت في التعريف الذي اقترحه دوركايم Durkheim إذ اعتبر هذا الأخير اللغة ظاهرة اجتماعية، تنتقل من جيل إلى جيل آخر، فهي إذا كانت فردية بمعنى من المعاني، فهي بمعنى آخر خارج الفرد لأنها وجدت قبل ولادته، وتظل موجودة بعد مماته وهو يكتسبها بحكم ولادته في مجتمع معين. كما أنها إلزامية أي لا تخضع لمنطق الأفراد وإنما تخضع لمنطق العقل الجماعي، فهي بمثابة سلطة لها هيبتها ولها هيمنتها ولابد للفرد من طاعتها واحترامها وأن يسلم بما يسلم به الجميع[2].

يضعنا هذا كله في تساؤلات كثيرة منها: ما هي العوامل التي تجعل اللغة ظاهرة اجتماعية؟ وكيف تتغير اللغة وتتطور؟ ولماذا تشيخ وتموت؟ كل هذه الأسئلة تعيننا على معرفة الإنسان ذاته.

1 اللغة ظاهرة اجتماعية متغيرة:

تعد اللغة المستودع الجماعي الذي يستمد منه الأفراد صور نطقهم الفعلية، كما أنها الشبكة العامة التي تغذي مختلف مصادر الاستعمال الفردي. فهي لا تسير في تنقلها على ألسنة الناس عشوائيا، بل هي مقننة بنظام اتفق عليه أفراد المجتمع. فاللغة مثلها مثل الكائن الحي تتطور وتتغير،

[1] -سورة البقرة(2) ،الآيات : 31-33.

[2] -ينظر- RAFAEL farco benthien,Antoine Meillet ;Comment les mots changent de sens ;édition Dodo press,atelier du centre de recherches historique ,Revue éléctronique du CRH,mise en ligne 21 avril 2011,consulté 14 mars 2013 ,p 41.

كما يعتريها النمو تارة والاضمحلال تارة أخرى، فهي تميل بطبيعتها إلى التغير، وفي ذلك قال ماريو باي Mario pei:"إن الاتجاه الطبيعي للغة هو اتجاه يبعدها عن المركز، فهي تميل إلى التغير، سواء خلال الزمن أو عبر المكان، إلى الحد الذي لا تفوق تياره العوامل الجاذبة نحو المركز وهذه الخاصية العامة للغة تشكل الأساس في كل تغيير لغوي"[1].

ومادام الفكر الإنساني نفسه في تطور مستمر ينتقل من البسيط إلى المركب، ويخطو دائما في درجات النمو والاتساع والتعقيد، فإن اللغة التي هي آلته لا تستطيع أن تقف حيث هي وتبقى مع ذلك على قيد الحياة، بل يجب أن تتطور في عدة اتجاهات[2]. ولقد وضح أولمان ulman ذلك في قوله "اللغة ليست جامدة أو ساكنة، بحال من الأحوال، بالرغم من أن تقدمها قد يبدو بطيئا في بعض الأحيان، فالأصوات والتراكيب والعناصر النحوية وصيغ الكلمات ومعانيها معرضة كلها للتغير والتطور "[3].

ولما كانت اللغة تابعة لأحوال الاجتماع في البسط والقبض وما يتقلب عليه ويحدث فيه بحيث لا تخرج عن أن تكون مرآة تظهره كما هو في نفسه مهما تنوعت أشكاله واختلفت أزياؤه، وهذا التغير هو حقيقة الاصطلاح والمواضعة؛ فالإنسان لما ارتجل المقاطع الثلاثية دل بها على معان محصورة في حدود نظامه الاجتماعي، ثم ضرب في الكلام بمقدار ما يجد من أمره وما يتنبه إليه من حقائق الموجودات التي تكاشفه بنفسها، وما يقتضيه التبسيط في مناحي المجتمعات شيئا فشيئا؛ وذلك عن طريق تكرار الألفاظ وتنويعها للمعاني المختلفة. وهذا النحو لا يزال باقيا في اللغة الأكادية فإنهم يدلون بلفظة واحدة على خمسة عشر معنى وهي لفظة (ga) أو (ca) يدلون على الفم، الوجه، العين، الأذن، الشكل، القدم، الرجل، النظر، التكلم ...الخ[4]. والذي يقصده الباحثون بالتغير اللغوي هو

[1]- أسس علم اللغة ماريوباي، ترجمة أحمد مختار عمر، الطبعة 8 ،عالم الكتب، عمان، الأردن،1998م، ص71

[2]- ينظر اللسان والإنسان حسن ضاضا، ص 107

[3]- ينظر دور الكلمة في اللغة ستيفين أولمان، ترجمة كمال بشر، القاهرة الطبعة 10، مكتبة الشباب سنة 1986م، ص156

[4]- تاريخ آداب العرب د. مصطفى صادق الرافعي، الطبعة 5،المكتبة العصرية ، صيدا بيروت، 2005م الجزء 1،ص 54

انتقال ظاهرة لغوية من حالة إلى حالة أخرى أو حلول ظاهرة لغوية محل ظاهرة لغوية أخرى في مرحلة من مراحل تاريخ اللغة المعينة[1].

ارتبط التغير اللغوي بتطور المجتمع الإنساني؛ ذلك لأن اللغة في تفاعل دائم مع طبيعة العلاقات الاجتماعية والحضارية والسياسية، وكل ما في المجتمع عبر الأجيال[2]. فهي ظاهرة اجتماعية لابد من خضوعها لعوامل التطور في المجتمع من حيث عقليته وثقافته ووسائل إنتاجه المختلفة[3]، مستمدة كيانها من عاداته وتقاليده وسلوك أفراده، فاللغة تتطور وترقى برقي هذا المجتمع وتنحط بانحطاطه[4].

وتبعا لهذا التطور تتغير دلالات الألفاظ من زمن إلى آخر بحسب الاستعمال المجازي لها، فالأصوات والتراكيب والعناصر النحوية، وصيغ الكلمات ومعانيها معرضة كلها للتغير والتطور، ولكن سرعة الحركة والتغير فقط هي التي تختلف من مدة زمنية إلى أخرى، ومن مستوى إلى آخر من مستويات اللغة، فلو قمنا بمقارنة كاملة بين فترتين متباعدتين لتكشف لنا الأمر عن اختلافات عميقة كثيرة، من شأنها أن تعوق فهم المرحلة السابقة وإدراكها إدراكا تاما. وأن اللغة تنتقل من جيل إلى آخر على فترات تتخللها تغيرات وانحرافات دائمة، وهذه الحقيقة ذاتها تؤدي إلى المرونة في الاستعمال، وإلى عدم ثبات الظواهر اللغوية[5].

ولهذا اتفق معظم اللغويين على إعطاء بعض الأسباب التي تؤدي إلى هذه التغيرات. فقسموا هذه الأسباب إلى داخلية وخارجية.

أمّا الأسباب الخارجية كتأثير لغة في أخرى، كذلك الامتزاج بين الثقافات واحتكاك الحضارات، وقد يكون أحيانا بسبب هجرات سكانية أو حروب.

---

[1]- مدخل إلى اللغة عبد العزيز محمد حسن، د ط، دار الفكر، القاهرة، 1988م، ص15

[2]- علم اللغة العام د. عبد صبور شاهين، الطبعة 6، مؤسسة الرسالة، بيروت لبنان، 1993م، ص 141

[3]- لحن العامة والتطور اللغوي د.رمضان عبد التواب، الطبعة 2، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، 2000م، ص5

[4]- نفسه، ص 119.

[5]- دور الكلمة في اللغة ستيفين أولمان، ص 170-171

وأمّا الأسباب الداخلية فمثلا استعارة ألفاظ من لغات أخرى مثل راديو، radio فيلم film ،...وغيرها. ومن بين الأسباب كذلك ميل النفوس البشرية إلى بذل الجهد الأقل في نطق بعض الأصوات ومن خلال هذه الظاهرة يمكن أن نفهم حين نرى بعض الأصوات قد حذفت أو أدغمت، وعلى سبيل المثال في اللغة العربية قلب الهمزة إلى صائت كما في الكلمات التالية بئر، فأر، كأس فأصبحت بير، فار، كاس ...وغيرها. كمّا يعد القياس من أهم الأسباب الداخلية في التغير فقد يطرأ على كلمة واحدة تغيير فيصير هذا شائعا في كلمات أخرى، وخير مثال على ذلك لغة الأطفال، فالطفل يميل إلى القياس والسير على وتيرة واحدة حيال جميع الكلمات فتراه مثلا يتبع طريقة واحدة في التأنيث فيقول خروف خروفة، حصان حصانة، كبير كبيرة...[1].

ويقول صبري إبراهيم السيد في هذا التطور والتغير الحيوي للغة:" إن التغير اللغوي يكون استجابة لجوانب كثيرة من السلوك الإنساني، وقد ينتج من الاتصال الثقافي والتمدن والتصنيع، وقد يرتبط جزئيا بمتغيرات اجتماعية معينة. وذلك أن اللغة لها ارتباطها القوي بالمجتمع، فكل تغير وتطور يحدث يتردد صداه في أداة التعبير. وكلما تقدمت الحياة فإن اللغة يجب أن تتحرك لتستوعب كل مظاهر الحياة الجديدة، ويكون أمامها حينئذ سبيلان إما المحافظة على الألفاظ الموروثة مع اكتسابها دلالة جديدة. وإما أن تستعير ألفاظ اللغات الأجنبية التي تطلق على المبتكرات الجديدة كالراديو، السوبرماركت..الخ."[2]

كما رأى اللغوي الفرنسي أرسين دارنستير Arséne Darnester "أن أية لغة كانت وفي أية فترة كانت من وجودها، في تطور دائم مستمر، يتنازعها في تطورها هذا عاملان متناقضان تجاهد

[1]- علم اللغة د.علي عبد الواحد وافي، الطبعة 9، شركة نهضة مصر للطباعة والنشر ،2004م، ص 145

[2]- علم اللغة الاجتماعي السيد صبري إبراهيم، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية ،1995م، ص199

اللغة في الاحتفاظ بالتوازن بينهما، وبقدر احتفاظها بهذا التوازن يكتب لها طول العمر بين الناطقين بها، وهذان العاملان هما عامل المحافظة من ناحية، وعامل التطور من ناحية أخرى"[1].

أما فيما يخص عامل المحافظة، فإن اللغة بعد أن صارت الآلة الأساسية للتفاهم وتبادل الأفكار بين أفراد المجتمع الواحد، تتحول في ذلك المجتمع إلى أداة من أدوات الترف، فهي تخرج عن نطاق الاستجابة إلى مطالب ضرورية، لتصير فنا يقصد لذاته. وهذا ما رآه حسن ظاظا إذ قال" فاللغة، مع تقدم الحضارة وتبلور التقاليد وتكون الذوق الجمالي وحرص الآباء على أن يكون أبناؤهم صورة منهم، وصورة محسنة منقحة منقاة من الشوائب، كل ذلك أوجد لدى البشر إحساسا جماليا بحتا باللغة، إذ لم يعد الإنسان يكتفي منها بمجرد الفهم والإفهام، بل راح يتلذذ بالجرس الحسن والصيغة الجميلة، والتعبير المحكم، والصور البيانية الرائعة، وأخذ يتذوق ذلك، ويجذب إليه انتباه أبنائه ومن يهمه أمرهم من ذويه، كما أقام الأسواق للشعر والأدب والخطابة، وأعطى المتفننين في استعمال اللغة فرصا نادرة في قيادة المجتمع وحيازة الشرف والمجد والثروة "[2].

كما تعد نزول الكتب المقدسة ببعض اللغات سببا في محافظة وإجلال هذه اللغات من قبل المؤمنين بها لِمَا لها من هيبة وإجلال في صدورهم. فأصبحت هذه النصوص نماذج لغوية ومثلا عاليا، وحواجز في وجه التطور اللغوي الطبيعي في كثير من الأحيان[3]. فعامل المحافظة، يعد حاجزا لظاهرة التطور اللغوي، لأنه يرى أن اللغة تراث قومي، وخاصة إذا كانت النصوص الدينية بنفس تلك اللغة، فيصير أفراد ذلك المجتمع مسئولون عن تلك اللغة بالمحافظة عليها كما كان ذلك في عهد السلف.

أمّا عامل التطور فهو عكس عامل المحافظة، فهو دائم التطور، مستمر في النمو، يتقدم ولا يعرف الوقوف، وهذا كله راجع لعدة أسباب من بينها امتزاج الثقافات، واحتكاك الحضارات،

[1]- اللسان والإنسان حسن ضاضا، ص93

[2]- نفسه، ص94

[3]- نفسه، ص 94

وهجرات سكانية، وحروب، وتعاقب الأزمان والأجيال، مع وجود الفارق في دقة التلقي عن طريق السمع، وعن طريق المحاكاة بين الأبناء وآبائهم، كل ذلك يحدث عاهات عميقة في شكل اللغة بل يظهر فيها لهجات تتنوع وتنفصل عن اللغة الأم[1].

فالتطور اللغوي يلحق بجميع الأنظمة اللغوية، فقد يصيب النظام الصوتي كاملا أو جزءا منه، وقد يصيب النظام الصرفي والنحوي وقد يقع في دلالة الألفاظ وفي المفردات.

2 –أسباب التغير اللغوي

اللغة ظاهرة اجتماعية صارت من أكثر الظواهر التصاقا بحياة الأفراد، تخضع لمقياس المجتمع، وأعرافه وتقاليده، وثقافته بل هي الطريق لكشف عادات المجتمع، وتقاليده، ومستوياته الثقافية، والمعرفية، والحضارية، فهي قطعة من الحياة بل إنها صانعة ومبدعة لها إذ تنشأ في المجتمع، وتسير معه وتتغذى بغذائه، وتنهض بنهوضه، وتركد بركوده، وكان تاريخ اللغة وسيظل مجالا رحبا نتصفح من خلاله تاريخ الحضارات الإنسانية[2].

فاللغة تعد إحدى مكونات الوجود الثقافي لأي مجتمع، وهي جزء لا يتجزأ من ثقافة أي فرد .... فالتغير اللغوي هو تغير ثقافي بالدرجة الأولى. وفي ذلك يقول جان بيرو Jane Peraut :" من الثابت أن بنية أية لغة من اللغات ذات علاقة بعقلية وثقافة المتكلمين بها، وأيضا بنظمهم وحضارتهم المادية "[3].فأية لغة من اللغات الحية هي نظام معين من النظم الاجتماعية التي تندرج تحت نسق ثقافي معين، وهي بهذا الاعتبار تكون خاضعة لتطور مشروط بتطور وتغير الجماعة التي

[1]–ينظر اللسان والإنسان حسن ضاضا، ص95

[2]–ينظر التفسير اللغوي الاجتماعي للقراءات القرآنية د هادي نهر، الطبعة 1، دار العالم للكتاب الحديث، الأردن،1429هـ، ص17-18

[3]– أنثروبولوجيا اللغوية د مها فوزي، ص 110

تتكلمها[1]. فالتغير صفة فعلية في المجتمعات وهي ظاهرة شائعة لا تقبل الشك والريب، كما أنها صورة كامنة في الفرد والجماعة. وانطلاقا من هذا المبدأ، يمكن القول بأن اللغة التي تعد نظام من أنظمة المجتمع تخضع هي الأخرى إلى سنن التغير والتطور وهذا على مرور الزمن واختلاف الأحوال.

يعتبر التغيير اللغوي في المجتمع، تغيرا ثقافيا واجتماعيا في الدرجة الأولى، فاللغة تتغير بتغيير الثقافات حتى يمكن أن تعبر عن تلك الثقافة المنتمية إليها، ومن ثمَّ يتسنى لها القيام بوظيفتها في المجتمع على أكمل وجه[2]. فمظاهر التطور والتغير اللغوي كثيرة لا يكاد الباحث أن يحيط بها، ولكن هناك خطوط رئيسية في هذا التطور ينبغي التعرف عليها.

1.3-الصراع اللغوي :

تحتاج الحياة الاجتماعية إلى صلات وروابط بين الأفراد والجماعات والشعوب؛ ومعنى ذلك أن احتكاك الشعوب يؤدي إلى احتكاك لغاتها. فيحدث بين اللغات ما يحدث بين الأفراد من احتكاك وصراع وتنازع على البقاء وسعي وراء الغلبة والسيطرة. وتختلف نتائج هذا الصراع باختلاف الأحوال، والذي يعنينا من ذلك أن هذا الصراع يؤدي إلى تغير اللغة واختلاف أحوالها، وتعدد ألفاظها، وتحوير مرادفاتها[3].

فالصراع بين لغتين يؤدي إلى انتصار إحداهما على الأخرى طبقا لقوانين لغوية؛ فالأقوى حضارة ومادة قد يكتب له الانتصار. ولكن اللغة المغلوبة تترك أثرها في الغالبين وتؤدي إلى تطور أو تغيير في لغتهم[4].كما أن الصراع اللغوي قد يؤدي إلى ظهور عدة لهجات من لغة ما، ثم ترتقي إحدى هذه

[1]- أنثروبولوجيا اللغوية د مها فوزي، المرجع السابق، ص110

[2]-المرجع نفسه، ص 111

[3]- نفسه، ص 112

[4]- فقه اللغة د علي عبد الواحد وافي، الطبعة 6، لجنة البيان العربي مطبعة الرسالة، مصر،1986م ص92

اللهجات أو بعضها إلى مستوى اللغة الأدبية الفصحى، وقد تلحق هذه اللهجات واللغات تطورات وتغيرات كثيرة تبعدها عن أصلها.[1]

إن العلماء المحدثين يؤكدون على دور السياق في تحديد المعنى، إذ اهتموا بكيفية استعمال الكلمة في إطار مجتمع بعينه أو مجموعة ثقافية، أو دينية، أو علمية، أو مهنية. ومن هنا وضح عبد الواحد وافي أن هذا الاستعمال (استعمال الكلمة في إطار المجتمع بعينه) يسمى باللهجات الاجتماعية فقد تتشعب أحيانا لغة المحادثة في البلد الواحد أو المنطقة الواحدة إلى لهجات مختلفة تبعا لاختلاف طبقات الناس وفئاتهم[2]. وهذا كله راجع إلى الصراع اللغوي الذي يحدث بين مختلف الطبقات الاجتماعية في المجتمع الواحد، فتظهر ألفاظ وتعابير خاصة بأصحاب الحرف المختلفة لا يكاد يعرفها غيرهم.

ويقول السمرائي:"وقد فطن الجاحظ إلى استعمالات ولهجات الطبقات الدنيا في المجتمع في أيامه، فهو يعرض لغة المتسولين والمحتالين ولا سيما ما جاء في كتاب "البخلاء" من هذا الباب. كما أشار الجاحظ إلى جماعة من هذه الجماعات التي ارتضت لنفسها أن تحيا حياة خاصة، وهم اللصوص، وقد كتب في هذا الموضوع رسالة أسماها كتاب اللصوص. ولعل هواية الجاحظ في تسجيل آداب العلوم وملحهم وظروفهم هي التي دفعته إلى أن يسجل حكايات عن الملاحين مع ذكر المصطلحات التي يستعملونها»[3].

ومن حالات الصراع اللغوي التي يمكننا أن نشير إليها بشكل سريع هي:

[1]-ينظر مقدمة القارئ العربي د. محمود السعران، ص 245

[2]- علم اللغة د. عبد الواحد وافي، ص 188

[3]- ينظر، اللسان والإنسان، حسن ظاظا، ص105

أ-صراع بين لغة ولغة أخرى أجنبية، وهي أن تكون الغلبة لإحدى اللغات ومن الأمثلة على ذلك تغلب لغة العرب على الكثير من اللغات السامية، وقد لا تتغلب إحداهما على الأخرى وإنما يحدث تأثر وتأثير بينهما؛ كما حصل للغة العربية والفارسية، والإسبانية، والأوردية...[1].

ب-صراع بين لغة وأخرى داخل لغة واحدة (لهجات)، وفي هذه الحالة ما حدث في اللغة العربية نفسها من صراع بين عدة لهجات عربية متفرقة كانت الغلبة في النهاية للغة قريش ويرجع هذا لعدة عوامل "دينية، سياسية، اقتصادية...."[2].

ت-صراع بين لغة مثالية وأخرى عامية في داخل لغة واحدة، ففي هذه الحالة خير ما نجده كمثال هو ما يحدث في اللغة العربية؛ إذ إن اللغة العربية الفصحى لا تستعمل إلا في مواضيع خاصة، بينما نجد العامية متداولة بين أفراد المجتمع وفي شتى المجالات، إذ إن الفصحى تواجه صعوبات كثيرة وهذا لسيطرة العامية على واقع المجتمعات العربية.

إن اللغة التي يتم لها الغلبة تفرض نفسها على اللغة المتأثرة، فتقتضي نواميس الصراع اللغوي أن يكتب النصر للغة القوية.

وهناك عامل خارجي جديد ظهر جليا في هذا العصر وهو القوة العلمية؛ فالبلدان الأجنبية المتقدمة حضاريا صارت مصدرة للغتها عن طريق التقدم العلمي الذي نالته، فمثلا أصبحت لغة العلم في العالم هي اللغة الإنجليزية، إذ أثرت هذه الأخيرة على جميع لغات العالم بما فيها اللغة العربية. فالتقدم العلمي بجانبيه العلمي والعملي له أثر كبير في الصراع اللغوي. والذي نلاحظه على مر العصور هو أن اللغات لا تبقى على وتيرة واحدة بل يلحقها تغير وتطور، وهذه سنة الحياة المتلازمة مع طبيعة البشر.

[1]- ينظر علم اللغة د علي عبد الواقي، ص 230-239

[2]- علم اللغة ومناهج البحث اللغوي د رمضان عبد التواب ، الطبعة 3، مطبعة الخانجي، القاهرة ،1997م، ص 167-169

2.3-الاحتكاك اللغوي

إن الاحتكاك اللغوي من العوامل التي تؤثر في تغير إحدى اللغات وبناء على هذا التأثير تنتقل مختلف الكلمات من لغة إلى أخرى. ويقول حسن عبد العزيز في هذا الموضع: "إنها عوامل إنسانية وليست مجرد مرور زمن يطول أو يقصر ولو مرت أجيال وأجيال دون أن يحدث من الأحداث ما يحمل جماعة لغوية على الاختلاط بجماعة لغوية أخرى أو يفرقها عنها فإنه ليس لهذه الأجيال الطويلة من أثر يذكر ولكن لو مرت سنوات قليلة مليئة بالأحداث التي تحمل الجماعات الإنسانية على الاختلاط فإن هذه السنوات أهم من الأجيال الطويلة التي خلت من الأحداث"[1].

ومن أهم العوامل التي تجعل لغة تتأثر بلغة أخرى هو الاحتكاك الحضاري، ويتحدث عبد الواحد وافي عن الاحتكاك الحضاري فيقول: "من المقرر أن أي احتكاك يحدث بين لغتين أو بين لهجتين أو بين حضارتين أيا كان سبب هذا الاحتكاك ومهما كانت درجته وكيفما كانت نتائجه الأخيرة. يؤدي لا محالة إلى تأثر كل منهما بالأخرى فكلما قويت العلاقات التي تربط أحدهما بالآخر وكثرت فرص احتكاكهما نشطت بينهما حركة التبادل اللغوي ولذلك تبلغ هذه الحركة أقصى شدّتها حينما يسكن الشعبان منطقة واحدة أو منطقتين متجاورتين"[2]. وأضاف: "كذلك نرى أن المفردات التي تقتبسها لغة ما عن غيرها من اللغات يتصل معظمها بأمور قد اختص بها أهل تلك اللغات أو برزوا فيها وامتازوا بإنتاجها أو كثر استخدامها وأخذها منهم أو اعتمد عليهم فيها أهل هذه اللغة فمعظم ما انتقل إلى العربية من المفردات الفارسية واليونانية يتصل بنواح مادية أو فكرية امتاز بها الفرس واليونان وأخذها عنهم العرب[3]".

كما بين أحمد بن محمد الضبيب بأن الاحتكاك الحضاري يستتبع احتكاكا لغويا بين اللغة الأصلية واللغة الوافدة إذ يقول:" إن الاحتكاك الحضاري يستتبع احتكاكا لغويا في الغالب بين اللغة

[1]- المدخل إلى اللغة د حسن عبد العزيز، ص277

[2]- اللغة والمجتمع د علي عبد الواحد وافي، الطبعة 2، دار إحياء التراث العربي، لبنان، بيروت، 1951م، ص29

[3]- المرجع نفسه، ص 29

الأصلية واللغة الوافدة؛ عندما كان العرب يعيشون منعزلين نسبيا في جزيرتهم العربية لم تكن لغتهم تتعرض للاحتكاك بالدرجة التي تؤثر فيها تأثيرا عميقا، ولذلك اقتصرت التأثيرات الأجنبية فيها على بعض الألفاظ التي أفادها التجار أو الشعراء من البلدان المجاورة، والمتعلقة في الغالب بأسماء الأدوات أو النباتات التي لم يكن للعرب بها عهد في جزيرتهم، لكن بعد أن انتشر العرب في بلاد الله الواسعة بفعل الفتوحات واستقروا في الأمصار الإسلامية التي دانت بالإسلام أخذت التحديات تواجه العربية بفعل احتكاكها بلغات البلدان المفتوحة، ومع أن اللغة العربية في ذلك الوقت هي التي كانت تكسب الجولات المختلفة، فتنتصر على تلك اللغات في بلدانها، وتحول أبنائها إلى الثقافة العربية واللغة العربية كما حدث في مصر على سبيل المثال، إلا أن تأثير هذه اللغات الأجنبية عليها كان واضحا بالدرجة التي جعلت المخلصين من علمائنا القدماء يبادرون إلى جمع اللغة من أفواه العرب الأصلاء ويضعون القواعد النحوية من أجل تفادي اللحن"[1].

ويوضح الضبيب بأن الوضع الحضاري للغة هو العامل الحقيقي لتأثير لغة على لغة أخرى إذ يقول: "والواقع أن الاحتكاك الحضاري أيا كان نوعه لا بد أن ينتج عنه تأثر وتأثير في مجال اللغة ويعتمد هذا النشاط على قوة اللغة المؤثرة، وقوة أهلها السياسية والثقافية، فقد تكتسح اللغة القوية اللغة المستسلمة فتحيلها إلى أشلاء، أو تجعل منها جسدا ميتا منحطا، يقصده المتفرجون للعظة والعبرة، أو للدراسة والمقارنة دون إسهام فاعل في مجرى الحياة، أو مشاركة جادة في صنع الحضارة[2].

وبهذا يتضح لنا أن الاحتكاك الحضاري ينتج عنه احتكاك لغوي، فتتأثر لغة بلغة أخرى. ومن ثمّ تنتقل مفردات وكلمات من اللغة أقوى حضاريا إلى اللغة أقل قوة. وبهذا يعد التفاعل الحضاري من بين أهم الأسباب التي تؤدي إلى انتشار مفردات وكلمات في المجتمعات الأخرى.

1- مقالة بعنوان، عوامل تأثير اللغة الانجليزية على اللغة العربية د أحمد بن محمد الضبيب، الطبعة الأولى، مؤسسة الجزيرة للصحافة والطباعة والنشر، المملكة العربية السعودية، الرياض، الأحد 19 نوفمبر 2000م

2- نفس المقال

3.3- الغزو اللغوي

يتحدث إبراهيم أنيس عن قضية الغزو اللغوي بقوله:"قد يغزو شعب من الشعوب أرضا يتكلم أهلها لغة أخرى فيقوم صراع عنيف بين اللغتين الغازية والمغزوة وتكون النتيجة عادة إما القضاء على إحدى اللغتين قضاء يكاد يكون تاما أو أن ينشأ من هذا الصراع لغة مشتقة من كلتا اللغتين الغازية والمغزوة يشتمل عناصر من هذه وأخرى من تلك."[1].

كما بيّن علي عبد الواحد وافي أن انتشار الفصيلة الهندية الأوروبية راجع إلى عدة أسباب وأهمها الغزو إذ يقول:"يرجع الفضل في انتشار الفصيلة الهندية الأوروبية إلى عوامل كثيرة أهمها الغزو والاستعمار، فعلى أثر غزو الآريين للهند انتشرت لغتهم في هذه البلاد وقضت على لغات السكان الأصليين ولم يبق من هذه اللغات إلاّ آثارا ضئيلة وعلى أثر استعمار الأوروبيين للأمريكيتين واستراليا وجنوب إفريقيا انتقلت إلى هذه المناطق اللغات الإنجليزية والإسبانية والفرنسية"[2].

ووضح. علي عبد الواحد وافي النتائج المتعلقة بالحالات التي تتغلب فيها إحدى اللغتين على الأخرى بقوله:" وتحدث النتيجة الأولى وهي أن تتغلب إحدى اللغتين على الأخرى فتصبح لغة جميع السكان أصيلهم ودخيلهم. كما يمكن أن يكون كلا الشعبين همجيا قليل الحضارة منحط الثقافة ويزيد عدد أفراد أحدهما عن عدد أفراد الآخر زيادة كبيرة ففي هذه الحالة تتغلب لغة أكثرهما عددا سواء أكانت لغة الغالب أم المغلوب لغة الأصيل أم الدخيل ولكن هذه النتيجة لا تحدث إلا إذا كانت اللغتان المتصارعتان من شعبة لغوية واحدة أو من شعبتين متقاربتين، والأمثلة على ذلك كثيرة في التاريخ فمن ذلك الانجليز السكسونيين حينما نزحوا من أواسط أوروبا إلى انجلترا لم تلبث لغتهم أن تغلبت على اللغات السلتية التي كان يتكلم بها السكان الأصليون وذلك لأن عدد من بقي من

[1]- المدخل إلى اللغة د.محمد عبد العزيز، ص 279

[2]- نشأة اللغة عند الإنسان والطفل د. علي عبد الواحد وافي، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، 2003، د ط، ص69

السلتيين بهذه الأقاليم لم يكن شيئا مذكورا وكلا الشعبين كان همجيا منحطا في مستوى حضارته ومبلغ ثقافته وكلتا اللغتين تنتمي إلى فصيلة اللغات الهندية الأوروبية "[1].

أمّا في حالة يكون الشعب الغالب أرقى من الشعب المغلوب في حضارته يقول علي عبد الواحد وافي :" وأمّا في هذه الحالة أن يكون الشعب الغالب أرقى من الشعب المغلوب في حضارته وثقافته وآداب لغته وأشد منه بأسا وأوسع نفوذا ففي هذه الحالة يكتب النصر للغته فتصبح لغة جميع السكان وإن قل عدد أفراده عن أفراد الشعب المغلوب، على شريطة أن تدوم غلبته وقوته مدة كافية وأن تقيم بصفة دائمة جلية يعتد بها من أفراده في بلاد الشعب المغلوب وأن تمتزج بأفراد هذا الشعب وأن تكون اللغتان من شعبة لغوية واحدة أو من شعبتين متقاربتين والأمثلة على ذلك كثيرة في التاريخ فقد نجم عن فتوح الرومان في وسط أوروبا وشرقيها أن تغلبت لغتهم اللاتينية على اللغات الأصلية لإيطاليا وإسبانيا، مع أن الرومان المغيرين كانوا في هذه البلاد أقلية بالنسبة لسكانها الأصليين وقد نجم عن فتوح العرب في آسيا وإفريقيا أن تغلبت لغتهم على كثير من اللغات السامية الأخرى وعلى اللغات القبطية والبربرية (هي لغات السكان الأصليين لشمال إفريقيا) فأصبحت اللغة العربية لغة الحديث والكتابة في معظم مناطق شبه الجزيرة العربية وفي مصر والسودان وشمال إفريقيا "[2].

ويدرك من هذه الأبحاث أن عامل الغزو على اللغة يؤثر على لغة أخرى إذ تتسلل كلمات من لغة إلى لغة أخرى فإذا أمعن النظر في نتائج الاحتلال الفرنسي على المغرب العربي يلاحظ أن اللغة الفرنسية تركت أثرا عميقا على سكان المغرب العربي، فالمواد الأساسية في الجامعات والكليات والمعاهد تدرس باللغة الفرنسية ونتيجة لذلك تنتقل مختلف الكلمات والمفردات والعبارات من اللغة الفرنسية إلى اللغة العربية. وبالتالي يمكننا أن ندرك أن الغزو له أثر كبير على اللغة، فتنتقل بعض المفردات من لغة إلى لغة وذلك حسب الحالات كما سبق وأن شرحناها.

[1] اللغة والمجتمع، د علي عبد الواحد وافي، ص 117

[2] -المرجع السابق، ص 118

إن اللغة هي دليل كل علم وهي السبيل إليه، وما كان في الوجود شيء أكثرا تأثيرا من اللغة، التي بثت الحياة في العدم فأخصبت. لو لا اللغة لبقيت اللطيفة الإنسانية كامنة محجوبة، ولاستولى الخفاء على قاصيها ودانيها، ولعجزة النفس عن أن تنتهي إلى خابية الحق المعتقة [1].

فالمعرفة اللغوية هي التي تكشف بوضوح مجاهل تاريخ الفكر البشري فتيسر الطريق إلى الإنسانية وإلى خلافة هذه الأرض. فالأمة حيّة بحياة لغتها، والحياة تطور دائم، ونمو مستمر، وتقدم لا يعرف الوقوف. فاللغة دائمة التعرض إلى موجات التغيير والتطور، تقف من ورائهما الحضارة قوة دافعة، فاختلاط الناس بعضهم ببعض، والترحال من مكان إلى آخر ووجود عناصر بشرية جديدة تدخل على مجموعة مستقرة فتؤثر في نطقها، والهجرة الجماعية من البيئة الأصلية إلى أقطار بعيدة أخرى، وتعاقب الأزمان والأجيال، مع وجود الفارق في دقة التلقي عن طريق السمع، وعن طريق المحاكاة بين الأبناء وآبائهم، كل ذلك يحدث عاهات عميقة في شكل اللغة بل يظهر فيها لهجات تتنوع وتنفصل عن اللغة الأم[2].

ومما لا ريب فيه أن دراسة اللغة وتحليلها وفهم العوامل المؤثرة فيها تساعد الباحث في فهم أعمق لسيكولوجية الأفراد والمجتمعات.

[1]-ينظر اللسان والإنسان، حسن ضاضا، ص 80

[2]-نفسه، ص 95

أنزل الله عز وجل القرآن الكريم على رسوله صلى الله عليه وسلم مسموعا، فاللفظة أو الكلمة المسموعة هي المدخل الأساسي للمعلومات إلى عقل البشر، وبفضلها تنمو قدراته الاجتماعية والعقلية، وهذا ما وضحه عبد القاهر الجرجاني في مقدمة كتابه "أسرار البلاغة" إذ قال " اعلم أن الكلام هو الذي يعطي العلوم منازلها، ويبين مراتبها، ويكشف عن صورها، ويجني صنوف ثمارها، ويدل على أسرارها، ويبرز مكنون ضمائرها، وبه أبان الله تعالى الإنسان من سائر الحيوان، فقال عز من قائل:﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ۝٤﴾[1] فلولاه لم تكن لتتعدى فوائد العلم عالمه، ولا صح من العاقل أن يفتق عن أزاهير العقل كمائمه، ولتعطلت قوى الخواطر والأفكار من معانيها »[2].

ولقد كرم الله عز وجل الإنسان بقدرة الكلام ليتمكن من التواصل، فالشخص العاجز عن التعبير بما يريده يصبح كالعبد؛ انطلاقا من هذا بيّن لودفج فيورياج ludwing feurbach أن الكلام هو تعبير عن الحرية والكلمة هي الحرية نفسها[3] . كما تعني اللغة مجموعة من الرموز والأصوات المعينة التي بفضلها يعبر كل فرد من أفراد المجتمع عن أغراضه وحاجاته، فهي تمس مجالات معرفية مختلفة، وتقوم بوظائف عديدة، وهي تعد موضوع دراسات متعددة في آن واحد كالفيزيولوجيا physiologie والسوسيولوجيا sociologie والأنثروبولوجيا anthropologie والسيكولوجيا sycologie واللسانيات linguistique....الخ. فاللغة ظاهرة فيزيولوجية لأنها تدفع عددا من أعضاء الجسم إلى العمل فهي تربط الجهاز العصبي بأعضاء الكلام (كالحنجرة والفم ...الخ) وبالإيماءات الجسدية، كما أنها فعل إنساني لأنها تتطلب نشاطا إراديا من العقل. زيادة على

[1]- سورة الرحمن، آ(1-2-3-4)

[2]- أسرار البلاغة ،عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني النحوي، قرأه وعلق عليه أبو فهر محمود محمد شاكر، دار المدني للنشر، جدة، د ط،1991م، مقدمة ،ص 2.

[3]ينظر الأنثروبولوجية اللغوية د مها محمد فوزي معاذ، دار المعرفة الجامعية، د ط،الاسكندرية،2005م، ص13

ذلك تعد اللغة مؤسسة اجتماعية تتمظهر على شكل نسق رمزي يوحد بين أفراد المجتمع الواحد، وهي أخيرا حقيقة تاريخية ثابتة من عصور متباعدة في القدم، وستبقى موجودة في المجتمع حتى يرث الله الأرض ومن عليها. وبهذا تتخذ اللغة مظهرا إشكاليا يتجلى في تنوعات مختلفة ومتميزة، فهي ظاهرة فطرية وثقافية، وفعل كلامي فردي، وظاهرة اجتماعية موضوعية، كما أنها نتاج للفكر ووسيلة للتواصل والتبليغ.[1]

1- البحوث المنبثقة عن اشتراك علم اللغة بعلم الأنثروبولوجيا

لقد نتج من اشتراك الدراسات الأنثروبولوجيا واللغوية العديد من المباحث الجديدة الموزعة بين الدراستين. فتارة هناك تداخل بين الدرسين، وتارة أخرى يكون هناك ازدواجية بين المجالين، فظهرت البحوث الفرعية التالية:

1.2الأنثروبولوجيا اللغوية Linguistic Anthropology

لقد كان الارتباط الوثيق بين اللغة والمجتمع والثقافة وراء الاهتمام الذي أبداه الأنثروبولوجيون لدراسة لغات المجتمعات، فاللغة هي الباب الذي يلج منه الأنثروبولوجي إلى داخل المجتمع الذي يدرسه وقد وضح الباحث الأمريكي د هايمز D.Hymes أن هذا الارتباط أدى إلى الاستفادة من معطيات علم اللغة في الدراسات الأنثروبولوجية[2].

في حين عرف محمد الجوهري الأنثروبولوجيا اللغوية كالتالي "إن دارس اللغة الذي يكون في نفس الوقت متخصصا في الأنثروبولوجيا، لا يقتصر اهتمامه على المشكلات اللغوية وحسب، بل إنه يهتم أساسا بالعلاقات العديدة القائمة بين لغة شعب من الشعوب وجوانبه الثقافية. وهكذا يمكن أن

[1]-ينظر، دراسة لسانية صورية للوحدات اللسانية الدالة "ضمير المتكلم نموذجا بابا أحمد رضا، "مذكرة ماجيستير في اللسانيات التطبيقية، السنة الجامعية 2005م-2006م ،جامعة تلمسان،ص2

[2]-ينظر، اللغة والثقافة دراسة أنثرولغوية لألفاظ وعلاقات القلابة في الثقافة العربية، د كريم زكي حسام الدين،ط 2، النشر الالكتروني للكتبالعربية، جامعة الزقازيق، مصر، 2000م ،ص 38

يدرس على سبيل المثال الكيفية التي تربط بها لغة جماعة معينة بمكانة تلك الجماعة أو وضعها وكيف أن هذه الرموز تختلف عن الكلام اليومي العادي، وكيف يعكس تغير الحصيلة اللغوية في إحدى اللغات ومجمل الثقافة المتغيرة للشعب الذي يتكلمها، وكذلك العمليات التي تنتقل بواسطتها اللغة من جيل إلى آخر، وكيف تساعد تلك العمليات على نقل المعتقدات والمثل العليا والتقاليد إلى الأجيال التالية. فالدارس الأنثروبولوجي للغة يحاول أن يفهم دورها في المجتمعات البشرية والمهمة التي اضطلعت بها في رسم الصورة العامة للحضارة الإنسانية"[1]. كما اتفق معظم الدارسين للغة، على أنها خاصية إنسانية، ووسيلة اتصال بين أفراد الجماعة الواحدة.

في حين ظهر مقابل الأنثروبولوجيا اللغوية، علم اللغة الإثنولوجي Ethnolinguistic.

2.2- علم اللغة الإثنولوجي Ethnolinguistics.

إن الباحث في هذا المجال يدرس العلاقة التي تربط اللغة بالثقافة.فالثقافة البشرية مدينة للغة في ثروة محتواها التي تميزها عن الإرث الحيواني الاجتماعي، فاللغة نفسها جزء لا يتجزأ من الثقافة. كما أن اللغة شكل من أشكال السلوك المتعلم والمنقول، وعلى الفرد أن يكتسب هذا الشكل بالطريقة ذاتها التي يكتسب بها أية مادة أخرى من مواد الثقافة التي ورثها[2]. ومن أهم رواد هذا النوع من الدراسات "إدوارد سابير Edward Sapir الذي نصب اهتمامه بدور الدراسات اللغوية المتعلقة بتاريخ الثقافات، كذلك "فوجلين Voegelin "الذي درس الارتباط بين السلوك الثقافي والكلمات في

[1]- الأنثروبولوجيا – أسس نظرية وتطبيقات عملية – مطابع سجل العرب، محمد الجوهري ، الطبعة الأولى، القاهرة، 1980م، ص40

[2]-د عبد الغني عماد، تكليف من د ناصر اليحي، تقديم طالبة سوسن العتيبي تلخيص كتاب ،سوسيولوجيا الثقافة المفاهيم والإشكاليات من الحداثة إلى العولمة pdf،ماجيستير، ثقافة إسلامية، الشعبة الأولى ،ص10 i3.mackcdm.com

موقف معين، أمّا "جورج ميد G.Mead" فقد درس اللغة كأداة من أدوات البحث في الإثنولوجيا. في حين يرى "بينيامين وورف B.EHORF" أن السلوك له علاقة وطيدة مع التفكير باللغة[1].

وقد يرى الدارس في هذا المجال أن من أوائل من تكلم عن علم اللغة الاثنولوجي كان الباحث "مالينوفسكي " Malinowski " منذ عام 1920م إذ لاحظ أن هناك حاجة ماسة في استيضاح الألفاظ والعبارات المحلية، ولهذا قدم في هذا المجال نظرية مهمة والتي سماها بـ"النظرية اللغوية الإثنولوجية "Ethnolinguistics.[2]

والذي نخلص إليه هو أن دراسة اللغة في علاقتها بكلية الحياة الثقافية والاجتماعية تقترب من فرضية النسبية الثقافية cultural relativism التي صاغها "بواس Boas"، وبلورها سابير Sapir، ووورف WHORF؛ والتي تقوم على أن كل لغة هي بمثابة رؤية محددة للعالم، ومن ثم فإن كل جماعة لغوية تمتلك رؤيتها الثقافية المتميزة[3].

3.2-الاثنوغرافيا الدلالية semantic ethnography

تعد الدراسة النظرية لعلم الدلالة "semantics" أحد المباحث التقليدية في الدراسات الفلسفية إلى أن ظهرت في الزمن الحاضر كاتجاه تطبيقي في مجموعة من العلوم كاللغة، والمنطق، والأنثروبولوجيا، فتقوم هذه الدراسة على التحليل الدلالي الوصفي أو البنيوي لمفردات اللغة[4].

لقد حاول الكثير من الباحثين في هذا الاتجاه على تأكيد الصلة بين اللغة وكثير من جوانب الثقافة، فلاحظوا أن دراسة اللغة كانت تشتجر بجوانب ثلاثة: نظامها المادي المنطوق، واكتسابها

---

[1]- ايكه هولتكرانس : قاموس مصطلحات الأنثروبولوجيا والفلكلور، ترجمة محمد الجوهري وحسن الشامي، دار المعارف بمصر،القاهرة ،1971م، د ط، ص299-ص300

[2]-ينظر د كريم زكي حسام الدين، اللغة والثقافة دراسة أنثرولغوية لألفاظ وعلاقات القرابة في الثقافة العربية، ص41.

[3]ينظر Louis Jacque Dorais ,« Anthropologie du language »,p27

[4]-ينظر علم الدلالة، أ.ف آر بالمر، ترجمة مجيد الماشطة، د ط، حقوق الطبع والنشر محفوظة للجامعة المستنصرية ،1985م، ص16

النفسي الفردي، وممارستها الاجتماعية، انطلاقا من هذه النقاط الثلاثة رأى الأنثروبولوجيون أن الثقافة لها دور أساسي في اللغة؛ فكل فرد منا يولد في مجتمع يكتسب فيه مجموعة من السلوكيات المادية، والقيم والمعتقدات المعنوية التي تصل إلى عقله ووجدانه من خلال اللغة التي تعتبر وعاء لهذه الثقافة ونتيجة لهذا الارتباط الوثيق بينهما وضح الباحثون الأنثروبولوجيون واللغويون العلاقة الخارجية بين اللغة ومحتوى الثقافة المسيطرة[1].فعلى هذا الأساس توسعت مجالات البحث اللغوي وغدا البحث الدلالي من بين البحوث الضرورية التي توضح أهمية المفردات التي تعكس اهتمامات المجتمع ومعظم النواحي التي ترتكز عليه.

ونظرا لهذه الأهمية التي اختصت بها الدلالة، فقد تطورت دراسات في هذا الميدان وتراكمت المناهج والنظريات التي تهدف إلى تحديد قوانين التفاهم وتسهل إيصال الأفكار والمعاني، ومن بينها نظرية الحقول الدلالية. فقد عرف أولمان Ulman الحقل الدلالي بأنه قطاع متكامل من المادة اللغوية، يعبر عن مجال معين من الخبرة، كما قال عنه ليونز lyons إنه مجموعة جزئية لمفردات اللغة.[2]

لقد تعددت الطرائق التي اعتمد عليها العلماء في تحديد دلالات الألفاظ وذلك من خلال وضعهم معاجم الألفاظ أو التأليف، أو الأضداد، أو تنظيم الألفاظ في حقول دلالية تجمع بينها ملامح دلالية مشتركة، فهناك ألفاظ تتصل بالمحسوسات المتصلة كالألوان، أو المحسوسات المنفصلة كالألفاظ الأسرية، أو الألفاظ التجريدية المتمثلة بما يدل على الأفكار والرؤى، كل ذلك انطلاقا من لفظ عام يجمع بين هذه الألفاظ الداخلة في الحقل الدلالي المعين[3].

[1]- ينظر، اللغة والثقافة دراسة أنثرولغوية د كريم زكي حسام الدين، ص37

[2]أ عمار شلواي، مقالة نظرية الحقول الدلالية، مجلة العلوم الإنسانية، جامعة محمد خيضر بسكرة، العدد الثاني، جوان 2002م، ص40

[3]ينظر، علم الدلالة التطبيقي في التراث العربي د هادي نهر، الطبعة الأولى، دار الأمل للنشر والتوزيع، الأردن،2007م، ص 563

إن التعبير عن المكونات المادية والعلاقات الاجتماعية والعادات والتقاليد، بمفردات معجمية لها أهمية بالغة عند الأنثروبولوجيين، وذلك في تأكيد الخصائص الحضارية لهذه الفئة أو الجماعة المدروسة، كما أن البحث في دلالات المفردات المستعملة، ودراسة التطورات أو التغيرات داخل هذا الحقل الدلالي يعني دراسة التغيرات التي تطرأ على عناصر هذه الثقافة .فتصير اللغة في هذه الحالة نظام من العلاقات تكتسب قيمتها من خلال علاقاتها بالعلامات الأخرى، تماما كقطعة الشطرنج التي لا تعني شيئا خارج رقعة الشطرنج. وإنما تتخذ قيمتها من خلال القطع الأخرى[1]

ثمّ توصل علماء اللغة والأنثروبولوجيا في دراستهم المشتركة إلى اكتشاف مجال جديد والذي أعطوه اسم : **الأنثروبولوجيا المعرفية**

4.2- الأنثروبولوجيا المعرفية cognitive anthropology

يحاول الباحثون في هذا المجال دراسة البنى المعرفية وما يقابلها من مصطلحات لغوية، وذلك من خلال تحليل الطريقة التي يتكلم بها أعضاء ثقافة معينة عن عالمهم والغرض من ذلك أيضا معرفة قواعد السلوك المقبول ثقافيا. ويفترض هذا المبحث أن كل الأفراد الذين ينتمون إلى هذا الإطار الثقافي لهم نسق معرفي واحد، يتكون بفعل هذه الثقافة، ويهدف إلى تنظيم مكونات هذا المجتمع المادية والاجتماعية والنفسية والفكرية. ويرجع الفضل لهذا النوع من الدراسات إلى الأنثروبولوجي مالينوفسكي Malinowski الذي اهتم بدراسة البنية بعد أن كان درس الثقافات محصورا في الأغلب على التناول التاريخي. ودفعه هذا الاتجاه إلى دراسة الثقافة عن طريق الحياة بين أصحابها فقد قضى أربع سنوات في جزر التروبرياد وحدها Trobriand من 1914م-1918م، فلاحظ أن الكلمات التي تشير إلى النظام الاجتماعي الوطني، وكل التعبيرات التي تعبر عن معتقدات هذه القبائل، وعن عاداتها، واحتفالاتها، وألوان السحر لديها، كل ذلك ليس موجودا في الإنجليزية ولا في أية لغة أوروبية أخرى. وترجمة هذه الكلمات والتعبيرات لا يقتضي تقديم نظائرها المتخيلة لأن نظائرها

[1]-ينظر المرجع السابق، ص 574

الحقيقية غير موجودة، وإنما تقتضي شرح معانيها عن طريق وصف دقيق للثقافة والتقاليد لمجتمعات هذه القبائل[1].فقد أثبت مالينوفسكي أن اللغة تمتد بجذورها إلى حقيقة الثقافة، وإلى حقيقة القبلية، وعادات الناس، وأنها لا يمكن أن تشرح دون إشارة مستمرة إلى هذه السياقات الواسعة للنطوق الكلامية[2].

غير أن بعض الباحثين لاحظوا أن هناك بعض الاختلافات الثقافية عند أفراد نفس الجماعة "إذ ترسم هذه الأخيرة حدودا للاستعمالات اللغوية ذات البعد الاجتماعي، حدودا تتسع وتضيق باتساع مفهوم تلك الجماعة أو ضيقه، لطبيعة العقد الاجتماعي الذي يحدد علاقة الفرد بالمجتمع. ويختلف الأفراد بعضهم عن بعض في هذه الاستعمالات، بالمقدار الذي حصلوه من فهمهم لطبيعة تلك العلاقة. فلا يكون الأفراد كلهم نسخة واحدة، بل يتفاوتون بحسب موقعهم من الفهم، وحظهم من التربية التي هي قوام السلوك، بمقتضى العقد الاجتماعي للأمة."[3]

ومن أبرز الحقائق المسطرة في الأنثروبولوجيا المعرفية وجود اختلافات ثقافية في الإدراك والذاكرة، والاستدلال ومن أشهر المجالات المدروسة فيها مقولة الأشياء وتسمية الألوان وإدراكها عبر الثقافات. فيختلف البشر في تصنيف الأشياء باختلاف الثقافة وليس هذا الاختلاف نفسيا أو عصبيا وإنما هو اختلاف ثقافي[4].

كما توصل الباحثون في اللغة والأنثروبولوجيا إلى مبحث آخر هو: **اثنوغرافيا الاتصال**.

---

[1]- ينظر اللغة والمجتمع عبده الراجحي، ط 2، دار النهضة العربية، بيروت لبنان،2004م، ص 23-24

[2]-المرجع نفسه، ص 25

[3]-ينظر: سمير شريف أستيتية، ثلاثية اللسانيات التواصلية، مجلة عالم الفكر، العدد5، مجلد 34، 2006، ص11. نقلا عن صلاح الدين زرال، الظاهرة الدلالية عند علماء العربية القدامى حتى نهاية القرن الرابع الهجري، الطبعة الأولى، الدار العربية للعلوم، منشورات الاختلاف،2008م، ص187

[4]- ينظر، نظريات لسانية عرفنية د الأزهر الزناد، الدار العربية للعلوم، دار محمد للنشر، منشورات الاختلاف، تونس،2010م، ص21

5.2- اثنوغرافيا الاتصال ethnography of communication

إن أول من اقترح هذا المبحث هو ديل هايمز D .Hymes سنة 1972م إذ حدد في هذا النوع موضوعات من الدراسة مثل البحث في : "الموقف الكلامي، استخدام الأنماط اللغوية ووظائفها، دور الكلام في التنشئة الاجتماعية، وقواعد الكلام، وارتباط اللغة بالثقافة، والعلاقة بين السلوك المعرفي والتعبيري، وتخطيط الحدود بين اللهجات والقواعد المعرفية للبلاغة، ومظاهر السلوك القولي»[1]. فقد توصل هايمز Hymes إلى دراسة عملية الاتصال وعلى ما تنطوي عليه من تبادلية في الأدوار يمكن ملاحظتها في الاستعمالات اللغوية[2].

تعد اللغة من أهم وسائل الاتصال عند الإنسان، فدراسة ظاهرة الاتصال في المجتمع تعني دراسة ثقافته وهذا ما وضحه بعض الأنثروبولوجيين حين قالوا: "اللغة هي الثقافة وأن الثقافة هي اللغة، ومن ثم فإن الاتصال والثقافة يكادان يكونان لفظين مترادفين، وأن الصلة بينهما عضوية، والذي يميزهما أن الثقافة بنية (structure) وأن الاتصال هو العمليات (processes) التي تعيش بها هذه البنية[3]. كما توصل الباحثون إلى أربعة نقاط أساسية أثناء دراستهم لعملية الاتصال فمنهم "من يرى أن الاتصال هو الثقافة، وهناك من يتناوله من حيث هو لغة، وآخر يدرسه من حيث التأثير الشخصي، ورابع بصفته أساس العلاقات الإنسانية"[4]. ونستنتج من خلال ما سبق أن السلوك الاتصالي يختلف من مجتمع إلى آخر وهذا حسب الثقافة السائدة في ذلك المجتمع.

---

[1] -ينظر-Brigitte juanals,Jeansmax noyer, D,Hymes vers une pragmatique et une anthropologie communicationnelle,laboratoire Cirs,Universite Paris x,Nanterre,hermes 48,2007,p119

[2] -ينظر،أ.لطفي بوقربة، محاضرات في اللسانيات الاجتماعية، محاضرة ألقاها في جامعة بشار، السنة الجامعية 2002م-2003م، ص 5

[3] - اللغة والمجتمع د. عبده الراجحي، ص 33

[4] - نفسه، ص 33.

إن الدراسات التي قام بها الباحثون أفضت إلى ظهور اتجاه جديد في البحث اللغوي يسميه البعض بالمنهج الوظيفي التواصلي، باعتباره يدرس اللغة وهي تؤدي وظيفتها التواصلية ويسميها البعض الآخر باللسانيات التداولية باعتبارها تدرسها وهي تتداول بين المتكلمين بها.[1]

إن من المسلم به أن ثقافة أي مجتمع وتاريخه وعقله، لا يمكن أن تنفصل عن تاريخ لسانه، فالحياة والتواصل مع الآخرين، يقتضيان لسانا مشتركا، ويحتفظ هذا اللسان بأثر الثقافة المشتركة؛ فللسانيات إذا بعدا ثقافيا لا يمكن إغفاله في البحث، فاللسان هو وعاء ثقافة الإنسان، أو هو النقطة التي تلتقي عندها الثقافة بالذات، فتفعل الثقافة فعلها بالذات[2].

ويأتي اللسان ليعبر عن هذا الفعل؛ لأنه هو الذي يضمن للثقافة استمراريتها، بواسطته تمرر الثقافة أنساقها إلى المتلقي ليعاد إنتاجها مرة أخرى؛ ومن ثم تكتسب المصداقية والاستمرارية، وتكتسب الفكرة الثقافية قيمتها داخل العلامة اللسانية؛ لكونها تحمل بعدا تواصليا[3].

فاللغة هي التي تيسر طرق التواصل، وتساعد على القيام بكل الطقوس والشعائر الدينية، كما أنها سبب رئيسي في تنظيم الروابط الاجتماعية مما يجعل منها الأداة الأساسية والوسيلة الضرورية لربط العلاقات الأساسية، والتي يستحيل بدونها وجود أي عمل جماعي مشترك، فهي نظام ثقافي واجتماعي معين، يطرأ عليها تارة التغير وتارة أخرى الاصطلاح.

وأخيرا يمكن القول أن اللغة هي فعلا تواصليا لا يمكن معرفته إلا من خلال السلوك الإنساني في إطار وضعيات تفاعلية تواصلية.

---

[1]- مدخل إلى علم النص ومجالات تطبيقه محمد الأخضر الصبيحي، الطبعة الأولى، دار العربية للعلوم، منشورات الاختلاف، الجزائر،2008م، ص 47

[2]-لا يقصد الكاتب في هذا الكتاب بالفرد أو الشخص، بل يقصد بها مجموع الممارسات التي يقوم بها الشخص والتي شيدتها قيم الثقافة والايديولوجيا السائدة؛ مثل الطبقة الاجتماعية، والجنس والدين..الخ؛ لأن الايديولوجيا والثقافة تحولان الأفراد إلى ذوات.

[3] ينظر لسانيات الخطاب وأنساق الثقافة د. عبد الفتاح أحمد يوسف، الطبعة الأولى، منشورات الاختلاف، الجزائر، 2010م، ص22

ونختم بما جاء به دي سوسير F.De .Saussure حين قال أن "اللغة هي نتيجة إسقاط لا واع للعادات اللغوية على الواقع المحيط."[1] ولقد بيّن سوسير في محاضراته أن اللغة هي منظومة اجتماعية تشتمل على خزين القوانين الشاملة التي تغطي مختلف مظاهر التحليل اللغوي، ومنها يغترف المتكلمون ما ينتجونه من كلام عيني منطوق فعلا، فاللغة هي الشبكة العامة التي تغدي مختلف مصادر الاستعمال الفردي فهي قوانين عامة[2].

وقد ارتئ سوسير أنّه لابدّ أن تكون هذه اللغة بوصفها منظومة عامّة هي نقطة الانطلاق في الدراسة اللغوية، لأنها تمثل المستودع الاجتماعي الذي يستمد منه الأفراد صور نطقهم الفعلية، ويوضح هذه الرؤية بقوله " حين نعزل اللغة عن الكلام فنحن نعزل في الوقت نفسه: ما هو فردي عمّا هو جماعي، وما هو جوهري عمّا هو ثانوي عرضي إجمالا. فاللغة إذا ليست وظيفة المتكلم، بل هي نتاج يتمثله المتكلم "[3].

ومن ثمّ فاللغة المستعلمة ضمن إطار الجماعة، تؤثر بشكل أساسي على كيفية إدراك هذه الجماعة لمحيطها وواقعها. ولها دور رئيسي في عملية المعرفة. أي أنها تُؤثر تأثيرا مباشرا في التجربة الفردية والاجتماعية على حد سواء ، وهذا ما توصل إليه العالمان أوستين (J.L Austine) وسيرل (J.A.Searle) حين قالا:"إن وظيفة اللغة ليست نقل معلومات أو وصف لوقائع العالم فحسب ، وإنما هي وسيلة عمل وتأثير في الغير."[4]

[1] – ينظر أساسيات اللغة رومان جاكبسون وموريس هالة، ترجمة سعيد الغانمي، المركز الثقافي العربي،2008م،د ط، ص10

[2] – ينظر نفسه، ص10

[3] – ينظر المرجع السابق، ص 11

[4] – مدخل إلى علم النص ومجالات تطبيقه، محمد الأخضر الصبيحي، ط 1، دار العربية للعلوم، منشورات الاختلاف، الجزائر، 2008م، ص49

2- الأنثروبولوجيا اللغوية

أصبحت دراسة اللغة من الأمور الشائعة والهامة في معظم الجامعات والمعاهد، ولهذا اهتم العلماء اهتماما كبيرا بدراستها والبحث عن مختلف أدوارها في حياة البشر. ونظرا لأهمية هذه الدراسة لم تقتصر البحوث عند اللغويين فحسب، بل شملت محاولات عديدة قدمها الفلاسفة والمناطقة والنقاد ورجال الدين والعاملون في مختلف التخصصات العلمية، ومنهم من أثاروا تساؤلات تتعلق بطبيعة اللغة ومكوناتها ونشوئها وتعدد وظائفها وعلاقتها بالفكر والإنسان والمجتمع وكذلك الثقافة، وضمن هذه التخصصات برز كذلك التقليد الأنثروبولوجي الذي أظهر في دراسته العلاقة بين اللغة والثقافة، وكذلك اللغة والمجتمع، وساهم في إمكانات لم تقف عند حدود الأغراض النظرية فحسب بل تعدّاها إلى محاولات كشف طبيعة العلاقات الثقافية اللغوية والاجتماعية اللغوية [1].

ومن أشهر من ساهم في كشف العلاقة بين الأنثروبولوجيا واللغة، الأنثروبولوجي مالينوفسكي malinowski" الذي بيّن أهمية الأنثروبولوجيا في توطيد دعائم علم اللغة وتوسيع آفاقه، فقد كتب حول أهمية البحوث اللغوية واللسانية للفهم الأنثروبولوجي الصحيح لكل أنواع المجتمعات البشرية؛ فرأى أن عالم اللغة عليه بالضرورة أن يهتم بالمشكلات المتعددة للأنثروبولوجيا كعلم يمتد في مجال اللغة" [2].

صارت دراسة اللغة أكثر تطورا عبر البحث الأنثروبولوجي، سواء على المستوى الوصفي الإثنوغرافي أو على المستوى الإثنولوجي المقارن. ولقد بيّن فرانز بواس F.Boas في بحوثه

---

[1] ينظر Louis Jacque Dorais ,« Anthropologie du language »,document produit en version numérique par Jean-marie Tremblay,professeur en sociologie au Cégep de chicoutimi.Dans le cadre de la collection « les classiques des sciences sociales »,2005,edition du renouveau pédagogique,chicoutimi ,Québéc Canada,p7

[2] – ينظر:article, R.Koenker,lingistic anthropology,p8900 Copyright # 2001 Elsevier Science Ltd. All rights reserved.

International Encyclopedia of the Social & Behavioral Sciences,pdf

الأنثروبولوجية على أهمية هذه العلاقة فقد كان في بحوثه الأولى لا يؤمن بإمكانية استعمال البحوث اللغوية لإعادة تشكيل العلاقة القائمة بين اللغة والجنس البشري، إلا أنه بعد دراسة عميقة رأى أهمية دراسة اللغة في البحث الأنثروبولوجي فحاول أن ينقل لتلاميذه حب البحث بالتفصيل في اللسانيات الوصفية وحاول كذلك إقناعهم بأهمية اللغة باعتبارها أداة مهمة أولا في البحث العلمي الميداني، وثانيا في دراسة ثقافات وتقاليد شعوب العالم قائلا " إن معرفة الاثنولوجيا، لا يمكن أن تتم بغير معرفة علمية باللغة، وفهم اللغة لا يستطيع تحقيقه بمعزل عن الاثنولوجيا، اعتبارا من أن المفاهيم الأساسية التي توضحها دراسة اللغات الإنسانية لا تتمايز في النوع عن الظواهر الاثنولوجية. وأكثر من ذلك، فإن الخصائص المرتبطة باللغات تنعكس بوضوح كبير في آراء وتقاليد شعوب العالم "[1].

لقد أثمر التعاون بين علم اللغة والأنثروبولوجيا الكثير من النتائج من بينها فهم القضايا اللغوية والثقافية؛ مثل الاهتمام بالتراث اللغوي خاصة لغات المجتمعات البدائية. كما أن هذا التعاون بين هذين العلمين ساعد في زيادة فهم ومعرفة طبيعة اللغة المدروسة من خلال إطارها الثقافي، وكلها أمور تحدث عنها اللغوي الفرنسي اميل بنفينيست E.Beneveniste فرأى أن جميع العلوم الإنسانية في، تطور كبير بفضل الأنثروبولوجيا من الناحية العلمية، والتي استهدفت أساسا صياغة جديدة للفكر الإنساني، إذ أن كل الأنظمة اللسانية أم غيرها (الرسم، الفن المعماري، الطقوس الدينية ....) لا يمكن تأويلها إلا باللغة وحدها. فاللغة هي أداة الوصف والاكتشاف.[2]

إن الدراسة المعجمية المضنية والمفصلة التي قام بها بنفينيست Beneveniste حول اللغة الهندو-أوروبية قد مكنت الباحثون في وصف النظام الكامل للعلاقات الشخصية ضمن العائلة والجماعة والعشيرة عند الهند-أوروبيين، حيث حدد نظام صلة القرابة، وكذلك الالتزامات القانونية

[1] -Opcit,p8900

[2] -مدخل إلى مناهج النقد الأدبي، تأليف مجموعة من الكتاب، ترجمة رضوان ضاضا ، مراجعة د.المنصف الشنوفي، عالم المعرفة ،سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب –الكويت، صدرت السلسلة في يناير 1978م بإشراف أحمد مشاري العدواني، ص 168.

الموجودة في تبادل البضائع والخدمات وحددت أيضا الحقوق والواجبات المتعلقة بالحاكم بالإضافة إلى تميز الطرق المختلفة لتقديم الاحترام للآلهة وتقديم معلومات قيمة حول تربية الحيوانات الأليفة.[1]

أخذت العلاقة بين دراسة اللغة والأنثروبولوجيا عدة مفاهيم واتجاهات، فمنها الإتجاه البريطاني والأمريكي والفرنسي والعربي.

ففي المدرسة البريطانية كان اعتناء الأنثروبولوجيين باللغة بيّنا, وذلك من أجل فهم ثقافات مستعمراتها، وهذا ما نلتمسه في كتابات" ادوارد تايلور Edward Taylor " في القرن التاسع عشر.[2]يعتبر تايلورTaylor من أهم الرواد في الدراسات الأنثروبولوجية الذين عملوا على تخليصها من الفكر النظري الفلسفي حيث اعتبر الثقافة موضوع الأنثروبولوجيا، وكانت دراسته لها بهدف البحث عن أصول عناصر الثقافة ونشأتها وتطورها وانتقالها من مكان لآخر، كما اهتم بتحليل الرواسب الثقافية التي لا تزال تمارسها بعض المجتمعات وفكرة التشابه الواضح بين العناصر أو الملامح الثقافية لدى كثير من الشعوب، كما كان يولي اهتماما كبيرا للغة ورموزها وتراكيبها في مختلف الثقافات، وقد بلغ اهتمامه بهذا الجانب أن خصص لدراسته فصولا طويلة في ثلاثة من الكتب الأربعة التي ألفها وهي "الثقافة البدائية primitive culture و" أنثروبولوجيا anthropology "و"بحوث في التاريخ المبكر للجنس البشري Research in early history of mankind"[3].

كما كانت دراسات تايلور الأولى تعتمد على دراسة الثقافات البدائية، إلا أن فهمه للأنثروبولوجيا قد تضمن الدعوة إلى دراسة كل أنواع الثقافات بدائية كانت أم متحضرة، فمن المهم أن

[1] ينظر إيدجرس بولوم،عنوان المقالة: اللغة والسلوك اللغويات النثروبولوجية، ص 666، العنوان الالكتروني www.mohamedrabeea.com/books/book1_402 pdf: موقع أ.د.محمد سعيد ربيع الغامدي،أ. العلوم اللغوية قسم اللغة العربية كلية الآداب والعلوم الإنسانية ،جامعة الملك عبد العزيز ،بحوث لغوية قصيرة

[2] – قصة الأنثروبولوجيا فصول في تاريخ علم الإنسان د فهيم حسين، عالم المعرفة، د ط،الكويت،1986م،ص 137

[3] – اللغة والثقافة دراسة أنثرولغوية لألفاظ وعلاقات القرابة في الثقافة العربية د.كريم زكي حسام الدين، ص39

نوضح أن الأنثروبولوجيا في بداية نشأتها قد قامت على فكر وأبحاث علماء ذوي تخصصات متباينة، الأمر الذي أعطى للأنثروبولوجيا مزيجا هاما من المنطلقات الفكرية المفيدة في إطار الدراسة الشمولية للإنسان [1]

أما المدرسة الأمريكية فقد كانت دراسة اللغة مع الأنثروبولوجيا تحت تخصص واحد، إلى أن وجد الأنثروبولوجيون أنفسهم مضطرين إلى دراسة لغة بعض قبائل الهنود الحمر، والتي لم يكف نموذج عائلة اللغات الهندية –الأوروبية لشرحها، وذلك لكونها لغات لا تكسب أي تراث مكتوب، وهذا ما جعلهم يستعملون في دراساتهم وسائل وأدوات التحليل الإثنوغرافي، ومن أشهر من قام بهذا النوع من البحوث بواس Boas والذي نشر عمله في كتابه مختصر اللغات الهندية الأمريكية في الفترة الممتدة ما بين 1911م-1922م، كما يرجع له الفضل في طرح فكرة تعدد وتنوع الثقافات والتي أصبحت منذ ذلك الوقت من أهم المبادئ في الفكر الأنثروبولوجي[2].

لقد اهتم بواس Boas في بحثه على دراسة الجوانب اللغوية والثقافية لعدد من القبائل، وانتهى إلى نتيجة أن هذه الجوانب تتكامل فيما بعضها. وأضحى من البديهي في هذه المدرسة أن يربط بين البحثين اللغوي والأنثروبولوجي، وهذا ما برز في بحوث تلاميذ بواس Boas وأشهرهم سابير Sapir الذي يعدّه البعض مؤسس الأسس الأنثروبولوجية لدراسة اللغة[3].

أما المدرسة الفرنسية فقد ظهر فيها عدد غير قليل من الأنثروبولوجيين الفرنسيين ومن أبرز هؤلاء الأنثروبولوجيين ليفي ستروس Levi-Strauss ،وبيير بورديو Pierre baurdiot، ولووي دومون louis dumant ،وموريس غودلييه maurice gaudelier ،فالدراسة الاثنوغرافية

[1]-ينظر قصة الأنثروبولوجيا، د حسين فهيم، ص 137

[2]-ينظر نفسه، ص 163

[3] – ينظر:-article, R.Koenker,linguistic anthropology,p8900

للفي ستروس في القارة الأمريكية، وبيير بورديو في الجزائر، ولووي دومون في الهند، وموريس غودلييه في ماليزيا وغينيا الجديدة، قد لعبت دورا هاما في إنضاج موضوع الأنثروبولوجيا ونظرياتها[1].

في حين تعد بحوث ليفي ستروس Levi-Strauss في المدرسة الفرنسية من أول المحاولات في دراسة العلاقة بين اللغة والأنثروبولوجيا، فقد مكنه العمل الحقلي من إنتاج النص الإثنوغرافي، هذا النص الذي قام من خلاله بتصوير تلك الثقافات التي وقف على دراستها ومن ثم تكريس سلطته في مجال معرفة النظرية الأنثروبولوجية [2].

والذي يمكن أن نلاحظه أن المدارس الأنثروبولوجية الغربية تأسست على مبدأ واحد وهو اكتشاف مستعمرات جديدة تحت عنوان دراسات علمية أنثروبولوجية. في حين تعد دراسة اللغة في علاقتها بالثقافة في المدرسة العربية من أقدم المحاولات بعد الفتوحات الإسلامية، واختلاط العرب بغيرهم، وفشوا اللحن إلى ألسنة العامة. فقد سبق العرب الأوروبيين في اكتشاف الثقافات الأخرى، ووصفها ومقارنتها وسبر غور العلوم الطبيعية والاجتماعية ومناهجها العقلية والتجريبية. فمن منتصف القرن الثامن حتى نهاية القرن الحادي عشر كان العرب هم "عباقرة الشرق"، كما يصفهم جورج سارتون، وكانت اللغة العربية هي لغة العلم البشري[3].

إن فحص التراث العربي الإسلامي ودراسته دراسة عميقة يسهل لنا إعادة تاريخ الأنثروبولوجيا عند العرب، أو على الأقل معرفة الأصول المعرفية والمنهجية لها، بحيث لا ترد جميعها إلى عصري النهضة أو التنوير الأوربيين، بل قد نجد في هذا التراث الكثير من المفهومات والنظريات عن الجنس

[1]- قراءة في الفكر الأنثروبولوجي المعاصر، عبد الله عبد الرحمن يتيم، كلود ليفي ستراوس الطبعة 1، إصدارات بيت القرآن، المنامة، البحرين،1998م، ص40

[2]-ينظر قراءة في الفكر الأنثروبولوجي المعاصر، عبد الله عبد الرحمن يتيم، كلود ليفي ستراوس، ص39

[3]-ينظر، قصة الأنثروبولوجيا د حسين فهيم، ص 257.

البشري، والحضارة الإنسانية، وأوجه الحياة اليومية ومشاكلها مما لا يزال يشغل بال الباحثين الأنثروبولوجيين المعاصرين.[1]

ولنا في التراث العربي من الأفكار والمعلومات التي تساهم في إفادة البحث الأنثروبولوجي الحديث، فمثلا ما جاء في كتاب "ابن فضلان" الذي درس الأسلاف الوثنيين لسكان شمال غرب أوروبا الحاليين، وكذلك الرحالة "ابن بطوطة" الذي قدم روايات مفصلة عن أخلاق وعادات الشعوب التي كانت تعيش بين مراكش والصين، كما أظهرت البحوث الجادة في التراث العربي أن تحليل المواد الأنثروبولوجية أمرا مألوفا لهم، فقد حلل ابن خلدون في مقدمته البناء الاجتماعي لقبائل الصحراء والمدن فأدرك أن بين البيئة وطرق المعيشة الإنسانية وبين البناء الاجتماعي علاقة سببية، كما أنه تحدث عن فشو اللحن وأثر البيئة الجغرافية في اللغة .[2]كما يجدر الإشارة إلى كتاب "البيروني" لما احتواه من مادة اثنوغرافية الموسوم بـ "تحرير ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة"، وصف فيه البيروني المجتمع الهندي من ناحية نظمه الدينية والاجتماعية، وأنماطه الثقافية، كما اهتم بمقارنة تلك النظم والسلوكيات الثقافية بمثيلاتها عند اليونان والعرب والفرس، كما أنه درس اللغة الهندية وقارنها باللغة العربية. وقد قسم اللغة الهندية إلى كلام دارج مبتذل يستخدمه السوقة، وإلى مضمون فصيح يتعلق بالتصاريف والاشتقاق، ودقائق النحو والبلاغة لا يرجع إليه إلا الفضلاء المهرة (أو من يسمون الآن بالخاصة)[3].

أما المدرسة اللغوية العربية الحديثة فقد وجدت بعض البحوث التي أخذت الدراسة الأنثروبولوجية كأداة رئيسية في المعالجة والتحليل كما هو الحال في كتابات عبده الراجحي، إذ بيّن أن علم اللغة

[1]- ينظر، قصة الأنثروبولوجيا د حسين فهيم، ص 259

[2]-ينظر المرجع نفسه، ص 266

[3]- نفسه ،ص55

شهد تطورا سريعا ومتلاحقا، وجرت في نهره مياه كثيرة جديدة، وبخاصة عن علاقة "اللغة" بعلوم المجتمع، في الاجتماع والأنثروبولوجيا.[1]

كما انتقلت موجة البحث اللغوي هذه إلى الشرق على يد جماعة من الرواد الذين تلقوا مناهجه في أوروبا، ثم عادوا إلى الوطن العربي ليقدموا لنا ما تلقوه عن أساتذتهم، في صور مختلفة. وكان في مقدمة هؤلاء إبراهيم أنيس، الذي يعد أول من حاول تطبيق مناهج علم اللغة الحديث، وخرج لنا بجملة من الملاحظات النظرية ، تدعمها الشواهد اللغوية، وبخاصة في كتابه "اللهجات العربية" ،كما درس عدة ظواهر لغوية في كتابه "من أسرار اللغة"، وخصص كتابا ثالثا لدراسة "الأصوات اللغوية" وكتابا رابعا لدراسة "دلالة الألفاظ" وجاء من بعده جيل من العلماء والباحثين، فكانت لهم عدة محاولات في الدراسات المنهجية والتطبيقية ومن ذلك ما كتبه تمام حسان عن "مناهج البحث في اللغة" وما كتبه عبد الرحمن أيوب عن "التطور اللغوي"، وما كتبه محمود السعران عن "علم اللغة" وعن "اللغة والمجتمع"، كما قدموا عدة ترجمات علمية دقيقة لبعض الأعمال الغربية، ومن ذلك ترجمة عبد الرحمن أيوب لكتاب جيسبرسن Gisppersen "اللغة بين الفرد والمجتمع" ومن ذلك أيضا ترجمة كمال بشر لكتاب أولمان ulman "دور الكلمة في اللغة".[2]

وبعد دراستنا للمدارس الأربعة، الأمريكية، والإنجليزية، والفرنسية، وأخيرا العربية، يتبين لنا أن المدارس الثلاثة الأولى كانت ولازالت لها أهداف استعمارية تحققها تحت راية العلم، بينما المدرسة العربية قديما وحديثا فأهدافها علمية غير أنها لازلت قليلة إذا قارنها بالبحوث الغربية.

3- الدراسة الأنثروبولوجية اللسانية للنص القرآني على المنهج الغربي

لقد تأثر بعض الباحثين العرب بالمدرسة الغربية فطبقوا المنهج الأنثروبولوجي اللساني الغربي على النص القرآني فدرسوه كنص يدخل ضمن دائرة النصوص الأسطورية أو التاريخية أو الفلسفية، ومن

[1]-ينظر، اللغة والمجتمع د عبده الراجحي، الطبعة 2، دار النهضة العربية، بيروت لبنان،2004م،ص 5

[2]-ينظر، القراءات القرآنية في ضوء علم اللغة الحديث د عبد الصبور شاهين، د ط، مكتبة الخانجي، بالقاهرة،1966م، ص6

هؤلاء الباحثين الذين ظهروا في ساحة البحث الأنثروبولوجي على طريق المدرسة الغربية محمد أركون، نصر حامد أبو زيد وغيرهم...، فقد رأى محمد أركون أن الوحي ظاهرة ثقافية ولغوية قبل أن يكون عبارة عن تركيبات تيولوجية أو لاهوتية.

1.4-علمانية المناهج الجديدة:

❖ رفض البعد الغيبي للوحي:

يقول بارث Barth " لقد كانت معلومات الناس في مكة – في عصر النبي – عن النصرانية محدودة وناقصة ولم يكن النصارى العرب سائرين في معتقداتهم في الاتجاه الصحيح، ولهذا كان هناك مجال لظهور الآراء البدعية المنحرفة، ولو لا ذلك لما كان محمد صلى الله عليه وسلم على علم بأمثال تلك الآراء التي تنكر صلب المسيح وتذهب إلى نظرية التثليث النصرانية لا تعني الأب والابن وروح القدس، وإنما تعني الله وعيسى ومريم، وعلى أية حال فإن المعارف التي استطاع محمد أن يجمعها عن حياة المسيح وأثره كانت قليلة ومحدودة، وعلى عكس من ذلك كان محمد يعرف الشيء الكثير عن ميلاد عيسى وعن أمه مريم"[1].

والذي يريد أن يقوله بارث وهو أن النبي عليه الصلاة والسلام هو مؤلف للقرآن الكريم وأن كل المعلومات التي جاء بها، إنما هي نتيجة التقائه عليه الصلاة والسلام ببعض النصارى أو اليهود ولهذا لم يأت بالمعلومات الصحيحة.

وهذه كلها اتهامات باطلة فإنه عليه الصلاة والسلام لا يأته الباطل لقوله تعالى:﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ۝٣ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ ۝٤﴾[2]، وكانت لهذه الافتراءات الباطلة عدة ردود

[1]- الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري: نقلا عن الاستشراق لـ د.موسى الحسني محمود حمدي زقوق، القاهرة، دت، دط، ص 53

[2]-سورة النجم ،آ 3-4.

من قبل فئة من الباحثين المسلمين ومن بينهم المرحوم د محمد عبد الله دراز في دراسته (مدخل إلى القرآن) الذي بيّن بطلان هذه المزاعم الواهية وناقشها بطريقة علمية إذ قال:" جميع سبل البحث التي وقعت تحت أيدينا وناقشناها ثبت ضعفها وعدم قدرتها على تقديم أي احتمال لطريق طبيعي أتاح له (أي للنبي صلى الله عليه وسلم) فرصة الاتصال بالحقائق المقدسة، ورغم الجهد الذهبي الذي نبذله لتضخيم معلوماته السمعية ومعارف بيئته فإنه يتعذر علينا اعتبارها تفسيرا كافيا لهذا البناء الشامخ من العلوم الواسعة والمفصلة التي يقدمها لنا القرآن الكريم في مجال الدين والتاريخ والأخلاق والقانون والكون،....الخ"[1].

مما لا مراء فيه أن القرآن الكريم نزل بحقائق صادقة، وقضايا متطابقة مع الواقع، مدعوما بالبراهين العقلية الساطعة والمسلمات الفطرية القاطعة وهو يقوم بدور الشاهد على الكتب السماوية الأخرى، وبدور المعيار الذي يكشف ما أدخل في هذه الكتب من خرافات، وما دسّ فيها من أباطيل، وما تركته فيها أيدي التحريف من ثغرات ونواقص. فكيف يدعي بعض المستشرقين أن النبي عليه الصلاة والسلام قد أخذ المعلومات الموجودة في القرآن الكريم من اليهود أو النصارى؟، وكان عليه الصلاة والسلام أميّا لا يعرف القراءة ولا الكتابة، ودونت الكثير من الكتب من قبل علماء المسلمين وحتى غير المسلمين الذين شهدوا على صدق رسالة سيد الخلق عليه الصلاة والسلام، وأنها وحي من السماء، وأنها آخر حلقة في قصة اتصال السماء بالأرض لهداية البشر وآخر ما نزل من القرآن الكريم قوله تعالى:﴿ ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا﴾ [2].

[1] المرجع السابق، ص 54

[2] – سورة المائدة، آ –3

❖ **اعتماد المبالغة في التأويل:**

لقد ظهرت نخبة من المثقفين العلمانيين الذين سعوا إلى استبدال بعض الألفاظ ككلمة "تأويل" بدلا من "تفسير" للقرآن الكريم حتى يصير هذا الكتاب المقدس كأي كتاب تدرس نصوصه كنص تاريخي بمعنى مادي بشري من صنع الإنسان، ومن أبرز هؤلاء الماديين محمد أركون، نصر حامد أبو زيد، عبد المجيد الشرفي، ويوسف صديق، وطيب تزيني والمستشرق جاك بيرك وغيرهم.

أ- **نصر حامد أبوزيد[1]:**

كانت له رؤية خاصة لدراسة النصوص الدينية، خاصة القرآن الكريم إذ قال عنه: "القرآن هو النص الأول والمركزي في الثقافة، لقد صار القرآن هو نص بألف ولام العهد. وقال أيضا: "هو النص المهيمن والمسيطر في الثقافة "، وقال "فالنص نفسه – القرآن – يؤسس ذاته دينا وتراثا في الوقت نفسه "، وقال مطالبا بالتحرر من هيمنة القرآن "وقد آن أوان المراجعة والانتقال إلى مرحلة التحرر لا من سلطة النصوص وحدها، بل من كل سلطة تعوق مسيرة الإنسان في عالمنا علينا أن نقوم بهذا الآن وفورا قبل أن يجرفنا الطوفان"[2].

لقد أراد أبو زيد أن يعطي لدراسته طابع أدبي فني بمعنى أن دراسته تخضع لمعطيات الدرس الأدبي، وبالتالي يكون قد أدرج دراسة القرآن وعلومه داخل باب الدراسات الأدبية للنصوص، غير أنه حصر دراسته للقرآن بالمنهج اللغوي وهذا ما أكده فيما يلي " وإذا كان أصحاب هذا المنهج يتفقون معنا كذلك فإن الله سبحانه شاء أن يكون كلامه إلى البشر بلغتهم أي من خلال نظامهم الثقافي المركزي في أن المتاح الوحيد أما الدرس العلمي هو درس الكلام "الإلهي" من خلال تحليل معطياته في إطار النظام الثقافي الذي تجلى من خلاله وذلك يكون منهج التحليل اللغوي هو المنهج الوحيد

[1]- باحث ومفكر مصري(1943-2010) من أهم أعماله الاتجاه العقلي في التفسير- فلسفة التأويل –مفهوم النص دراسة في علوم القرآن – إشكاليات القراءة وآليات التأويل

[2]- القراءة الأنثروبولوجية للقصص القرآني –رصد ونقد-، فاطمة الزهراء بلحجي، رسالة دكتوراه، إشراف د. عبد الحفيظ بوردبم، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، قسم الثقافة الشعبية، جامعة أبي بكر تلمسان، 2011م-2012م، ص 237

الإنساني لفهم الرسالة ولفهم الإسلام "[1].وفي هذا السياق أصر أبو زيد على ضرورة الوعي بأن النصوص المقدسة هي نصوص لغوية موصولة بالسياقات الاجتماعية والثقافية التي تشكلت فيها، إذ قال " إن النص في حقيقته وجوهره منتج ثقافي والمقصود بذلك أنه تشكل في الواقع والثقافة خلال فترة تزيد على العشرين عاما، وإذا كانت هذه الحقيقة تبدو متفقا عليها، فإن الإيمان بوجود ميتافيزيقي سابق لوجوده العيني في الواقع والثقافة أمر لا يتعارض مع تحليل النص من خلال فهم الثقافة التي ينتمي إليها "[2].إن النص القرآني في تقدير أبو زيد شأنه شأن أي نص آخر له لغة خاصة تعبر عن المجتمع الذي ينتمي إليه، وبهذا المفهوم يصير النص القرآني " منتج ثقافي "، فعلاقة النص ليست بسيطة ومباشرة بل هي مركبة جدلية بمعنى أن النص تشكل في واقعه الثقافي ولكنه عمل في الوقت نفسه على تشكيل هذا الواقع ومن الأمثلة على ذلك أن القرآن إذا أبقى على الاعتقاد بالجن، فلأنه كان سائدا في الجاهلية ولكنه عمل على إعادة بناء هذا الواقع بأسلمة وأن مفهوم الوحي لم يكن ممكنا قبوله لدى الجاهليين إلا لوجود شبه بينه وبين الكهانة التي كانت هي أيضا من الاعتقادات السائدة في المجتمع الجاهلي، ولكن الوحي ميز نفسه عن الكهانة كما ميز نفسه عن الشعر وفقا لآليات المخالفة والمشابهة التي يستخدمها الخطاب القرآني في إنتاج الدلالة [3].

كما كانت له نظرة خاصة للوحي إذ قال عن ظاهرة الوحي :" ولا شك أن إحساس محمد الذي تتوجه إليه هذه الرسالة بأن ربه هو الذي خلق، يتصاعد بذاته وبقيمته وأهميته، ويداوي إحساس اليتم والفقر في أعماقه، ولأن محمد لا يعزل نفسه من الواقع وعن إنسان مجتمعه فإن النص يكرر الفعل "خلق" كاشفا لمحمد عن تساؤلاته عن الإنسان" إن محمد بالوحي ليس غريبا عنه"[4]، فهو هنا يتهم محمد عليه الصلاة والسلام بأنه هو الذي أنتج النص الديني، وهذا راجع لإحساسه بالفقر واليتم، فهو

[1]- القراءة الأنثروبولوجية للقصص القرآني –رصد ونقد–، فاطمة الزهراء بلحجي، المرجع السابق، ص239

[2]- نفسه، ص 239

[3]- نفسه، ص 240

[4]- نفسه، ص 243

يرى أن الوحي ما هو إلا إعادة صياغة الواقع بما يتلاءم مع ظروف النبي عليه الصلاة والسلام: "إن النصوص وإن تشكلت من خلال الواقع والثقافة تستطيع بآلياتها أن تعيد بناء الواقع ولا تكتفي بمجرد تسجيله أو عكسه عكسا آليا مرآويا بسيطا"[1]، فهو يخلص إلى أن الوحي ما هو إلا من خيال الأنبياء ناتج عن ظروف الفقر واليتم والاضطهاد. وكان أولى به أن يؤمن بأن القرآن فوق التأثر التاريخي والاجتماعي والثقافي.

ب –محمد أركون[2]

تقوم نظرية أركون على أسس سوسيولوجية؛ مناهج علم الاجتماع والدراسات الإنسانية؛ والبنيوية والسيميائية والأنثروبولوجيا البنيوية، ومناهج تحليل الخطاب، فهو يريد أن يسقط على التراث الإسلامي المنهج النقدي الاجتماعي الحديث، كما أنه لا يخفي رغبته من أنسنة النص وإحالته إلى التاريخ، وهو يرى أن النص من إنتاج محمد عليه الصلاة والسلام، ويعتبر أركون أن النصوص القرآنية متناقضة ينطحها بعضها بعضا وبالتالي لا تصلح أن تكون مصدرا للتشريع الإسلامي، فيقول في كتابه:"﴿ هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعلمون"﴾[3]، وأما النسخ فهو يعني استبدال نص بنص أو نص لاحق بنص سابق، فهو ناتج عن مناقشة علماء الأصول الذين وجدوا أنفسهم في مواجهة نصوص متناقضة، وبالتالي فقد اضطروا لاختيار النص الذي يتناسب أكثر مع التوفيق وتحقيق الانسجام بين الأحكام الشرعية التي كانت قد حظيت بإجماع الفقهاء الأوائل[4]، فهو يهدف إلى نزع قدسية القرآن الكريم واعتباره نصا أسطوريا قابلا للدراسة وللنقد إذ يقول "إن المعطيات الخارقة للطبيعة والحكايات الأسطورية القرآنية سوف تتلقى بصفتها تعابير أدبية،

[1]– القراءة الأنثروبولوجية للقصص القرآني –رصد ونقد–، فاطمة الزهراء بلحجي، المرجع السابق، ص 244

– مفكر جزائري الأصل (1928–2010) عاش وانتقل في أوروبا وعمل في فرنسا التي درس فيها وله اهتمامات في الدراسات التاريخية والاستشراقية، والنظم المعرفية الغربية في الفلسفة، كانت رسالته في الدكتوراه " نزعة الأنسنة في الفكر العربي

[2]، جيل مسكويه والتوحيدي" وكانت هذه الرسالة فاتحة مشروعه " نقد العقل الإسلامي ".

[3]– سورة الجاثية، آ 29

[4]– ينظر المرجع السابق ، ص 250

أي تعابير محورية عن مطامح ورؤى وعواطف حقيقية يمكن فقط للتحليل التاريخي السوسيولوجي والبسيكولوجي اللغوي أن يعيها ويكشفها"[1].كما أنه يضع القرآن في نفس مرتبة الأناجيل المحرفة، وأنه يدخل ضمن المجازات لقوله" إن القرآن –كما الأناجيل – ليس إلا مجازات عالية تتكلم عن الوضع البشري، إن هذه المجازات لا يمكن أن تكون قانونا واضحا، أما الوهم الكبير فهو اعتقاد الناس – اعتقاد الملايين- بإمكانية تحويل هذه التعابير المجازية إلى قانون شغال وفعال ومبادئ محدودة تطبق على كل الحالات وفي كل الظروف[2].

والذي نستنتجه أن القراءة الحداثية العربية للنص القرآني تسعى إلى تحقيق الريبة والشك في قلوب المسلمين، اتبع أنصار هذه المناهج العلمانية مجموعة من الخطط في سبيل تحقيق هذه القراءات النقدية الحداثية من أخطرها خطة أنسنة القرآن الكريم والتي تهدف إلى نزع طابع القداسة عن النص القرآني وذلك باعتبار الآيات القرآنية من وضع بشري، وانتهجت هذه القراءة الحداثية عمليات خاصة، كحذف عبارات التعظيم المتداولة إسلاميا واستبدال المصطلحات المقررة تاريخيا بمصطلحات جديدة كاستبدال مصطلح نزول القرآن بالواقعة القرآنية والقرآن الكريم بالمدونة الكبرى والآية بالعبارة، والاستشهاد بالكلام الإلهي والكلام الإنساني في نفس الرتبة في الاستدلال، والتفريق بين مستويات مختلفة في الخطاب الإلهي كالتفريق بين الوحي والتنزيل، وفي هذا السياق يقول محمد أركون " وكنت قد بينت في عدد من الدراسات السابقة أن مفهوم الخطاب النبوي يطلق على النصوص المجموعة في كتب العهد القديم والأناجيل والقرآن كمفهوم يشير إلى البنية اللغوية والسيميائية للنصوص، لا إلى تعريفات وتأويلات لاهوتية عقائدية"[3].

[1]- تاريخية الفكر العربي الإسلامي، محمد أركون، ترجمة هاشم صالح، مركز الإنماء القومي والمركز الثقافي العربي، ط3، 1998م، ص 191.

[2]- المرجع السابق، ص 299

[3]-ينظر، أوهام النهضة واستراتيجية القراءة الحداثية للقرآن، حسن أبوهنية، جريدة الغد، 25-03-2006م

وكان من نتائج تطبيق خطة أنسنة القرآن أن يصير القرآن نصا لغويا لا يختلف عن النصوص البشرية، مما أدى إلى المماثلة اللغوية بين النص القرآني والنصوص البشرية فعدوا النص القرآني مجرد نص أنتج وفق المقتضيات الثقافية التي تنتمي إليها اللغة والتي لا يمكن أن يفهم أو يفسر إلا بالرجوع إلى المجال الثقافي الذي أنتجه، وهذا ما حرص عليه نصر حامد أبو زيد "إن النصوص الدينية ليست في التحليل الأخير سوى نصوص لغوية، بمعنى أنها تنتمي إلى بنية ثقافية محددة تم إنتاجها طبقا لقوانين تلك الثقافة التي تعد اللغة نظامها الدلالي المركزي"[1].

ومن النتائج المترتبة على القراءة الحداثية فصل النص القرآني عن مصدره الإلهي وربطه بالقارئ الإنساني. ومن الاستراتيجيات المتبعة في القراءة الحداثية العربية خطة عقلنة النص القرآني والتي تهدف إلى رفع عائق الغيبية، وبحسب هذه القراءة فإن العائق الأكبر يتمثل في اعتقاد أن القرآن وحي جاء من عالم الغيب، ومن العمليات المتبعة في سبيل تحقيق خطة عقلنة النص القرآني، اعتبار علوم القرآن التي اتبعها علماء المسلمين تشكل وسائط معرفية متحجرة تمنع من التواصل مع النص القرآني وتعيق أسباب النظر العقلي، من هنا كان لابد من نقل مناهج علوم الأديان المتبعة في تحليل ونقد التوراة والأناجيل وتطبيقها على النص القرآني، والتوسل بالمناهج المعتمدة في علوم الإنسان والمجتمع [2].وهذه المناهج كلها تسعى إلى تحقيق أغراض معرفية في ظاهرها أيدولوجية في أساسها. ومن أجل هذه الأسباب التي ذكرنها لا يمكننا أن ندرس هذه الرسالة بالمناهج الغربية العلمانية لأنها تخرج النص القرآني عن قدسيته، ولهذا سندرسه على حسب المناهج العربية الإسلامية الحديثة، كما نعتمد على المجهودات الجبارة التي أبدعها فطاحل من علماء الأمة أمثال الجرجاني وغيرهم.

[1] -مجلة الأثر، الخطاب القرآني والمناهج الحديثة في تحليله –دراسة نقدية–، أ. صليحة بن عاشور، جامعة ورقلة، الجزائر، عدد خاص: أشغال الملتقى الدولي الثالث في تحليل الخطاب، ص 17

[2] – ينظر، أوهام النهضة واستراتيجية القراءة الحداثية للقرآن، حسن أبوهنية

2.4 منهجية الدراسة الأنثروبولوجية اللسانية عند محمد أركون:

إن المشروع الفلسفي عند محمد أركون يقوم على حتمية القطعية الإبستيمية[1] مع محددات الثقافة الإسلامية، ولأن تلك المحددات كانت وليدة مناهج، فإن أركون لم يأل جهدا في الانتقاص منها ليصفها " بالتقليدية"، وكان يقول " إذا ما أردنا أن نؤسس علما تاريخيا جديدا للأديان فإنه ينبغي على هذا العلم أن يندمج في أحضانه ثلاثة أبعاد لا تنفصل للمعرفة، أقول ذلك على الرغم من أننا نراها متفتتة ومتقطعة أكثر فأكثر، وأقصد بهذه الأبعاد الثلاثة المشكلة للمعرفة البشرية البعد الأسطوري، البعد التاريخي، البعد الفلسفي"[2].

إن المنهج الذي اتبعه أركون كان علمانيا إذ استفاد من الأنثروبولوجيا واللسانيات والتأويلات، وكل ما قدمته العلوم الإنسانية الحديثة، بما يساعده على التحكم في النصوص وإعادة تشكيلها وفق التاريخانية[3] التي يراها لذلك فإنه اشترط [4]البعد الأسطوري معيارا ضروريا، إذ هو عنده بنية أساسية في الفكر البشري كما أنه يرى في الجدلية الفلسفية ضمانا من خطر الدوغماتية[5].

رأى أركون أن المنهجية الكلاسيكية للتفسير باطلة لأن عملية ربط كل آية بأسباب النزول تبقى أسطورية أكثر منها تاريخية. كما أضاف أركون إلى المنهج البنيوي الذي يهتم بمعالجة الألفاظ، المنهج السيميائي الذي يهتم بالدلالة، والمنهج الأنثروبولوجي الذي يضع في الحسبان طبيعة خاصة للنفسية الاجتماعية في عصر نزول النص، ومنهج التاريخ الحديث أي ما جاء به علم التاريخ وعلم

[1]-يقصد بها دراسة الفكرة تجريديا بعيدا عن تماسها التاريخي والاجتماعي مقطوعة عن محيطها، مؤسسة المنهج الفيلسوف الفرنسي غاستون باشلار.

[2]ينظر القراءة النثروبولوجية للقصص القرآني –رصد ونقد–، فاطمة الزهراء بلحجي، رسالة دكتوراه، إشراف د. عبد الحفيظ بوردیم، ص 158

يعتبر فيكو (1668-1744) هو أول مفكر في الغرب الذي بلور مفهوم التاريخية الذي ينص على أن البشر هم الذين يصنعون

[3]-التاريخ، ولا دخل للقدرة الإلهية في ذلك، وليس القوى الغيبية، وبالتالي فالتاريخ بشري من أقصاه إلى أقصاه

[4]ينظر مجلة اللسان الحر: العدد 2 السنة الأولى 2008م تصدر عن الأكاديمية الأوروبية العربية الثقافية والإعلام محمد أركون وسيط ثقافي في مقال د. عبد الحفيظ بوردیم، ص 12

[5]- هي التعصب لفكرة معينة دون قبول النقاش فيها، أو الاتيان بدليل ينقضها لمناقشتها – الجمود الفكري–

تاريخ الأديان خاصة ليقول بأن النص يحاكي محلة تاريخية ما ولا يمكن أن يكون فوق الزمان والمكان، فتحت عنوان (الظاهرة القرآنية) قال استخدمت مصطلح الظاهرة القرآنية ولم استخدم مصطلح القرآن عن قصد، لماذا؟ لأن كلمة "قرآن" مثلة بالشحنات والمضامين اللاهوتية، وبالتالي فلا يمكن استخدامها كمصطلح فعال من أجل قيام بمراجعة نقدية جدرية لكل التراث الإسلامي، وإعادة تحديده أو فهمه بطريقة مستقبلية استكشافية، فأنا هنا أتحدث عن الظاهرة القرآنية كما يتحدث علماء البيولوجيا على الظاهرة البيولوجية أو علماء التاريخ على الظاهرة التاريخية، وأهدف من وراء ذلك إلى وضع كل التركيبات العقائدية الإسلامية وكل التحديات اللاهوتية والتشريعية والأدبية والبلاغية والتفسيرية، على مسافة نقدية كافية مني كباحث علمي "[1].فقد فضل أركون استعمال هذا المصطلح ليجعل منزلة القرآن تاريخية، فيدرس النص القرآني في كل ماديته اللغوية، وبذلك يقدم أركون قراءة يصفها بالقراءة الوضعية النقدية بدلا من القراءة الإيمانية التبجلية.

يسعى أركون من خلال مشروعه المعرفي التفكيكي، إلى بناء نمط معرفي جديد –حسب اعتقاده–، يتجاوز المرجعية الإسلامية التاريخية والمتمثلة في القرآن، لأنه يدعي أن القرآن الكريم من إنتاج بشري؛ إذ هو يميز في القرآن بين ما يسميه الخطاب النبوي، وبين الكلام الإلهي، هذا الأخير تكلم به الإله في الأزل ولا يقدر أي خطاب بشري على احتوائه وبالتالي يترجم النبي الموحى إليه المعاني المستقرة في نفسه، بخطاب إنساني متلبس بمقتضيات الزمان الذي قيل فيه الخطاب، ومن هنا لا يمكن رفع القرآن إلى مستوى الكلام الإلهي، لأنه مجرد خطاب نبوي، تلفظ به النبي محمد بما يتوافق ومستواه اللغوي ومقدرته البيانية، فيزعم أن القرآن ليس إلهي المصدر في لغته، ولا في أحكامه، إذ أن هذه الأخيرة لا ترتفع عن كونها وعيا بشريا إنسانيا، استوعبه النبي محمد بما يناسب ويوافق المرحلة التاريخية التي وجد فيها، ومن هنا لا جدوى من القول بأزلية الشريعة وصلاحيتها لكل زمان ومكان. فالقرآن عند أركون ما هو إلا نسخة أرثوذكسية فرضتها فئة من الصحابة على جميع المسلمين في جميع

[1]–ينظر، القراءة الأنثروبولوجية للقصص القرآني، ص 159

التاريخ، مع أن هناك مصاحف أخرى ونماذج أخرى للقرآن، تم الاستغناء عنها، بدعوى الإقصاء السياسي الذي أحدثته قريش لبقيةخ القبائل، وهذا لتبني لغة قريش على أنها لغة الله سبحانه وتعالى. واللغة المشار إليها، تعقّد باستمرار عمليات التحليل والتفكيك، لاتصالها بسياق دلالي ولغوي تاريخي مضى وانقضى، والتعامل مع القرآن بتلك اللغة يستدعي تجاوبا تقديسيا، هذا ما أعجز علماء الإسلام من تكوين نظرية قرآنية، تمكن من دراسة القرآن وتبين معانيه، ويضرب المثل بعلماء اللاهوت في فكر الآخر، يهودية ومسيحية الذين استفادوا من تطورات العلوم الحديثة.

والذي نخلص إليه أن أركون سعى إلى إحالة النص الديني المتمثل في "القرآن الكريم " إلى لحظة زمنية تاريخية فقد عرفها أركون بأنها " التحول والتغير، أي تحول القيم وتغيرها بتغير العصور والأزمان "[1].كما أراد أن يخضع النص المقدس إلى الفلسفة التي وضعها الإنسان ونزع البعد الإلهي عنها، أما محاولته في أنسنة القرآن الكريم بمعنى صياغة مفاهيم جديدة للنص القرآني في سياق أدبي، فقد ارتكز على بعد زمني تاريخي معللا قوله بأن " الأنسنة ترجمة لكلمة عربية منتشرة جدا في الأدب العربي الكلاسيكي وتعني الآداب، كالشعر والرواية...الخ، وهو ما يعطي العقل الاستقلالية الكاملة عن اللاهوت الديني ليصبح في هذه الحالة النص الديني عبارة عن نصوص بشرية خارجة عن فضاء المقدس"[2].فقد اشترك أركون مع الفكر العربي الجاهلي في العهد النبوي، إذ أرادوا فصل النص القرآني عن مصدره الرباني وتكذيب الرسول صلى الله عليه وسلم، ووضعه في سياق زمني بشري (شعر، أسطورة، كهانة،...الخ) وكان الرد الرباني عليهم وعلى كل من يريد أن يفتري على الله الكذب قوله

[1]- – مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية، مج 22، العدد 70، سبتمبر 2007م، عنوان المقال" الاتجاهات الحديثة للمستشرقين ومن تابعهم في تفسير القرآن الكريم "، د. محمد بن سعيد السرحاني، ص143.

[2]- نفسه ، ص144

عز وجل: ﴿لتنذر من كان حيا ويحق القول على الكفرين (69) أولم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت ايدينا أنعما فهم لها ملكون (70)﴾ [1]

[1]- سورة يس، آ 69-70

1- القصة في القرآن

القرآن الكريم هو النص المعجز الذي عجز أساطين البلاغة والفصاحة أن يأتوا بمثله، فهو نظام محكم للحركة الإنسانية وهو في كل وقت ميدان للدرس ومجال للبحث في سائر العلوم، فهو يكشف الحجب عن الغيوب الماضية والمستقبلة.

استخدم القرآن وسائل عديدة لإبلاغ الدعوة إلى الله جل جلاله، وتعد القصة إحدى هذه الوسائل التي استعملها القرآن للكشف عن الأمم الماضية والأنبياء السابقين وما لقوه من عنت وعذاب. فكان حظ القصة في القرآن الكريم حظ وفير ومتعدد المجالات.

لقد وردت كلمة «قصص» في القرآن الكريم على اختلاف اشتقاقاتها وتصريفاتها ثلاثين مرة:

1. في صورة الفعل الماضي، أربع مرات
2. في صورة الفعل المضارع، أربع عشرة مرة
3. في صورة الفعل الأمر، مرتان
4. في صيغة القصص ست مرات
5. وفي صيغة القصاص أربع مرات[1].

ورأى عبد العالي أن "دراسة القصة في القرآن على جانب كبير من الأهمية، ذلك لأن القصة قالب تربوي وإعلامي تنفذ من خلاله الدعوة إلى القلوب فتهزها، وإلى النفوس فتنفضها نفضا [2]". كما بيّن أحمد أبو سعد "أن القصة في القرآن عرفت –الالتزام– وحددت رسالة الأدب بمعناه

[1]– القصص القرآني، عرض وقائع وتحليل أحداث د.صالح الخالدي، ج1، دار القلم، دمشق، الطبعة 1998،1م، ص22

[2]– نظرات في قصص القرآن محمد قطب عبد العال، ج1، مجلة دعوة الحق، السنة السادسة، العدد9،عن إدارة الصحافة والنشر برابطة العالم الإسلامي، أكتوبر،1986م،مكة المكرمة، ص9.

الإنساني الذي يفهم الأدب على أساس وظيفته الاجتماعية التي تدعو الناس كلهم إلى الخير وتبعدهم عما ألفوه من خلق وعادات وآراء زائفة وعقائد وعبادات باطلة [1]".

وبمأن القرآن كتاب دعوة إلى الحق فهو يبيّن لنا طريقة بناء الفرد المسلم والمجتمع المسلم بناء إسلاميا صحيحا، فالمتدبر في القصص القرآني يجد الكثير من العبر والعظات "إذ لا تكاد تخلو قصة من ترغيب يبعث على الرجاء أو ترهيب يثير الخوف وهما محوران –الرجاء والخوف–أساسيان من قوى النفس البشرية. فإذا ما نظر المسلم وهو يتلقى عبر القصص تلك الأخبار التي تتحدث عن المصائب التي لحقت بالأمم السابقة، نتيجة ما اقترفت أيديهم، ونتيجة عنادهم وإصرارهم على الكفر –ازدجر واعتبر–وكذلك ما يناله المؤمنون الذين آمنوا بالله وتحملوا العذاب في سبيل عقيدتهم من جزاء وفاق عملهم وثواب من الله ورضوان، فكانت القصة القرآنية أهم تلك الوسائل التي كفلت ذلك الخير للناس[2]".

ونظرا لأهمية القصة القرآنية، جاء الأمر صريحا من الله تعالى إلى رسوله صلى الله عليه وسلم بأن يقص القصص على الناس وهذا تعقيبا على قصة الذي انسلخ من آيات الله فجاء في قوله تعالى:﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ١٧٥ وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَثۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ

[1]– فن القصة منقول عن أحمد أبو سعد، من كتاب عفيف عبد الفتاح طباره، اليهود في القرآن، الطبعة الثانية، دار العالمين، لبنان، بيروت،1995م،ص 251

[2]نظرات في قصص القرآن، محمد قطب عبد العال، ص38

ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۚ فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَآءَ مَثَلًا ٱلۡقَوۡمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمۡ كَانُواْ يَظۡلِمُونَ ﴿١٧٧﴾ ﴾ [1].

كما بيّن سبحانه وتعالى طبيعة هذه القصص فوصفها بأنها أحسن القصص وذلك في قوله تعالى: ﴿نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ﴿٣﴾ ﴾[2]، والمراد بالقصص هي الأخبار التي قصّها علينا الحق سبحانه وتعالى في كتابه العزيز، وهذه الأخبار إنما هي تحكي أخبار الأمم السابقين في أسلوب معجز من البيان والجمال[3]، وما دام عمل الرسول عليه الصلاة والسلام معالجة كل الأجناس البشرية الذين تفرقوا من قبل الرسل من إخوانه، فلابد أن يوضح سبحانه وتعالى لرسوله ولأمته من بعده ما حدث مع رسله، وأقوامهم وما كان موقفهم، ويبيّن لنا داءات ذلك المجتمع وكيفية معالجته[4].

لقد قص علينا الحق سبحانه وتعالى في القرآن الكريم قصص أقوام سابقين، وعرض لنا بعض ما جرى للأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام، وأخبرنا أن قصص هؤلاء هو أحسن القصص، وهو القصص الحق، لأنه هو الذي تفضل بقصه وذكره، وأخبرنا أن القصص في القرآن الكريم ليس لمجرد التسلية والاستمتاع، وإنما هو معروض لتحقيق أهداف علمية وفكرية وتربوية ودعوية[5].

إن طبيعة القصة القرآنية، تؤكد على التذكير وإفاقة العقل من غفلته، فهذا هو منهج القصة القرآنية التي تؤديه في نسق بديع وأداء معجز، إذ تضافر الغرض الديني والإعلام التربوي بالفن

[1]-سورة الأعراف، الآيات 175،176،177

[2]-سورة يوسف الآية 3-

[3]-ينظر نظرات في قصص القرآن، محمد قطب عبد العال، ص19

[4]-ينظر، خواطر تفسير القرآن الكريم، أخبار اليوم محمد متولي الشعراوي، قطاع الثقافة، المجلد5، د ت، د ط، تفسير سورة النساء آ 164،ص2839

[5]-ينظر، نظرات في قصص القرآن، محمد قطب عبد العال ،ص 7

القصصي، وكلاهما يضيء من مشكاة واحدة هي ذلك القبس العلوي الذي يملأ القلب سكينة وصفاء وإيمانا[1].وما ذكرت قصة في القرآن إلاّ وكان معها عبرة أو عبر لمن عصوا وتمردوا على أمر خالقهم، وفيها وصف حال ما نزل بالطغاة الذين غرّهم الغرور، والجبابرة الذين طغوا في البلاد وأكثروا فيها الفساد.

لقد شملت قصص بنو إسرائيل مساحة كبيرة في القرآن ومن ثمّ ارتبطت بملمح رئيسي لها وهو التكرار. إذ يقول أبو زهرة:" التكرار يتحقق في القصة القرآنية بسبب تعدد العبر التي هي المقصد الأول من القصص، فحكمة العليم الخبير تعالت كلماته اقتضت ذكرها متفرقة الأجزاء في مواضع، لتكون كل عبرة بجوار خبرها في القصة، ولو اجتمعت في مكان واحد لاختلطت العبرة بالقصة الخبرية، وما تميزت كل عبرة تميزا يجعلها كونا مستقلا مقصودا بالذات[2].»

2- الحكمة من التفصيل القرآني لقصص بني إسرائيل

إن الناظر في القرآن وفي قصص الأنبياء والسابقين على وجه الخصوص، يتضح له أن قصة بني إسرائيل أخذت حيزا كبيرا في القرآن سواء منه المكي أو المدني. " فالقرآن الكريم لم يتناول أمة من الأمم؛ ولا طائفة من الطوائف؛ بمثل البيان الدقيق، والمتابعة التاريخية التي خص بها بني إسرائيل، فقد عرض لأصلهم، ونشأتهم، وتقلبهم في البلاد ومواقفهم الشريرة مع أنبيائهم وشرائعهم وكتابهم، ومالهم من جبلة خبيثة أفسدوا بها في الأرض»[3].

ولعل الكثير من الباحثين يتساءلون عن الحكمة الإلهية من الحديث المفصل عن قصة سيدنا موسى عليه السلام وقومه في القرآن؟ وما الفائدة التي تنفع المسلمين من سرد قصصهم.

---

[1]- ينظر، نظرات في قصص القرآن، محمد قطب عبد العال، ص38

[2]- القرآن المعجزة الكبرى منقول عن محمد أبو زهرة، من كتاب نظرات في قصص القرآن، ص56

[3]- بنو إسرائيل في ميزان القرآن البهلي الخولي، دار القلم، دمشق، ط1، 2003م،ص 9

لقد كان لهذه الأمة شأن عظيم ولمدة غير قصيرة من الزمن، إذ قال الله تعالى فيها: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾﴾[1] ، وقوله تعالى:﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾﴾.[2]

كانت القيادة لبني إسرائيل قبل ظهور الإسلام، فكانوا هم أصحاب عقيدة السماء في تلك الفترة من التاريخ، وكانت الشريعة التي شرعها لهم الله عز وجل مبرأة من كل هوى، مبرأة من الجهل والقصور. فكانت فيهم التوراة شريعة الله. وكان فيهم الحكم لإقامة الشريعة، وكثر فيهم الأنبياء وتتابعوا لفترة طويلة في التاريخ كان تفضيلهم على أهل زمانهم بإيتائهم الكتاب والحكم والنبوة[3]. فأمة بني إسرائيل كانت لها أصول عالية في السماء، وترجع رفعة هذه الأصول لطاعتها لله عز وجل، ثم جاءت الفروع هابطة في مهاوي الخسة والنقصان وهذا راجع لانحرافهم عن منهج الله تعالى.

ومن جوانب الحكمة الإلهية هنا أنه لم يغن عن بني إسرائيل ما كان لآبائهم إبراهيم وإسحاق ويعقوب ويوسف، من رفعة وكمال، فمن لم يسلك الطريق الذي سلكه آباؤهم وسار على نهجهم، فلا شرف ولا عزة تكون من نصيبهم، وهذا مصداقا لما قاله صلى الله عليه وسلم " من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه "[4] فالإيمان الصادق الباعث على العمل الصالح، والعلم النافع الذي يرزق صاحبه خشية الله في القلوب؛ هما السببان الرئيسيان في اكتساب المجد والعزة والشرف.

---

[1]- سورة الجاثية ، آ 16

[2]- سورة المائدة ، آ 20

[3]-ينظر في ظلال القرآن ، سيد قطب، دار الشروق، ط 25، 1417هـ-1996م،القاهرة، المجلد الخامس، ص 3228

[4]- رواه أبو هريرة ، في صحيح البخاري رقم 2753

جاءت قصة بني إسرائيل مفصلة في القرآن الكريم لما احتوته من حكم وعبر متشعبة الجوانب. من جوانب هذه الحكمة أن القرآن الكريم عرض لنا شخصية سيدنا موسى عليه السلام عرضا مفصلا فتارة يظهر لنا صورا من نضاله وصبره على عناد ولؤم بني إسرائيل عليه، فأظهر لنا كيف صبر على اعوجاج قومه وعدم يأسه منهم، واستمرار محاولاته في هدايتهم، كما عرض لنا مواقفه المليئة بالشجاعة في طريق محفوف بالمخاطر، فقد واجه ملكا طاغيا، ادعى بالألوهية فواجهه سيدنا موسى برسالة إلهية تساويه برعيته، فلم يخشه ولم يتردد في مواجهته، ولهذا اعتبره القرآن الكريم من أولي العزم من الرسل[1].

فالحكمة البالغة التي تنفع المسلمين من معرفة هذه الشخصية العظيمة، أن هذا النوع من البشر ولدوا بحب الإصلاح في نفوسهم الكريمة التي جعلتهم يتحملون ما يصادفونه من صعاب وأهوال في سبيل الدعوات والرسالات التي نذروا أنفسهم في سبيلها. فالشخصية السوية السليمة المحبة للإصلاح بكل إخلاص هي التي تنجح وتترفع عن سفاسف الحياة وصغائرها.

ومن جوانب هذه الحكمة أن بني إسرائيل عاشوا ولمدة غير يسيرة تحت ظلم الفراعنة مما أفسد فطرتهم، فألفت نفوسهم الذل والجبن والمهانة إلى أن ظهر فيهم من يدعوهم إلى الجهاد والدخول إلى الأرض المقدسة، ولكن النفوس التي اعتادت الذل والاستعباد لم تطاوعهم على الجهاد، وكان هذا سبب ضياعهم في الصحراء لمدة أربعين سنة مصداقا لقوله تعالى:﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيۡهِمۡۛ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗۛ يَتِيهُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ فَلَا تَأۡسَ عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ٢٦﴾[2].

فقد الاعتبار والاعتياد بالشخصية التي جبلت على حياة الذل والمهانة زمنا طويلا من شأنها أن تترك صاحبها دائما يشعر بالضعف والعجز أمام عدوها. فالجماعة التي تفسد طباعها وتتأصل فيها عناصر الذل، يصير من العسير إصلاحها، فمن واجب المصلحين أن يصبروا على علاجها والذي يأخذ وقتا طويلا وينتهي بانتهاء العناصر الفاسدة " فالعبرة من هذه التربية الإلهية أن نعلم أن إصلاح

[1] – ينظر، اليهود في القرآن عفيف عبد الفتاح طباره، ط 2، دار العالمين، لبنان، بيروت،1995م، ص 227

[2] –سورة المائدة،آ 26

الأمم بعد فسادها إنما يكون بإنشاء جيل جديد يجمع بين حرية البداوة وما فيها من استقلال وخشونة، وبين العمل بالشريعة الإلهية وما فيها من هدى وعدالة"[1].

واقتضت حكمة الله عز وجل أن عاقبة الكفر والظلم هو العذاب المهين. يقص علينا القرآن الكريم ما آل إليه فرعون وقومه جزاء ظلمهم وإعراضهم عن الإيمان بقول الله تعالى:﴿وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾[2].

ويصف لنا الحق سبحانه وتعالى حال فرعون وقومه حين غرقوا في اليم معددا ما تركوا وراءهم من النعم وذلك للعبرة والعظة إذ قال تعالى: ﴿كَمْ تَرَكُواْ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُواْ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُواْ مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾﴾[3].

ففي هذه الآيات الكريمة ينبهنا الله عز وجل أن طاقة الإنسان كقدرته محدودة، فالإنسان مهما أوتي من قدرة فهو عاجز أمام قدرة الله تعالى لا يستطيع أن يفعل شيئا، ففرعون رغم ما أوتي من قوة إلا أنه وقف عاجزا أمام قدرة الله تعالى فلم يستطع حتى إنقاذ نفسه من الغرق.

لقد بغى فرعون على بني إسرائيل واستطال بجبروت الحكم والسلطان، فكانت نهايته أن أخذه الله في اليم هو وجنوده. إذ تدخلت يد القدرة سافرة فوضعت حدا للبغي والفساد.

---

[1]- اليهود في القرآن عفيف عبد الفتاح طباره، ص 229

[2] -سورة القصص، آ 39-آ 40

[3] -سورة الدخان، الآيات 25- 26 – 27 – 28 - 29

ومن جوانب الحكمة كذلك قصة قارون التي قدمت العظة التربوية في نسق تعليمي يبرز أنماط السلوك الرديئة في تصوير حسي بالغ التأثير، فوردت قصته في سورة القصص، إذ دارت حول فكرة الحق والباطل ومنطق الاذعان والطغيان وتصور الصراع بين جند الرحمن وجند الشيطان، وقد سيقت هذه القصة لتوضيح الاستعلاء والطغيان بالثروة، فكان رمز هذه القصة لطغيان الإنسان بالمال والجاه والعلم [1].لقد استطال قارون على قومه بجبروت العلم والمال، فندرك أن سلطان المال ينتهي بصاحبه إلى البغي والبطر والهلاك فالبوار ومن ثم فإن المعنى الكامن وراء القصة بأن قيمة المال والزينة ترخص إلى جانب الإيمان الخالص والعلم النافع [2].

دلت هاتان القصتان على أنه حين يتمحض الشر ويسفر الفساد ويقف الخير عاجزا والصلاح حسيرا؛ ويخشى من الفتنة بالبأس، والفتنة بالمال، عندئذ تتدخل يد القدرة سافرة متحدية، بلا ستار من الخلق، لتضع حدا للشر والفساد[3]."فالقرآن الكريم حين ذكر هذه الوقائع من التاريخ القديم غايته دعوة الناس إلى النظر في تاريخ ما قبلهم نظرة استفادة، ودرس عوامل الفناء والبقاء للأمم السابقة، وبيان أن الحصول على السعادة لا يكون إلا بالإيمان والعمل الصالح والعلم النافع وأن الذنوب عاقبتها وخيمة على الجنس البشري "[4] فالظلم والكفر والبغي هم سبب هلاك الأمم السابقة واللاحقة وهذه هي سنة الله في خلقه فلا تبديل ولا تحويل لسنته وهذا ما أكده الخالق القادر عز وجل في قوله تعالى:﴿ أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ

[1] –ينظر، نظرات في قصص القرآن محمد قطب عبد العال، ج2 ،ص 74

[2] –ينظر ،المرجع السابق، ج2، ص78

[3] –ينظر في ضلال القرآن، سيد قطب، المجلد الخامس، ص 2674

[4] – اليهود في القرآن عفيف عبد الفتاح طباره، ص232

كَانُواْ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَانُواْ هُمۡ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ وَءَاثَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٖ ﴿٢١﴾ ﴾[1].

ومن جوانب هذه الحكمة كذلك العقيدة السليمة، إذا ثبتت في القلوب لا يمكن أن تتأثر بأية قوى مادية. وهذا ما نراه جليا في قصة سحرة فرعون عندما آمنوا برسالة موسى عليه السلام وكان إيمانا صادقا خال من كل ريب، فلم يزحزحهم تهديد فرعون حين قال:﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ ﴾[2].

فكانت إجابتهم واضحة مليئة بإيمان صادق نابع من نفوس مطمئنة لقضاء ربها، وقد حمل هذا الجواب في ثناياه معاني التضحية والاستمالة في سبيل الحق إذ أجابوا فرعون بقولهم:﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنۡ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتۡنَاۚ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَتَوَفَّنَا مُسۡلِمِينَ ﴿١٢٦﴾ ﴾[3].

إن الإنسان لمبتل في هذه الحياة من مرض أو فقر أو اضطهاد، أو فقد عزيز، وكل هذه الامتحانات لقادرة على أن تزحزحه عن إيمانه ويقينه بالله إلى بؤرة الكفر والتشاؤم. ولكن القلوب السليمة إذا عرفت الحق صبرت واحتسبت وتحملت بكل عزم ما ينزل عليها من مصائب وآلام وهذا ما يتضح لنا من دعاء السحرة؛ "فالآلام والمصائب هي أشد ما تمتحن به النفس الإنسانية، إنها اختبار وامتحان

[1]- سورة غافر، آ21

[2]- سورة الأعراف، آ 124

[3] -سورة الأعراف ، آ 125 آ126

لجوهر العقيدة ودرجة تغلغلها في النفس، ولهذا حذر القرآن من الإيمان السطحي الضعيف الذي لا يصمد لعاديات الزمان والذي لا ينفع صاحبه في الدنيا والآخرة لقوله تعالى:﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ﴿١١﴾[1]"[2].وهذا ما رآه سيد قطب حين فسر جواب السحرة كما جاء في القرآن الكريم إذ قال:"

إنه إذا تحققت لنا حقيقة الإيمان في النفس وحقيقة الحق في القلب؛ فتصبحا أقوى من حقيقة القوى المادية التي يستعلى بها الباطل ويصول بها الطغيان. وهذا هو الذي كان في موقف موسى عليه السلام من السحر والسحرة، وفي موقف السحرة من فرعون وملئه".[3]

كما تبين لنا قصة سحرة بني إسرائيل انتصار الحق على الباطل فمهما استعلى الباطل ووجد له أنصارا وأعوانا فلا بد من هزيمته أخيرا أمام الحق، فالسحرة كانوا أعلم الناس بباطلهم وأعرف الناس بالذي توعد فرعون لهم بالعذاب الأليم مصداقا لقوله تعالى:﴿إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغۡفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكۡرَهۡتَنَا عَلَيۡهِ مِنَ ٱلسِّحۡرِۗ﴾[4].وقد صور

العالم الأخفش هذه الواقعة بوصف بليغ فقال: قد القوا حبالهم وعصيهم للكفر والجحود، ثم القوا رؤوسهم بعد ساعة للشكر والسجود فما أعظم الفرق بين الالقائين[5].

---

[1] –سورة الحج،آ 11

[2] – اليهود في القرآن عفيف عبد الفتاح طباره، ص 233

[3] – سيد قطب ، في ضلال القرآن، المجلد4، ص2344

[4] سورة طه، آ 73

[5] –ينظر اليهود في القرآن عفيف عبد الفتاح طباره، ص234

ومن جوانب هذه الحكمة كذلك، أن قصة بني إسرائيل تقرر حق حرية الشعوب، فبعد ما كان هذا الشعب تحت وطأة الاستعباد والذل لمدة غير يسرة من الزمن، أنعم الله عليه بالحرية لقوله تعالى:﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥﴾[1]، فهذا النص القرآني " يعلن بأن لا موجب لأن تستضعف أمة غيرها وتخضعها لقوتها وسيطرتها وتستغل مواردها، فإذا فعلت ذلك كان الله في عون المستضعف فينصره ويحرره من ربقة الاستعباد والطغيان "[2].

ومن جوانب الحكمة كذلك الاستعانة بالصبر والصلاة، فقد أثبتت فعاليتهما في تطهير النفوس وتقويم الأخلاق، وتقوية الإيمان ورفع المعنويات، لأنهما يصلان العبد بمصدر القوة وهو الله تعالى، ولهذا فرضت الصلاة على بني إسرائيل بمجرد حصول على أدنى قدر من الاستقلال الشخصي لقوله تعالى:﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٨٧﴾[3]. تلك هي التعبئة الروحية إلى جوار التربية النظامية، وهما معا ضروريتان للأفراد والجماعات، وبخاصة قبيل المعارك والمشقات. ولقد يستهين قوم بهذه التعبئة الروحية، ولكن التجارب ما تزال إلى هذه اللحظة، تنبئ بأن العقيدة هي السلاح الأول في المعركة، وهذه التجربة التي يعرضها الله على العصبة المؤمنة ليكون لها فيها أسوة، ليست خاصة ببني إسرائيل فهي تجربة إيمانية خالصة، فالله عز وجل يرشد عباده المؤمنين بأن يتخذوا بيوتهم مساجد إذا عمت الفتنة [4].

---

[1] -سورة القصص، آ 5

[2] - اليهود في القرآن عفيف عبد الفتاح طباره، ص 234

[3] - سورة يونس،آ 87

[4] -ينظر في ظلال القرآن سيد قطب ، المجلد الثالث، ص 1816

فالمؤمنون برسالة موسى عليه السلام والذين هم مستضعفون من قبل فرعون وجنوده يواسيهم موسى بقوله:﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓاْ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾﴾[1]. فأصحاب الدعوة إلى رب العالمين لهم ملاذ واحد، وهو الملاذ الحصين الأمين، وعليهم أن يصبروا حتى يأذن الولي بالنصرة في الوقت الذي يقدره بحكمته وعلمه[2]. فالصبر والاعتقاد الصحيح هما سبيلا الانتصار على العدو، إذ لهما أكبر أثر على النفوس فيقويان العزائم ويزيلان الشك والريب من النفوس، كما يبعدان اليأس عن القلوب.

ومن جوانب هذه الحكمة كذلك، التحرر من سلطان التقاليد، إذ صور القرآن الكريم سيطرة التقاليد على قوم فرعون عندما خاطبوا موسى في شأن الدعوة الجديدة التي أتاهم بها قال الله تعالى:﴿قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾﴾[3]. فالخوف من تحطيم المعتقدات الموروثة، هو الخوف على السلطان في الأرض، هذا السلطان الذي يستمدونه من خرافات عقائدهم الموروثة، فهي العلة القديمة الجديدة، التي تدفع بالطغاة إلى مقاومة الدعوات، وانتحال شتى المعاذير، ورمي الدعاة بأشنع التهم، والفجور في مقاومة الدعوات والدعوة إنها هي "الكبرياء في

[1] –سورة الأعراف، آ 128

[2] – في ظلال القرآن سيد قطب، المجلد الثالث، ص1355

[3] –سورة يونس ، آ78.

الأرض" وما تقوم عليه من معتقدات باطلة يحرص المتجبرون على بقائها متحجرة في قلوب الجماهير، بكل ما فيها من زيف، وبكل ما فيها من فساد، وبكل ما فيها من أوهام وخرافات[1].

فسلطان التقاليد له قيمته وله وزنه من الناحية الاجتماعية في كل أمة، وقد يكون سببا رئيسيا في إعاقة رقي وتقدم الأمم. فالتقاليد الموروثة عن الآباء تعد من أمارات الجمود والتخلف ويجعل الأمة غير قادرة على الحركة والسير في مضمار الرقي، ومسايرة ما يحدث من تطورات اجتماعية، فأعظم ضرر يصيب الجماعات البشرية ويمنعها من ارتياد طرق النجاح هو التقليد الأعمى للآباء، وقد أدى التقليد في بعض الجماعات إلى الاعتداء على دعاة الحق، واضطهادهم كما وقع لكثير من الأنبياء والمصلحين من أممهم التي لم تقدر التحرر من قيد التقاليد. ومن روعة القرآن أنه حارب التقليد الأعمى للآباء بدون روية وتبصر، وهذا ما جاء في النص القرآني لقوله تعالى:﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَآ أَلۡفَيۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ ١٧٠﴾[2].[3]

إن الله عز وجل يأمرنا دائما أن ندرك ونعلم ما نفعله، كما أنه سبحانه وتعالى يندد بالتقليد الأعمى عند تلقي شيء في العقيدة من غير الله تعالى.

[1] -ينظر في ظلال القرآن سيد قطب، المجلد الثالث، ص1814

[2] -سورة البقرة ، آ 170

[3] -ينظر، اليهود في القرآن عفيف عبد الفتاح طباره، ص237

ومن جوانب هذه الحكمة التحلي بالقول اللين، لقد أمر الله سبحانه وتعالى سيدنا موسى وأخيه هارون أن يبلغا الرسالة الإلهية لفرعون الملك المتأله باللين والرفق، إذ قال تعالى:﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ ٤٤﴾[1].

"فالقول اللين لا يثير العزة بالإثم؛ ولا يهيج الكبرياء الزائف الذي يعيش به الطغاة. ومن شأنه أن يوقظ القلب فيتذكر ويخشى عاقبة الطغيان" [2].

إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إذا صاحبهما اللين، كان له أثرا شديدا في النفس، لأنه يسمح لها فرصة التفكر في الوضع الذي هي فيه، وفي فائدة النصيحة التي ألقيت إليها وهذا ما يرضي كرامتها وكبريائها ويجعلها طيعة لقبول ما يعرض عليها من الخير إذا صاحبها الاقناع[3].

ومن أحسن ما قرأت ما جاء به سيد قطب في تفسيره لسورة المائدة إذ قال: "إنها حلقة من قصة بني إسرائيل التي فصلها القرآن أوسع تفصيل.. ذلك لحكمة متشعبة الجوانب.

من جوانب هذه الحكمة أن بني إسرائيل هم أول من واجه الدعوة الإسلامية بالعداء والكيد والحرب في المدينة وفي الجزيرة العربية كلها. فقد كانوا حربا على الجماعة المسلمة منذ اليوم الأول. وهم الذين احتضنوا النفاق والمنافقين في المدينة؛ وأمدوهم بوسائل الكيد للعقيدة وللمسلمين معا. وهم الذين حرضوا المشركين وواعدوهم وتآمروا معهم على الجماعة المسلمة. وهم الذين تولوا حرب الإشاعات والدس والكيد في الصف المسلم؛ كما تولوا بث الشبهات والشكوك والتحريفات حول العقيدة وحول القيادة. وذلك كله قبل أن يسفروا بوجوههم في الحرب المعلنة الصريحة.

[1] –سورة طه، آ 44

[2] – في ظلال القرآن سيد قطب، المجلد الرابع، ص 2336

[3] – ينظر، اليهود في القرآن عفيف عبد الفتاح طباره، ص 238

ومن جوانب هذه الحكمة أن بني إسرائيل هم أصحاب آخر دين قبل دين الله الأخير. وقد امتد تاريخهم قبل الإسلام فترة من التاريخ الطويل؛ ووقعت الانحرافات في عقيدتهم؛ ووقع منهم النقض المتكرر لميثاق الله معهم؛ ووقع في حياتهم آثار هذا النقض وهذا الانحراف، كما وقع في أخلاقهم وتقاليدهم. فاقتضى هذا أن تلم الأمة المسلمة – وهي وارثة الرسالات كلها وحاضنة العقيدة الربانية بجملتها – بتاريخ القوم، وتقلبات هذا التاريخ؛ وتعرف مزالق الطريق، وعواقبها ممثلة في حياة بني إسرائيل وأخلاقهم، لتضم هذه التجربة في حقل العقيدة والحياة إلى حصيلة تجاربها؛ وتنتفع بهذا الرصيد وتنفع على مدار القرون. ولتتقي مزالق الطريق، ومداخل الشيطان، وبوادر الانحراف، على هدى التجارب الأولى.

ومن جوانب هذه الحكمة أن تجربة بني إسرائيل ذات صحائف شتى في المدى الطويل. وقد علم الله أن الأمد حين يطول على الأمم تقسوا قلوبها؛ وتنحرف أجيال منها؛ وأن الأمة المسلمة التي سيمتد تاريخها حتى تقوم الساعة، ستصادفها فترات تمثل فيها فترات من حياة بني إسرائيل؛ فجعل أمام أئمة هذه الأمة وقادتها ومجددي هذه الدعوة في أجيالها الكثيرة، نماذج من العقابيل التي تلم بالأمم؛ يعرفون منها كيف يعالجون الداء بعد معرفة طبيعته. ذلك أن أشد القلوب استعصاء على الهدى والاستقامة هي القلوب التي عرفت ثم انحرفت! فالقلوب الخامة أقرب إلى الاستجابة، لأنها تفاجأ من الدعوة بجديد يهزها، وينفض عنها الركام، لجدته عليها، وانبهارها بهذا الجديد الذي يطرق فطرتها لأول مرة. أما القلوب التي نوديت من قبل، فالنداء الثاني لا تكون له جدته، ولا تكون له هزته؛ ولا يقع فيها الإحساس بضخامته وجديته، ومن ثم تحتاج إلى الجهد المضاعف، وإلى الصبر الطويل"[1].

[1] – في ظلال القرآن سيد قطب، ،المجلد الثاني، ص 868

وبجمل القول أن قصة بني إسرائيل كانت ذات أهمية بالغة لما حملت من عظات وعبر، لهذا تكررت في مواضع كثيرة من كتاب الله عز وجل ولكنها لم تكن بنسق واحد في الصياغة؛ فكل موضع منها يفيد معنى جديدا لا يستفاد من غيره من المواضع.

3-إسرائيل في السياق القرآني

ينتسب اليهود إلى إسرائيل، وإسرائيل هو الاسم البديل ليعقوب النبي عليه السلام، ابن إسحاق النبي عليه السلام ابن إبراهيم عليه السلام، وعمّه إسماعيل النبي عليه السلام وابنه يوسف عليه السلام. فاجتمعت في عائلة واحدة خمس أنبياء عليهم صلوات الله وسلامه، فكان من أطهر وأفضل البيوت عند الله.

لأول مرة وآخر مرة في القرآن بشرت الملائكة نبي الله ورسوله إبراهيم عليه السلام وزوجه سارة بولد وحفيد بل بشروهما باسم الولد والحفيد معا لقوله تعالى: ﴿وَٱمۡرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٞ فَضَحِكَتۡ فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ ٧١﴾[1]. فقد بشر الله سبحانه وتعالى إبراهيم عليه السلام بإسماعيل عليه السلام الغلام الحليم لقوله تعالى:﴿فَبَشَّرۡنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٖ ١٠١﴾[2]، وبشره بإسحاق وحده لقوله تعالى:﴿وَبَشَّرۡنَٰهُ بِإِسۡحَٰقَ نَبِيّٗا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١١٢﴾[3]، وبشر مريم بعيسى عليه السلام لقوله تعالى: ﴿إِذۡ قَالَتِ

[1] سورة هود، آ 71

[2] سورة الصافات، آ 101

[3] سورة الصافات، آ112

ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾[1]، وبشر زكريا بيحي عليهما السلام لقوله تعالى:﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾﴾[2]، مكافأة لهم كما أخبرنا الله عز وجلّ بذلك.

فالمكافأة من جنس العمل وأكبر، فمن كمال فضل الله على إبراهيم عليه السلام وزوجه أنه بشرهما بولادة ابنيهما رغم شيخوختهما وزاد فضله سبحانه وتعالى أن بشرهما بولادة حفيدهما في حياتهما مصداقا لقوله تعالى: ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ ﴾[3].

لقد وصف الله عز وجلّ في محكم تنزيله أن يعقوب عليه السلام كان نافلة لسيدنا إبراهيم عليه السلام، جزاء نصرته للدين وصبره على أذى قومه له ثم اعتزاله لقومه الظالمين الكافرين لقوله تعالى :﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾

[1] سورة آل عمران، آ 45

[2] سورة مريم، آ 7

[3] سورة هود،آ 71

﴾[1]، وكذلك قوله تعالى:﴿فَلَمَّا ٱعۡتَزَلَهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۖ وَكُلّٗا جَعَلۡنَا نَبِيّٗا ﴿٤٩﴾ ﴾[2] .

ذكر القرآن الكريم ليعقوب عليه السلام اسمين: يعقوب وإسرائيل. أمّا يعقوب فهو اسم علم أعجمي، وهو ممنوع من الصرف للعلمية والعجمية.

لقد ورد اسم يعقوب ست عشرة مرة، ورد في السور المكية التالية:

في سورة يوسف ثلاث مرات، وذلك في عرض قصة يوسف عليه السلام.

في سورة مريم مرتين. مرة في الإخبار عن إبراهيم عليه السلام، ومرة في دعاء زكريا عليه السلام طالبا منه الولد.

في سورة هود مرة في الإخبار عن بشارة سارة ثم بيعقوب.

في سورة الأنبياء مرة، في الإخبار عن بشارة إبراهيم بإسحاق ثم بيعقوب.

في سورة العنكبوت مرة، في الإخبار عن جعل الله النبوة في ذرية إبراهيم وحفيده يعقوب.

في سورة ص مرة، في جمع الكرام الثلاثة: إبراهيم وإسحاق ويعقوب عليهم السلام.

أمّا السور المدنية التي ذكر فيها هي:

سورة البقرة، وذكر فيها أربع مرات، وذلك في معرض الحديث عن إسلامه، ووصيته لأولاده وهو على فراش الموت بالإسلام ودعوة ذريته إلى الدخول في الإسلام، والإيمان بجميع الكتب المنزلة، وبجميع الرسل المبعوثين من بعده.

[1] سورة الأنبياء، آ 72

[2] سورة مريم، آ 49

سورة آل عمران، إذ ذكر فيها مرة واحدة، في معرض دعوة أهل الكتاب إلى الإيمان بكل الأنبياء وما أنزل عليهم.

سورة النساء، حيث ذكر فيها مرة واحدة، أثناء ذكر أسماء مجموعة من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.[1]

أمّا الاسم الآخر لسيدنا يعقوب عليه السلام فقد ذكر مرتين في القرآن الكريم، مرة في سورة مريم، والثانية في سورة آل عمران.

ففي سورة مريم:" يقف السياق في استعراض المعالم البارزة في صفحة النبوة في تاريخ البشرية "من ذرية آدم" "وممن حملنا مع نوح" "ومن ذرية إبراهيم وإسرائيل". فآدم يشمل الجميع، ونوح يشمل من بعده وإبراهيم يشمل فرعي النبوة الكبيرين: ويعقوب يشمل شجرة بني إسرائيل. وإسماعيل وإليه ينتسب العرب ومنهم خاتم النبيين" [2].

الفرع الأول: فرع إسحاق الذي جاء منه جمهرة النبوة، بداية من يعقوب (إسرائيل)، ثم يوسف، ثم موسى وهارون، ثم داود وسليمان، ثم زكريا ويحي، ثم ذو الكفل، ثم أيوب، ثم ذو النون عليهم الصلاة والسلام.

أمّا الفرع الآخر: فرع إسماعيل عليه السلام الذي جاء منه جماع جواهر النبوة، وهو محمد صلى الله عليه وسلم[3].

وأمّا ذكره في سورة آل عمران كان عند الحديث عما حرمه إسرائيل عن نفسه من قبل أن تنزل التوراة. ويبدو أن هذا التقرير كان ردا على اعتراض بني إسرائيل على إباحة القرآن لبعض المحرمات

[1] القصص القرآني، عرض وقائع وتحليل أحداث د.صالح الخالدي، ج2، ص51

[2] في ظلال القرآن، سورة مريم، مج4، ص 2314

[3] ينظر، خواطر الشعراوي، مج15، ص 9128

اليهودية من الطعام[1]. فقد حرم إسرائيل عليه السلام بعض الطعام على نفسه، إمّا وفاء لنذر، أو زهدا في هذا الطعام، أو وقاية لجسمه من مرض ما، فاعتبروها اليهود تشريعا لهم، بينما كان هذا التحريم شخصي يخص يعقوب عليه السلام وحده، وبعد نزول التوراة حرم الله عليهم بعض الطعام تأديبا لهم فكان تحريم تأديب لا تحريم تشريع كما زعموا وافتروا على الله الكذب [2].

كلمة إسرائيل ذكرت مرتين في القرآن الكريم، اختلف البحاث في معناها، فرأوا أنها كلمة عبرية مركب من مقطعين الأول "إسرا" والثاني "إيل"، فهناك فريق يذهب إلى أن "إسرا" بمعنى عبد أو صفوة، و"إيل" بمعنى الله، فيكون المعنى عبد الله أو صفوة الله وهذا ما ذهب إليه قاموس الكتاب المقدس. وفريق ثاني يذهب إلى أن "إسرا" معناه قوة، جندي، ويجاهد ويصارع هذا عن معناه ...أما إطلاقه فهو يطلق على: يعقوب عليه السلام إذ تزعم التوراة الحالية أن يعقوب عليه السلام صارع الله، وانتصر عليه، ومن ثم سمي إسرائيل بمعنى قوة الله، أو مصارع الله، أو يجاهد الله[3].كما أن قصة هذه التسمية مشهورة في الكتاب المقدس في سفر التكوين آ32: 22-29 إذ تقول " إن يعقوب التقى ربا يعرف باسم "إيل" وكان رب إبراهيم وإسحاق وظل ربا لتلك الجماعة حتى ظهور النبي موسى عليه السلام وربه "يهوه"، وتحكي القصة حكاية النزاع الجسدي بين يعقوب وإيل، وكادت المصارعة تحسم لصالح يعقوب لولا أن كشف إيل عن شخصيته الإلهية ليعقوب، حيث أمره بتبديل اسمه من يعقوب إلى إسرائيل، وهو نحت لفظي مركب من ملصقين، يترجمه بعض الباحثين تجميلا، وربما مجاملة لشعب الرب، بالترجمة " جندي الرب" بينما صدق التسمية لدينا هي صراع-إيل أي مصارع الرب، أو الذي صرع الرب وهزمه، ولو كان صدق التسمية هو جندي الرب لكان الأصل

[1] ينظر، في ظلال القرآن، مج1، ص 432

[2] ينظر، موسوعة النابلسي للعلوم الإسلامية، تفسير القرآن الكريم، مج 2، ص 418

[3] اليهودية بين الوحي الإلهي والانحراف البشري د.فرج الله . عبد الباري، ، دار الآفاق العربية، 2004م دط، ص25

العبري هو (صبت-إيل) وليس (إسرائيل).»[1]،هذا ما ذكرته التوراة المحرفة عن سبب تسمية سيدنا يعقوب عليه السلام بإسرائيل.

4-بنو إسرائيل في السياق القرآني

من المعلوم أن لفظ بني إسرائيل أطلق على أبناء سيدنا يعقوب عليه السلام، وهو بعد في حياته. كما استعمل هذا الاسم على الأسباط العشرة الذين انشقوا وانفصلوا عن يهوذا وبنيامين، وتعد هذه التسمية فخر لهم لما فيها من دلالة على الوعد والرجاء وإشارة إلى مجدهم، وهم تحت إسرائيل ينتظرون ملكوت الله والخلاص من أعدائهم، كما كان رسل المسيح حين يخاطبون اليهود ينادونهم بهذه التسمية حتى يستميلوهم (انظر أعمال الرسل 2:22،3:12)[2].

إن تاريخ بني إسرائيل يبدأ من يعقوب عليه السلام من حيث الصلة التاريخية، فلا يربطهم بإسرائيل إلا هذا الخيط التاريخي السابق. وهم إن صحت لهم هذه النسبة ليعقوب عليه السلام، فإن وراثتهم له ولغيرهم من أنبياء الله لا تصح، لأن القرآن يفرق بين صلة النسب وبين وراثة الدين والإيمان والعقيدة، فليس كل من صح نسبه بالأنبياء والرسل كان وارثا لعلمهم ورسالتهم وإيمانهم، ولنا في القرآن الكريم العديد من القصص التي توضح لنا هذه الحقيقة فمثلا قصة سيدنا نوح عليه السلام مع ابنه إذ قال تعالى: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ وَأَنتَ أَحۡكَمُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ

[1] إسرائيل التوراة التاريخ، التضليل، سيد القمني، دار قباء للطباعة والنشر ،1998م، القاهرة،دط، ص 99.

[2] ينظر، اليهودية بين الوحي الإلهي والإنحراف البشري، ص 26

مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾[1]، فالله سبحانه وتعالى يقدم لنا الحقيقة التي غفل عنها الكثير فالأهل ليسوا قرابة الدم، إنما هم قرابة العقيدة. فولد نوح عليه السلام لم يكن مؤمنا، فقضى الله عز وجل أن لا يكون هذا الولد من أهل هذا النبي الصالح وجاء الرد الإلهي بقوة وتقرير وتوكيد من العلي القدير:﴿ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾﴾[2]؛

إنها الحقيقة الكبيرة في هذا الدين، حقيقة العروة التي ترجع إليها الخيوط جميعا، عروة العقيدة التي تربط بين الفرد والفرد ما لا يربطه النسب والقرابة " إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح" فهو منبت منك وأنت منبت منه، ولو كان من صلبك، فالعروة الأولى مقطوعة، فلا رابطة بعد ذلك ولا وشيجة[3].فعلى أساس هذه القاعدة الربانية يتبين لنا أنه لا صلة بينهم وبين إسرائيل عليه السلام، غير التاريخ الماضي.

استخدم القرآن الكريم هذا الاسم في الكثير من المواضع، " فأخبرنا الله عز وجل أنه كان لإسرائيل اثنا عشر ولدا ذكرا، وهم المذكورون في سورة يوسف، ومن أبنائه الاثني عشر جاء بنو إسرائيل، الذين ورد ذكرهم في القرآن وهم الذين سموا بعد ذلك اليهود"[4].

إن كلمة بني إسرائيل جاءت في القرآن الكريم إحدى وأربعين مرة، تارة في السور المكية وتارة أخرى في السور المدنية.

[1] سورة هود، آ45-آ46

[2] سورة هود، آ 46

[3] ينظر في ظلال القرآن، سيد قطب، مج4، ص 1880

[4] القصص القرآني د. صلاح الخالدي، ج2، ص 62

فالسور المكية التي وردت فيها هي الأعراف، ويونس، والإسراء، وطه، والشعراء، والنمل، والسجدة، وغافر، والزخرف، والدخان، والجاثية، والأحقاف. فالمتمعن فيما ورد فيهم في السور المكية يجد أنها تحدثت عن قصصهم السابقة من لدن وجودهم في مصر وبعثة موسى عليه السلام وبعدها. ومنه ما فيه إشارة صريحة إلى موقف بعضهم من الدعوة النبوية في عهدها المكي، كما أن منه ما فيه إشارة مطلقة يدخلون في نطاقها في سياق ذكر الكتابيين ومواقفهم من الدعوة المذكورة[1].

ففي سورة الأعراف الآيات التي وردت فيها لفظة بني إسرائيل هي كالآتي: قال تعالى:﴿حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾ ﴾ ، وقال تعالى:﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ۖ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ ﴾ ،كما قال تعالى:﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُواْ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾ ﴾ ،وقال تعالى:﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْاْ عَلَىٰ قَوْمٍ

[1] اليهود في القرآن محمد عزة دروزة، المكتب الإسلامي،دت ،دط ،ص 3

يَعۡكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصۡنَامٖ لَّهُمۡۚ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ قَالَ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ فالآيات التي ورد فيها اسم بني إسرائيل في سورة الأعراف تعرض لنا حلقات شتى من قصة موسى مع فرعون وملئه، ومع قومه بني إسرائيل، فقد شملت حلقة مواجهة فرعون بحقيقة العقيدة، وحلقة أخذ آل فرعون بالسنين والآفات، وحلقة إغراق فرعون والملأ من قومه، ثم تعرض علينا حلقة أخرى عند انتهاء المعركة مع الطاغوت، معركة أشد وأقسى وأطول معركة مع النفس البشرية، إذ طلب بنو إسرائيل من موسى أن يجعل لهم إلها –صنما– كالقوم الذين مروا عليهم بعد نجاتهم من فرعون وتجاوزهم البحر، فصار موسى عليه السلام يواجه هذه النفوس التي امتلأت بالذل والالتواء والخضوع للطغيان[1].

أما في سورة يونس الآيات التي وردت فيها لفظة بني إسرائيل هي كالآتي: قال تعالى:﴿وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ وَجُنُودُهُۥ بَغۡيٗا وَعَدۡوًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٩٠﴾﴾، وقوله تعالى:﴿وَلَقَدۡ بَوَّأۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدۡقٖ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخۡتَلَفُواْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقۡضِي بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾﴾.

[1] ينظر، في ظلال القرآن، مج 3، ص 1364

يأخذ السياق في هاتين الآيتين في جولة تفصيلية من قصة موسى مع فرعون وملئه، تتحقق فيها عاقبة التكذيب، والقضاء في أمر الأمة بعد مجيء رسولها، وإبلاغها رسالته، وتحذيرها عاقبة المخالفة[1].

أما في سورة الإسراء الآيات التي وردت فيها لفظة بني إسرائيل هي كالآتي:

قال تعالى:﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ وَجَعَلْنَـٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ﴿٢﴾ ﴾ ، وقوله تعالى:﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَـٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ ﴾، كما قال تعالى:﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ ۖ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَـٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ ﴾، قال تعالى:﴿وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْـَٔاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾ ﴾.

المحور الأساسي في هذه السورة الكريمة ككل السور المكية هو قضية التوحيد، ويبين لنا عز وجل أنه لا يمكن قيام ببناء في الحياة إلا مستندا إليه، ثم يعرض لنا بعض قصص بني إسرائيل والمسجد الأقصى الذي كان إليه الإسراء، فيذكر سبحانه وتعالى كتاب موسى وما قضى فيه لبني إسرائيل، من نكبة وهلاك وتشريد مرتين، بسبب طغيانهم وإفسادهم مع إنذارهم بثالثة ورابعة "وإن عدتم عدنا"، ثم يقرر أن الكتاب الأخير –القرآن– يهدي للتي هي أقوم، وفيه تذكرة للخوارق التي جاء بها موسى فكذب

[1] في ظلال القرآن، مج 3، ص 1810

بها فرعون وقومه فأهلكهم الله حسب سنته في إهلاك المكذبين، وهكذا أورث الله الأرض للذين كانوا يستضعفون، موكولين فيها إلى أعمالهم وسلوكهم إلى قيام الساعة[1].

أما في سورة طه الآيات التي وردت فيها لفظة بني إسرائيل هي كالآتي:

قال تعالى:﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ۖ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ ۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾﴾ كما قال تعالى:﴿يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَدْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَٰعَدْنَٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ﴿٨٠﴾﴾ وقال تعالى:﴿قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ ۖ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى ﴿٩٤﴾﴾.

ففي سورة طه يوضح لنا الله سبحانه وتعالى قصة موسى عليه السلام على أنها نموذج كاملا لرعاية الله سبحانه وتعالى لمن يختارهم لإبلاغ دعوته، فقد عالج سيدنا موسى أمر فرعون الطاغية وأعانه الله تعالى عليه، ثم أخذ بعد ذلك يعالج بني إسرائيل وكان علاجهم أشد من علاج فرعون؛ لأن علاج النفوس التي تطغى وتضعف، ومردت على النفاق والغضب، ومعاشرة الكافرين، وتأثر نفوسهم بالكفر والشرك يصعب أمرهم[2].

أما في سورة الشعراء الآيات التي وردت فيها لفظة بني إسرائيل هي كالآتي:

[1] ينظر، في ظلال القرآن، مج 4، ص 2209

[2] ينظر تفسير الزهرات، لأبي زهرة، ص 4699

قال تعالى:﴿أَنۡ أَرۡسِلۡ مَعَنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴿١٧﴾ ﴾، كما قال الحق:﴿وَتِلۡكَ نِعۡمَةٞ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنۡ عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴿٢٢﴾﴾، وقال فيهم عز من قائل:﴿كَذَٰلِكَ وَأَوۡرَثۡنَٰهَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾﴾، وقال سبحانه وتعالى:﴿أَوَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ ءَايَةً أَن يَعۡلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُاْ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾﴾

فالحلقة المعروضة هنا هي حلقة الرسالة والتكذيب وما كان من غرق فرعون وملئه جزاء على هذا التكذيب، وعقابا على ائتماره بموسى ومن معه من المؤمنين. ونجاة موسى وبني إسرائيل من كيد الظالمين[1].وفي الآية الأخيرة إشارة إلى أن علماء بني إسرائيل يعرفون خبر هذا الرسول وما معه من القرآن، لأنه مذكور في كتب الأولين. ومن ثم كان علماء بني إسرائيل يتوقعون هذه الرسالة، وينتظرون هذا الرسول، ويحسون أن زمانه قد أظلهم؛ ويحدث هذا بعضهم بعضا بهذا كما ورد على لسان سلمان الفارسي، ولسان عبد الله بن سلام –رضي الله عنهما– والأخبار في هذا ثابتة كذلك بيقين[2].

أما في سورة النمل والسجدة وغافر والزخرف والدخان والجاثية والأحقاف والصف فقد وردت لفظة بنو إسرائيل مرة واحدة في كل من هذه السور.

ففي سورة النمل الآية التي وردت فيها لفظة بني إسرائيل هي كالآتي:

قال تعالى:﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَكۡثَرَ ٱلَّذِي هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ ﴾

[1] في ظلال القرآن، سيد قطب، مج5،ص 2577

[2] نفسه، مج 5، ص 2617

في هذه الآية الكريمة يخبرنا الله عز وجل بخبر تكذيب بنو إسرائيل بآيات الله وهم على يقين من صدقها، فبنو إسرائيل اختلفوا في شأن المسيح عليه السلام، وفي شأن طبيعته أ هو من بني البشر؟ أم هو إله؟، اختلفوا في قصص كثيرة عن الأنبياء وجاء القرآن ليوضح كل الموضوعات الخلافية في الكتب السابقة وضوحا كاشفا لكل الحقائق[1].

أما في سورة السجدة الآية التي وردت فيها لفظة بني إسرائيل هي كالآتي:

قال تعالى:﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِي مِرۡيَةٖ مِّن لِّقَآئِهِۦۖ وَجَعَلۡنَٰهُ هُدٗى لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٢٣ ﴾.

في هذه الآية الكريمة الحديث موجه إلى سيد الخلق محمد صلى الله عليه وسلم، إذ يقول له الحق سبحانه وتعالى" لا تكن يا محمد في شك من تلقي القرآن كما تلقى موسى التوراة، والمقصود تقرير رسالته عليه السلام، وتحقيق أن ما معه من الكتاب وحي سماوي وكتاب إلهي"[2]

وعن الحسن قال في معناه: ﴿ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ ﴾ أي أن موسى قد أوذي وكذّب، فلا تكن يا محمد في شك من أنه سيلقاك ما لقيه من التكذيب والأذى، وأن رسالة موسى ورسالة محمد من مشكاة واحدة[3].

أما في سورة غافر الآية التي وردت فيها لفظة بني إسرائيل هي كالآتي:

[1] ينظر تفسير النابلسي، محمد راتب النابلسي، سورة النمل، ص 290

[2] صفوة التفاسير محمد علي الصابوني، دار القرآن الكريم، بيروت، ط 4، 1981م، مج 2، ص 506

[3] ينظر، الجامع لأحكام القرآن،لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، مج 7، الجزء الرابع عشر،ص 72

قال تعالى:﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡهُدَىٰ وَأَوۡرَثۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡكِتَٰبَ ﴿٥٣﴾﴾ كان هذا نموذجا من نماذج نصر الله، إيتاء الكتاب والهدى ووراثة الكتاب والهدى، وهذا النموذج الذي ضربه الله مثلا في قصة موسى، يكشف لنا طريق النصر[1].

أما في سورة الزخرف الآية التي وردت فيها لفظة بني إسرائيل هي كالآتي:

قال تعالى:﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا عَبۡدٌ أَنۡعَمۡنَا عَلَيۡهِ وَجَعَلۡنَٰهُ مَثَلٗا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾﴾ هنا الكلام كان على عيسى عليه السلام إذ أنه ليس إلها كما انحرف فريق من النصارى فعبدوه. إنما هو عبد أنعم الله عليه، ولا جريرة له في عبادتهم إياه. فإنما أنعم الله عليه ليكون مثلا لبني إسرائيل ينظرون إليه ويتأسون به[2].

أما في سورة الدخان الآية التي وردت فيها لفظة بني إسرائيل هي كالآتي:

قال تعالى:﴿وَلَقَدۡ نَجَّيۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡمُهِينِ ﴿٣٠﴾ ﴾ لقد ضرب الله في هذه الآية الكريمة مثلا ببني إسرائيل إذ نجاهم من العذاب المهين من الطاغية فرعون وقومه وهذا نتيجة اصطفاء الحق سبحانه وتعالى لبني إسرائيل في هذه الفترة من الزمن وهذا لإلتزامهم بما شرعه الله لهم فكانوا خير أمة في زمانهم ولهذا استحقوا النجاة والنصر[3].

أما في سورة الجاثية الآية التي وردت فيها لفظة بني إسرائيل هي كالآتي:

[1] ينظر في ظلال القرآن،مج 5،ص 3087

[2] ينظر، المرجع السابق، مج5، ص3198

[3] ينظر، المرجع السابق، مج 5، ص 3214

قال تعالى:﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦﴾.

ومعنى الآية أن الله عز وجل "أعطى القيادة – قبل الإسلام – لبني إسرائيل .فكانوا هم أصحاب عقيدة السماء التي اختارها الله لتلك الفترة من التاريخ .ولا بد للبشر من قيادة مستمدة من السماء .فالأرض قيادتها هوى أو جهل أو قصور . والله خالق البشر هو وحده الذي يشرع لهم شريعته مبرأة من الهوى فكلهم عباده، مبرأة من الجهل والقصور فهو الذي خلقهم وهو أعلم بمن خلق، وهو اللطيف الخبير.

"ولقد آتينا بني إسرائيل الكتاب والحكم والنبوة.. "

فكان فيهم التوراة شريعة الله .وكان فيهم الحكم لإقامة الشريعة .وكان فيهم النبوة بعد رسالة موسى وكتابه للقيام على الشريعة والكتاب .وكثر فيهم الأنبياء وتتابعوا فترة طويلة نسبياً في التاريخ.

"ورزقناهم من الطيبات.. "

فكانت مملكتهم ونبواتهم في الأرض المقدسة، الطيبة، الكثيرة الخيرات بين النيل والفرات.

"وفضلناهم على العالمين.. "

وكان تفضيلهم على أهل زمانهم بطبيعة الحال؛ وكان مظهر هذا التفضيل الأول اختيارهم للقيادة بشريعة الله؛ وإيتاءهم الكتاب والحكم والنبوة"[1].

أما في سورة الأحقاف الآية التي وردت فيها لفظة بني إسرائيل هي كالآتي:

[1] في ظلال القرآن، مج 5، ص 3228

قال تعالى:﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كَانَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرۡتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثۡلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٠﴾.

في هذه الآية الكريمة يبين الحق أن أهل الكتاب يعرفون طبيعة التنزيل، فيكون واحد أو أكثر من بني إسرائيل، عرف أن طبيعة هذا القرآن هي طبيعة الكتب المنزلة من عند الله فآمنوا به، بحكم معرفتهم لطبيعة التوراة. ولقد استعمل الحق هذا الأسلوب في الجدل لزعزعة الإصرار والعناد في نفوس أهل مكة، وإثارة التخوف في نفوسهم والتحرج من المضي في التكذيب، وأن عاقبة التكذيب يستحق النقمة من الله وإحباط الأعمال[1].

أما السور المدنية التي وردت فيها لفظة بني إسرائيل هي البقرة، آل عمران، المائدة، الصف.

ففي سورة البقرة الآيات التي وردت فيها لفظة بني إسرائيل هي كالآتي:

قال تعالى:﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ٤٠﴾.

قال تعالى:﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ٤٧﴾

[1] ينظر، في ظلال القرآن ، مج 6، ص 3257

قال تعالى:﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ لَا تَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَانٗا وَذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسۡنٗا وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنكُمۡ وَأَنتُم مُّعۡرِضُونَ ٨٣﴾

قال تعالى:﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٢٢﴾

قال تعالى:﴿سَلۡ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ كَمۡ ءَاتَيۡنَٰهُم مِّنۡ ءَايَةم بَيِّنَةٖۗ وَمَن يُبَدِّلۡ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٢١١﴾

قال تعالى:﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلۡمَلَإِ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰٓ إِذۡ قَالُواْ لِنَبِيّٖ لَّهُمُ ٱبۡعَثۡ لَنَا مَلِكٗا نُّقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ قَالَ هَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُواْۖ قَالُواْ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِي سَبِيلِ

ٱللَّهِ وَقَدۡ أُخۡرِجۡنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبۡنَآئِنَاۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقِتَالُ تَوَلَّوۡاْ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ ﴾.

تضم هذه السورة عدة موضوعات، ولكن المحور الأساسي الذي يجمعها كلها هو محور واحد مزدوج، فهي من ناحية تدور حول موقف بني إسرائيل من الدعوة الإسلامية في المدينة واستقبالهم لها ومواجهتهم لرسولها صلى الله عليه وسلم وللجماعة المسلمة الناشئة على أساسها. ومن ناحية أخرى تدور حول موقف الجماعة المسلمة في أول نشأتها؛ وإعدادها لحمل أمانة الدعوة والخلافة في الأرض، بعد أن تعلن السورة نكول بني إسرائيل عن حملها، ونقضهم لعهد الله بخصوصها، وتجريدهم من شرف الانتساب الحقيقي لإبراهيم عليه السلام صاحب الحنفية الأولى، وتبصر الجماعة المسلمة وتحذيرها من العثرات التي سببت تجريد بني إسرائيل من هذا الشرف العظيم[1].

ففي هذه الآيات الكريمة يذكر الله عز وجل بني إسرائيل بالنعم الكثيرة التي أنعمها عليهم، وعلى فيض آلائه التي أفاضها عليهم، ثم يطلب منهم أن يكونوا أوفياء بعهدهم معه سبحانه وتعالى.

لقد دعا الله عز وجل بني إسرائيل إلى الإيمان بالرسول الكريم محمد بن عبد الله مصدقا لما معهم وألا يسارعوا إلى الكفر به، ونهى الله بني إسرائيل أن يكون حبهم للدنيا وما فيها من مصالح لهم سببا في عنادهم وكفرهم لما جاء على لسان سيد الخلق محمد صلى الله عليه وسلم فيكونون ممن اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة. إن تفضيل بني إسرائيل على العالمين موقوت بزمان استخلافهم واختيارهم، فأما بعد ما عتوا عن أمر ربهم، وعصوا أنبيائهم، وجحدوا نعمة الله عليهم، وتخلوا عن التزاماتهم وعهدهم،

[1] ينظر، في ظلال القرآن، مج1، ص 28

فقد أعلن الله حكمه عليهم باللعنة والغضب والذلة والمسكنة، وقضى عليهم بالتشريد وحق عليهم الوعيد[1].

ففي سورة آل عمران الآيتين التي وردت فيهما لفظة بني إسرائيل هي كالآتي:

قال تعالى:﴿وَرَسُولاً إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدۡ جِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡۖ أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ وَأُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأۡكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾

قال تعالى:﴿ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلّٗا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسۡرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ مِن قَبۡلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوۡرَىٰةُۗ قُلۡ فَأۡتُواْ بِٱلتَّوۡرَىٰةِ فَٱتۡلُوهَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾ ﴾.

تفيد الآية 49 أن رسالة عيسى عليه السلام كانت لبني إسرائيل، فهو أحد أنبيائهم ومن ثم كانت التوراة التي نزلت على عيسى عليه السلام، وفيها الشريعة المنظمة لحياة الجماعة الإسرائيلية والمنظمة لقوانين التعامل والتنظيم، فهي كتاب عيسى عليه السلام كذلك، مضافا إليها الإنجيل الذي

[1] ينظر، المرجع السابق، مج 1،ص 33

يتضمن إحياء الروح وتهذيب القلب وإيقاظ الضمير وأن يحل لهم بعض ما حرم عليهم وكان تحريم عقاب وتربية لنفوس ضعيفة الشخصية[1].

أما الآية 93 فقد وضحت أن كل الطعام كان حلا لبني إسرائيل إلا ما حرم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة، من الواضح أن هذه الآية كانت ردا على اعتراض بني إسرائيل على إباحة القرآن لبعض المحرمات اليهودية من الطعام؛ مع أن هذه المحرمات إنما حرمت عليهم وحدهم، في صورة عقوبة على بعض مخالفاتهم[2]

ففي سورة المائدة الآيات التي وردت فيهما لفظة بني إسرائيل هي كالآتي:

قال تعالى:﴿ وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٢﴾ ﴾

قال تعالى:﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ

[1] ينظر، في ظلال القرآن، مج 1،ص 399

[2] ينظر، المرجع السابق، مج1،ص 432

أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾

قال تعالى:﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا ۖ كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾

قال تعالى:﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ ﴾

قال تعالى:﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾

قال تعالى ﴿إِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱذۡكُرۡ نِعۡمَتِي عَلَيۡكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذۡ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلۡمَهۡدِ وَكَهۡلٗاۖ وَإِذۡ عَلَّمۡتُكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَۖ وَإِذۡ تَخۡلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ بِإِذۡنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِيۖ وَتُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ بِإِذۡنِيۖ وَإِذۡ تُخۡرِجُ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِيۖ وَإِذۡ كَفَفۡتُ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذۡ جِئۡتَهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ١١٠﴾.

يذكر الله سبحانه وتعالى في هذه الآيات بني إسرائيل الذين نقضوا الميثاق الذي أخذه الحق سبحانه وتعالى عليهم بإقامة العدل، ودعاهم إلى الحياة الحقيقية التي تليق بالإنسان، كما بين سبحانه وتعالى مقام الألوهية ومقام البشرية فكان الصراع بين الحق والباطل، كما ذكر خصوصيات ونعم الله على السيد المسيح وأمه، واستعرض المعجزات التي آتاها الله إياه ليصدق الناس برسالته، كما ذكر حمايته له من بني إسرائيل إذ جاءهم بهذه البينات كلها فكذبوه، وهذا بيان على فساد قلوبهم وقساوتها إذ أغلقت عن الحق. وقد وضح لنا خالقنا من خلال هذه الآيات الكريمة أن النفس البشرية إذا دخلها الحسد فسدت وصارت العداوة بدل المودة في موضع كان يجب أن تسوده المحبة[1].

وأخيرا في سورة الصف الآيتين التي وردت فيهما لفظة بني إسرائيل هي كالآتي:

[1] ينظر، محمد أبو زهرة، زهرة التفاسير، ص 2004.

قال تعالى:﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾ ﴾

قال تعالى:﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّۦنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ ۖ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ ﴿١٤﴾ ﴾.

ذكر الحق سبحانه وتعالى بني إسرائيل في هاتين الآيتين حين تكلم عن رسالة عيسى ليقرر أنه جاء امتداد لرسالة موسى، ومصدقا لما بين يديه من التوراة وممهدا للرسالة الأخيرة ومبشرا برسولها؛ فقد جاء ليسلم أمانة الدين الإلهي التي حملها بعد موسى إلى الرسول الذي يبشر به، ثم تختم السورة بنداء أخير للذين آمنوا ليكونوا أنصار الله كما كان الحواريون أصحاب عيسى أنصاره إلى الله، على الرغم من تكذيب بني إسرائيل به وعدائهم لله[1].

إن مصطلح بني إسرائيل يحمل معنيين؛ فبنو إسرائيل قديما من حيث النسب هم ذرية يعقوب عليه السلام، ومن الناحية الإيمانية منهم من آمن برسالة يعقوب عليه السلام بالرغم مما حدث منهم من تآمر على سيدنا يوسف عليه السلام وبقي هذا المعنى ملازما ومصاحبا لهم ولذريتهم حتى زمن

[1] ينظر،في ظلال القرآن، مج 6، ص3550

سيدنا عيسى عليه السلام وحتى بعثت النبي صلى الله عليه وسلم، غير أن هذا المصطلح تغير إلى مصطلح آخر هو "اليهود" وهذا بعدما ارتكب بنو إسرائيل من الجرائم التي تؤدي إلى الكفر والجحود والعصيان[1].

فإذا أمعنا النظر في هذه المواضع التي ورد فيها مصطلح " بني إسرائيل " نجد أنها كانت تعرض لقطات ومشاهد من تاريخ بني إسرائيل من قبل بعثة موسى علية السلام حتى بعثت محمد عليه الصلاة والسلام.

ذكر القرآن الكريم قصص الأنبياء والرسل، ومنها قصّة سيّدنا موسى مع معاصريه، يَستخرِج منها المتأمِّلُ في الذكر الحكيم غاياتٍ عديدةً تجعل المؤمن الصادق يأخذها كعبرات؛ و خلاصتها أنّ بني إسرائيل تمتّعوا في بداية أمرهم بالخيرات المادية و المعنوية المتمثِّلة في تطبيقهم التوراة بكلّ صغيرة و كبيرة فيها، متّبعين الهدى الربّاني؛ و قد نتج عن تلك الأوضاع أنّهم حصّلوا على الشرف و العزّ. ثُم استعبدهم فرعون الطاغية فانحرفوا عن الطريق المستقيم و صاروا أدلاّء صاغرين، فأكرمهم الله سبحانه و تعالى برسوله سيّدنا موسى – عليه الصلاة و السلام – ومنحه الصبر الجميل الذي يُكرم به عباده الصالحين ليُزيل عنهم العناد الذي أصبح من صفاتهم الثابتة فشجعته هذه الخصلة الحميدة على إقناع السحرة ، وهذا الإقناعُ إنّما هو عبارةٌ عن انتصار الحقّ على الباطل؛ وحين قابل هو وأخوه الملكَ المصريَّ الجبّارَ كلّماه باللين؛ فاللينُ إذا أُستُعمل في جميع الميادين، ولاسيّما في الأمر بالمعروف النهي عن المنكر يأتي بالثمار المرجوة منه. ثُم ذكر القرآنُ العظيمُ قصّة معاصر فرعون الغنيِّ قارون الذي طغى بماله وقدرته، فأراه الله قدرتَه الغير المحدودة ومعجزتَه التي لا يكسبها أيّ مخلوق. وقد فرض الخالق على بني إسرائيل الصلاة والصبر عليها. فالصبر يمحي الشكوك والاعتقادات الخاطئة ويهدي إلى السير نحو التقدّم، وبالصبر المستمرّ يُصلَح الشعبُ المهان، والخلاصة أنّ المعروف عند الجميع أنّ فرعون خسر

[1] ينظر، منهج القرآن الكريم في التعامل مع جرائم اليهود(دراسة تطبيقية بين الماضي والحاضر)، إعداد الطالب رمضان بن يوسف عبد الهادي الصيفي، إشراف د. زكريا بن إبراهيم الزميلي، 2009م،ص 36

كلَّ ما كان يملك، وكانت نهايتُه الغرق في البحر. وجميع ما سبق أُستخرِج من قصّة سيدنا موسى ويرجع أساسًا إلى إرادة اللطيف الخبير وقوّته.

5-اليهود في السياق القرآني:

ارتأينا قبل الحديث عن كلمة اليهود في السياق القرآني أن نعرف رأي الإمام الأصفهاني في هذا المصطلح، فقد قال في معجم مفردات ألفاظ القرآن: « الهود الرجوع برفق ومنه التهويد وهو مشي كالدبيب وصار الهود في التعارف التوبة، قال تعالى:﴿ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ﴾[1] أي تبنا، قال بعضهم: يهود في الأصل من قولهم هدنا إليك، وكان اسم مدح ثم صار بعد نسخ شريعتهم لازما لهم وإن لم يكن فيه معنى المداح كما أن النصارى في الأصل من قوله:﴿ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾[2]، ثم صار لازما بعد نسخ شريعتهم. ويقال هاد فلان إذا تحرّى طريقة اليهود في الدّين، قال الله عز وجل:﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ ﴾[3]، والاسم العلم قد يتصور منه معنى ما يتعاطاه المسمّى به أي المنسوب إليه ثم يشتق منه نحو قولهم تفرعن فلان وتطفل إذا فعل فعل فرعون في الجور، وفعل طفيل في إتيان الدعوات من غير استدعاء، وتهود في مشيه إذا مشى مشيا رفيقا تشبيها باليهود في حركتهم عند القراءة، وكذا هوّد الرّائض الدابة سيرها برفق، وهود في الأصل جمع هائد أي تائب وهو اسم نبي عليه السلام»[4].

---

[1] سورة الأعراف، الآية 156

[2] -سورة آل عمران، الآية 52

[3] -سورة البقرة، الآية 62

[4] - معجم مفردات ألفاظ القرآن الراغب الأصفهاني، تحقيق يوسف الشيخ محمد البقاعي، ط1، دار الفكر، بيروت،2006م، ص 395

لقد وردت كلمة "يهود" في القرآن ثماني مرات وكان ورودها في السور المدنية: وهي البقرة، آل عمران، المائدة، التوبة.

ففي سورة البقرة وردت في الآيتين 113،120.

قال تعالى:﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ لَيۡسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيۡسَتِ ٱلۡيَهُودُ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَهُمۡ يَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ مِثۡلَ قَوۡلِهِمۡۚ فَٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ١١٣﴾[1]. لقد نزلت هذه الآية الكريمة «في يهود أهل المدينة ونصارى أهل نجران وذلك أن وفد نجران لما قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم، أتاهم أحبار اليهود فتناظروا حتى ارتفعت أصواتهم، فقالت اليهود: ما أنتم على شيء من الدين وكفروا بعيسى والإنجيل؛ وقالت النصارى: ما أنتم على شيء من الدين، وكفروا بموسى والتوراة، فأنزل الله تعالى هذه الآية الكريمة »[2].وقال الشعراوي في قوله تعالى هذا: « أن الحق جلا وعلا بعد أن بيّن لنا موقف اليهود والنصارى والمشركين من بعضهم بعضا ومن الإسلام، وكيف هذه الطوائف الثلاث تواجه الإسلام بعداء ويواجه بعضها بعضا باتهامات، فكل طائفة منها تتهم الأخرى أنها على باطل فالحكم بينهم يتم يوم القيامة وعلى مشهد من خلق الله جميعا »[3].

أما في زهرة التفاسير فقد فسر صاحبها هذه الآية الكريمة كالتالي:" لقد زعم اليهود أنه لن يدخل الجنة إلا من كان يهوديا، وزعم النصارى أن لن يدخل الجنة إلا من كان نصرانيا، وهم بذلك

[1] –سورة البقرة، الآية 113

[2] –أسباب النزول، لأحمد الواحدي، ص 38

[3] – خواطر الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، مج 1،ص 52

قد جمعهم الغرور، والأماني الكاذبة، لأن الاعتقادات الباطلة يجمع أهلها الأماني الكاذبة، او يستحسنون أعمالهم ويحسبون أنهم يحسنون صنعا، وأوهامهم تسيطر عليهم وتتردى بهم في مهاوي الضلال. كما بيّن سبحانه وتعالى ما يفرقهم هو التناكر أو التكذيب والتضليل، فاليهود يقولون ليست النصارى على شيء والنصارى يقولون ليست اليهود على شيء، ومعنى على شيء، على شيء من العلم ولا من الحق ولا من الهداية، والتنكير لبيان عموم نفي الخير والأشياء الحسنة الطيبة التي ترفع صاحبها إلى مقام عال من الإنسانية الكاملة. كما ذكرهم الحق سبحانه وتعالى بأنهم أصحاب كتب سماوية وأنهم يعلمون الحق ولكنهم حرفوا وبدلوا حسب أهوائهم، فالهوى يفرق والحق يجمع والهوى يضل وبهذا اشتركوا مع المشركين في أقوالهم، وحكمهم جميعا يعود إلى الله يوم القيامة "[1].

أمّا قوله تعالى:﴿وَلَن تَرۡضَىٰ عَنكَ ٱلۡيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمۡۗ قُلۡ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلۡهُدَىٰۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم بَعۡدَ ٱلَّذِي جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ ١٢٠﴾[2].

قال الشعراوي مفسرا هذه الآية: « كان اليهود يدخلون على الرسول صلى الله عليه وسلم مدخل لؤم وكيد فيقولون هادنا، أي قل لنا ما في كتابنا حتى ننظر إذا كنا نتبعك أم لا يريد الله تبارك وتعالى أن يقطع على اليهود سبيل الكيد والمكر برسول الله صلى الله عليه وسلم. بأنه لا يهود ولا نصارى سيتبعون ملتك. وإنما هم يريدون أن تتبع أنت ملتهم. أنت تريد أن يكونوا معك وهم

[1] – ينظر، زهرة التفاسير أبو زهرة، ص 368

[2] –سورة البقرة، الآية 120

يطمعون أن تكون معهم. فقال الله سبحانه وتعالى:﴿وَلَن تَرۡضَىٰ عَنكَ ٱلۡيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمۡۗ ﴾.

نلاحظ هنا تكرار النفي وذلك حتى نفهم أن رضا اليهود غير رضا النصارى ولو قال تبارك وتعالى:﴿وَلَن تَرۡضَىٰ عَنكَ ٱلۡيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ ﴾ بدون لا لكان معنى ذلك أنهم مجتمعون على رضا واحد أو متفقون. ولكنهم مختلفون بدليل أن الله تعالى قال:﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ لَيۡسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيۡسَتِ ٱلۡيَهُودُ عَلَىٰ شَيۡءٖ ﴾. فالحق سبحانه وتعالى يبين لنا أنه لو صادفت رضا اليهود فلن ترضى عنك النصارى. وإن صادفت رضا النصارى فلن ترضى عنك اليهود. فاليهود حرفوا في ملتهم والنصارى حرفوا فيها. والرسول الله صلى الله عليه وسلم معه هدى الله. والهدى هو ما يوصلك إلى الغاية من أقصر الطريق. وقوله تعالى:﴿ وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم ﴾ إشارة من الله تعالى إلى أن ملة اليهود وملة النصارى أهواء بشرية والأهواء جمع هوى. والهوى ما تريده النفس باطلا بعيدا عن الحق، فالله سبحانه وتعالى يقول لرسوله لو اتبعت الطريق المعوج المليء بالشهوات بغير حق. سواء كان طريق اليهود أو طريق النصارى بعد ما جاءك من الله من الهدى فليس لك من الله من ولي يتولى أمرك ويحفظك ولا نصير ينصرك فالله حين يوجه هذا الخطاب لمحمد عليه الصلاة والسلام فالمراد به أمة رسول الله صلى الله

عليه وسلم أتباع رسول الله الذين سيأتون من بعده وهم الذين يمكن أن تميل قلوبهم إلى اليهود والنصارى، أما الرسول فقد عصمه الله من أن يتبعهم ».[1]

كما شرح أبو زهرة قول الحق سبحانه وتعالى هذا: " بأن الذين يثيرون القول في الآيات البينات وخاصة معجزة القرآن هم أهل الكتاب من اليهود والنصارى الذين غلقت دون الهداية قلوبهم، وتعصبوا لأوهام باطلة سيطرت على نفوسهم، فقد واجهت الرسالة المحمدية نفوسا مملوءة بالضلال والهوى والانحراف عن الجادة المستقيمة، ولكي يدخل الحق إليها لا بد من تفريغ ما فيها من ظلال وفساد، وهداية النفس الخالية من المنكر أقرب من النفس الممتلئة بالباطل. فملة اليهود، ومثلها ملة النصارى أوهام أوجدتها شهوات حبيسة، فملة اليهود أهواء وملة النصارى أوهام وأهواء وكلهم ضلال في ضلال"[2].

أما كلمة اليهود في قوله تعالى في سورة آل عمران:﴿مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٦٧﴾[3]،

جاءت لتنفي وصف نبي الله إبراهيم عليه السلام بأن يكون يهوديا أو نصرانيا، فقد نزهه الحق سبحانه وتعالى أن يتصف بما عليه اليهود والنصارى من ضلال. فارتأينا أن نذكر تفسير سيد قطب لهذه الآية الكريمة لما حملت من حقائق فقال:« ظاهر من نصها أنها نزلت ردا على ادعاءات لأهل الكتاب، وحجاج مع النبي صلى الله عليه وسلم أو مع بعضهم البعض في حضرة رسول الله صلى الله عليه وسلم والهدف من هذه الادعاءات هو احتكار عهد الله مع إبراهيم عليه السلام وأن يجعل في بيته النبوة؛ واحتكار الهداية والفضل كذلك. ثم وهذا هو الأهم تكذيب دعوى النبي صلى الله عليه

[1] –خواطر الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، مج 1،ص 563

[2] –ينظر زهرة التفاسير، أبو زهرة،ص 387

2– سورة آل عمران، الآية 67

وسلم أنه على دين إبراهيم عليه السلام، وأن المسلمين هم ورثة الحنفية الأولى؛ وتشكيك المسلمين في هذه الحقيقة، أو بث الريبة في نفوس بعضهم على الأقل... ومن ثم يندد بهذا التنديد، ويكشف مراءهم الذي لا يستند إلى دليل، فإبراهيم سابق على التوراة وعلى الإنجيل. فكيف إذن يكون يهوديا؟ أو كيف يكون إذن نصرانيا؟ إنها دعوى مخالف للعقل، تبدو مخالفتها بمجرد النظرة الأولى إلى التاريخ. كما تضمنت هذه الآية عدة حقائق أخرى وهي:

أولا: أن اليهود والنصارى الذين انتهى أمرهم إلى تلك المعتقدات المنحرفة مشركون ومن ثم لا يمكن أن يكون إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا، ولكن حنيفا مسلما.

ثانيا: يشير إلى أن الإسلام شيء والشرك شيء آخر.

ثالثا: إلى إبطال دعوى المشركين من قريش أنهم على دين إبراهيم، فهو حنيف مسلم وهم مشركون»[1].

في حين فسرها أبو زهرة كالآتي: « لقد ذكر الله سبحانه وتعالى في الآية السابقة ما يشير إلى أن كلتا الطائفتين من اليهود والنصارى كانت تدعي أن دينها هو دين الله الخالص، وأنه دين النبيين جميعا، وأنه دين أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام، وأنهم ما غيروا وما بدلوا؛ وكذلك كان يدعي المشركون؛ لأنهم من سلالة إبراهيم عليه السلام، وحسبوا هذا يسوغ لهم ذلك الادعاء؛ وقد بين الله سبحانه وتعالى في هذه الآية أن إبراهيم عليه السلام بريء من هذه النحل؛ ؟لأنه نبي الوحدانية، هادم الأوثان، وحاطمها، فهو الذي تعرض للأذى بالنار لجرأته الكبرى عليها وعلى عبّادها، وما نجاه إلاّ الله ، مصداقا لقوله تعالى:﴿قُلۡنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ٦٩﴾[2].

إن هذا النص القرآني الكريم نفي وصف اليهودية والنصرانية عن خليل الله تعالى، وتوكيد براءته منهم،

[1] في ظلال القرآن، سيد قطب، مج 1، ص 412

[2] –سورة الأنبياء، الآية 69

وتثبيت لهذه النزاهة. كما ذكر سبحانه وتعالى على سبيل الاستدراك وصفه الحقيقي، ودينه الحق فقال تعالى:﴿ وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾[1].[2]

أما في سورة المائدة فقد تكررت كلمة اليهود أربع مرات فجاءت في الآية 18 لتكشف عن انحراف هذه الفئة من الناس عن العقيدة الصحيحة إذ يقول عز من قائل:﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ ﴾[3].

وقد شرح سيد قطب هذه الآية الكريمة بـ:« فزعموا لله سبحانه أبوة، على تصور من التصورات، إلا تكن أبوة الجسد فهي أبوة الروح. وهي أيا كانت تلقي ظلا على عقيدة التوحيد؛ وعلى الفصل الحاسم بين الألوهية والعبودية. فالمسألة ليست مسألة انحراف عقيدي فحسب، إنما هي كذلك فساد الحياة كلها بناء على هذا الانحراف.

واليهود والنصارى بادعائهم أنهم أبناء الله وأحباؤه، كانوا يقولون- تبعا لهذا- إن الله لن يعذبهم بذنوبهم! وإنهم لن يدخلوا النار – إذا دخلوا – إلا أياما معدودات، ومعنى هذا أن عدل الله لا يجري مجراه! وأنه سبحانه وتعالى يحابي فريقا من عباده، فيدعهم يفسدون في الأرض ثم لا يعذبهم

[1] – سورة آل عمران، الآية 67

[2] –زهرة التفاسير، أبو زهرة،ص 1264

[3] –سورة المائدة، الآية 18

عذاب المفسدين الآخرين! فأي فساد في الحياة يمكن أن ينشأ عن مثل هذا التصور؟ وأي اضطراب في الحياة يمكن أن ينشئه مثل هذا الانحراف؟

وهنا يضرب الإسلام ضربته الحاسمة على هذا الفساد في التصور، وكل ما ينشئه الفساد في الحياة، ويقرر عدل الله الذي لا يحابي كما يقرر بطلان ذلك الادعاء:﴿ قُلۡ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُمۖ بَلۡ أَنتُم بَشَرٞ مِّمَّنۡ خَلَقَۚ يَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ بذلك يقرر الحقيقة الحاسمة في عقيدة الإيمان. يقرر بطلان ادعاء البنوة؛ فهم بشر ممن خلق. ويقرر عدل الله قيام المغفرة والعذاب عنده على أصلها الواحد. على مشيئته التي تقرر الغفران بأسبابه وتقرر العذاب بأسبابه. لا بسبب بنوة أو صلة شخصية!»[1].

وفي الآية 51 من سورة المائدة وردت كلمة اليهود مقرونة مع كلمة النصارى ليبين لنا الحق عز وجل حقيقة العلاقة بين هاتين الفئتين ويحذر وينهى الجماعة المسلمة أن تتخذ كلتا الفئتين وليتين لها، ومن يتخذهما وليتان فقد انضم إلى زمرة القوم الظالمين فقد قال الحق تعالى:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٥١ ﴾[2].

وقد فسر الشعراوي قول الحق كالتالي: « نلحظ أن الخطاب هنا للذين آمنوا. والمنهي عنه هو اتخاذ اليهود والنصارى أولياء فهو حكم تكليفي، فالذين آمنوا أصحاب مهمة وهي أن يخرجوا الضلالات من البشر، هذه الضلالات تمثلت في تحريف ديانات كانت أصلها الهدى فصارت إلى

[1] – في ظلال القرآن، سيد قطب، مج 2، ص 866

[2] – سورة المائدة، الآية 51

ضلال، فينهانا الحق أن نضع أيدينا في أيديهم لطلب المعونة أو النصرة، لأن المعونة والنصرة يجب أن تكون مِنْ مَنْ يتحد معك في الغاية العليا»[1]. وزاد سيد قطب إيضاحا في قول الحق "بعضهم أولياء بعض" فقال:« إنها حقيقة لا علاقة لها بالزمن. لأنها حقيقة نابعة من طبيعة الأشياء. إنهم لن يكونوا أولياء للجماعة المسلمة في أي أرض ولا في أي تاريخ ولم تختل هذه القاعدة مرة واحدة؛ ولم يقع في هذه الأرض إلا ما قرره القرآن الكريم، في صيغة الوصف الدائم، لا الحادث المفرد. واختيار الجملة الاسمية على هذا النحو إنما هي اختيار مقصود للدلالة على الوصف الدائم الأصيل!»[2].

ووردت كلمة اليهود في الآية64 من سورة المائدة إذ قال تعالى:﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۚ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ۚ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾﴾[3].

لقد بين الحق سبحانه وتعالى في هذه الآية الكريمة إحدى الصفات التي اتصفوا بها ولا يزالون يتصفون بها وهي صفة البخل. وفسر سيد قطب قول الحق كما يلي:" لقد بين الحق نموذج من قولهم

[1] –خواطر الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، مج 5، ص 3201

[2] –في ظلال القرآن، سيد قطب، مج 2، ص 911

[3] –سورة المائدة، الآية 64

الإثم في أبشع صوره، إذ يحكي القرآن الكريم قول اليهود الغبي اللئيم إذ قالوا: إن الله فقير ونحن أغنياء عندما سئلوا النفقة !وقالوا يد الله مغلولة، يعللون بذلك بخلهم، فالله -بزعمهم- لا يعطي الناس ولا يعطي إلا القليل، فكيف ينفقون؟ وقد بلغ من غلظ حسهم، وجلافة قلوبهم، ألا يعبروا عن المعنى الفاسد الكاذب الذي أرادوه وهو البخل بلفظه المباشر؛ فاختاروا لفظا أشد وقاحة وتهجما وكفرا فقالوا: "يد الله مغلولة!"

ويجيء الرد عليهم بإحقاق هذه الصفة عليهم، ولعنهم وطردهم من رحمة الله جزاء على قولهم " غلت أيديهم بما قالوا " وكذلك كانوا، فهم أبخل خلق الله. ثم يصحح هذا التصور الفاسد السقيم؛ ويصف الله سبحانه بوصفه الكريم، وهو يفيض على عباده من فضله بلا حساب " بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء "

كما يخبر الحق عز وجل سيد الخلق محمد صلى الله عليه وسلم عما سيكون من القوم أي اليهود وعما سيحل بهم، وهذا بسبب حقدهم وغيظهم من اصطفاء الله له بالرسالة؛ وبسبب ما تكشفه هذه الرسالة من أمرهم في القديم والحديث "وليزيدن كثيرا منهم ما أنزل إليك من ربك طغيانا وكفرا".

فبسبب من الحقد والحسد، وبسبب افتضاح أمرهم فيما أنزل الله إلى رسوله، سيزيد الكثيرون منهم طغيانا وكفرا، وبرفضهم الإيمان ازدادوا تبجحا ونكرا فيما بينهم؛ ومن إبطال كيدهم وهو في أشد سعيره تلهبا، ومن عودتهم بالخيبة فيما يشنونه من حرب على الجماعة المسلمة"[1].

ثم يأتي قول الحق سبحانه وتعالى:﴿ ۞ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقۡرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ

[1] - ينظر، في ظلال القرآن، سيد قطب، مج 2، ص 911-929

ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنۡهُمۡ قِسِّيسِينَ وَرُهۡبَانٗا وَأَنَّهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾[1]، ليؤكد شدة العداوة والبغضاء التي يحملها اليهود في صدورهم تجاه المسلمين وبخاصة سيد الخلق محمد صلى الله عليه وسلم

فقد فسرها سيد قطب على النحو التالي:« إن صيغة العبارة تحتمل أن تكون خطابا للرسول صلى الله عليه وسلم وأن تكون خطابا عاما خرج مخرج العموم، لأنه يتضمن أمرا ظاهرا مكشوفا يجده كل إنسان. وهي صيغة لها نظائرها في الأسلوب العربي الذي نزل به القرآن الكريم...وهي في كلتا الحالتين تفيد معناها الظاهر الذي تؤديه.

فإذا تقرر هذا فإن الأمر الذي يلفت النظر في صياغة العبارة هو تقديم اليهود على الذين أشركوا في صدد أنهم أشد الناس عداوة للذين آمنوا؛ وأن شدة عداوتهم ظاهرة مكشوفة وأمر مقرر يراه كل من يرى، ويجده كل من يتأمل. فالعطف بالواو في التعبير العربي يفيد الجمع بين الأمرين ولا يفيد تعقيبا ولا ترتيبا. ولكن تقديم اليهود هنا يجعل له شأنا خاصا غير مألوف من العطف بالواو في التعبير العربي! إنه على الأقل يوجه النظر إلى كونهم أهل كتاب لم يغير من الحقيقة الواقعة، وهي أنهم كالذين أشركوا أشد عداوة للذين آمنوا! ونقول أن هذا على الأقل ولا ينفي هذا احتمال أن يكون المقصود هو تقديمهم في شدة العداء على الذين أشركوا. فإذا راجعنا الواقع التاريخي، ندرك طرفا من حكمة الله في تقديم اليهود على الذين أشركوا، فاليهود هم تلك الجبلة الشريرة، التي ينغل الحقد في صدورهم على الإسلام وعلى نبي الإسلام فيحذر الله نبيه وأهل دينه منهم »[2].

[1] –سورة المائدة، الآية 82

[2] في ظلال القرآن، سيد قطب، مج 2، ص 962

وأخيرا تأتي كلمة اليهود في سورة التوبة في قوله تعالى:﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ عُزَيۡرٌ ٱبۡنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ ٱللَّهِۖ ذَٰلِكَ قَوۡلُهُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبۡلُۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۚ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ٣٠﴾[1]، التي تقرر حقيقة معتقدات اليهود والنصارى الفاسدة والتي لا تتفق مع مبادئ الإيمان الحق.

وفسرها الشعراوي كالتالي:« إن هذا الادعاء فيه مساس بجلال الله تعالى، فالإنسان يتخذ ولدا لعدة أسباب؛ إما لأنه يريد أن يبقى ذكره في الدنيا بعد أن يرحل، والله سبحانه دائم الوجود؛ وإما لكي يعينه ابنه عندما يكبر ويضعف، والله سبحانه وتعالى دائم القوة؛ وإما ليرث ماله وما يملك، والله تبارك وتعالى يرث الأرض ومن عليها. وإما ليكون عزوة له، والله جل جلاله عزيزا دائما. وهكذا تنتفي كل الأسباب التي يمكن أن تؤدي إلى هذا الادعاء. ولا يعقل أن يرسل الله سبحانه رسولا ليبين للناس منهج الحق فإذا به يقول للناس، إنه ابن الله. إذن فهم لم يؤمنوا الإيمان الكامل بالله.

وهكذا نجد أنهم لم ينزهوا الله وأخلوا بالإيمان الحق. ولابد أن نعلم أن من قالوا: إن عزير ابن الله ليسوا هم كل اليهود، بل جماعة منهم فقط هي التي جعلت عزيرا ابنا لله لما رأى أفرادها على يديه نعمة أفاءها الله تعالى عليه، فقالوا: هذه نعمة عظيمة لا يمكن أن يعطيها ربنا لشخص عادي، بل أعطاها لابنه.

ذلك أن اليهود بعد سيدنا موسى –عليه السلام–قتلوا الأنبياء، وعاقبهم الله بأن رفع التوراة من صدور الحافظين لها، ولكن طفلا لم يعجبه مشهد قتل الأنبياء فخرج شاردا في الصحراء مهاجرا وهاربا، فقابله شخص في الطريق فسأله: لماذا أنت شارد؟ فقال: خرجت أطلب العلم. وكان هذا الشخص هو جبريل– عليه السلام –، فعلمه أن لله توراة، فحفظها فصار واحدا من أربعة، هم فقط

[1] –سورة التوبة، الآية 30

من حفظوا التوراة: موسى وعيسى وعزير واليسع. وحين رجع عزير حافظا للتوراة، اندهش قومه وقالوا: لابد أنه ابن الله أعطاه التوراة وآثره على قومه جميعا. ونشأت جماعة من اليهود تؤمن بذلك، وكان منهم سلام بن مشكم، وشاس بن قيس، ومالك ابن الصيف، ونعمان بن أوفى. وحينما أنزل الله قوله" وقالت اليهود عزير ابن الله" لم ينكر اليهود المعاصرون لهذا النزول تلك المسألة ولم يكذبوها، فكأن هناك من اليهود الذين كانوا بالمدينة من كان يؤمن بذلك، وإلا لاعترضوا على هذا القول، وهذا دليل على أن ما جاء في الآية يصدق على بعضهم أوهم عالمون بأن قوما منهم قد قالوا ذلك، وكذلك قالت النصارى عن عيسى عليه السلام فجاء قول الحق تبارك وتعالى "وقالت النصارى المسيح ابن الله"»[1]

لقد استخدم الحق سبحانه وتعالى كلمة اليهود في السور المدنية، لوجودهم في المدينة، إذ بيّن الحق سبحانه وتعالى في هذه السور بعض أقوالهم وأفعالهم التي اتصفوا بها ولا زالت ملازمة لهم إلى يومنا هذا، فقد جاءت هذه الكلمة في سياق الذم، وبيان مزاعمهم الكافرة وجرأتهم على الله، ودحض ادعاءاتهم وافتراءاتهم فكلمة "اليهود" في القرآن تدل على الكفر والذم.

6- الفرق بين مصطلحي بني إسرائيل واليهود في القرآن

يظهر لنا مما سلف جمعه من الآيات القرآنية الكريمة واستقرائها، لما استعمل الله عز وجل مصطلحي بني إسرائيل واليهود في القرآن الكريم.

لقد ورد مصطلح بني إسرائيل في القرآن الكريم 41 مرة، فالسور المكية التي ورد فيها هي الأعراف، يونس، الإسراء، طه، الشعراء، النمل، السجدة، غافر، الزخرف، الدخان، الجاثية، الأحقاف، وهذا لـ 25 مرة، وفي السور المدنية 16 مرة، وهي البقرة، وآل عمران، والمائدة، والصف.

[1] -خواطر الشعراوي، محمد متولي شعراوي، مج 8، ص5032

فالمتفحص في ما ورد فيهم في القرآن المكي يجد أن أغلب الآيات التي جاء فيها مصطلح بني إسرائيل كانت في صدد قصصهم السابقة للبعثة النبوية من لدن وجودهم في مصر وبعثة موسى عليه السلام وبعدها. ومنه ما فيه إشارة صريحة إلى موقف بعضهم من الدعوة النبوية في عهدها المكي كما أن منه ما فيه إشارة مطلقة يدخلون في نطاقها في سياق ذكر الكتابيين ومواقفهم من الدعوة المذكورة. وما ورد في صدد قصصهم السابقة في القرآن المكي خلا إجمالا من العنف ولكن بعضه احتوى تنديدا ببعض ما كان لهم من مواقف تمرد وتعجيز وقفوها من موسى عليه السلام وببعض ما كان لهم من مواقف غير مستحبة بعد موسى عليه السلام، وفي بعض الآيات المكية إشارة إلى إيمان بعضهم وشهادتهم بصدق الرسالة المحمدية وصدق الوحي القرآني[1].

ولقد وضح مصطفى مسلم دقة منهج الخطاب القرآني في استعمال مصطلح بني إسرائيل في المراحل الأولى من الدعوة النبوية إذ قال: « لقد جاء ذكر بني إسرائيل كنماذج بشرية تعرضت للفتنة والاضطهاد، فمنهم من انحرف وسقط في هذا الابتلاء ومنهم من صمد ونجح في الابتلاء، فقد كان لقصص بني إسرائيل في هذه المرحلة المكية المتقدمة آثار بعيدة الدلالة في تكوين الشخصية الإسلامية المتميزة، إذ لا شيء أشد أثرا في تربية النفوس كالعظات المأخوذة من سير السابقين »[2].

كما توصل الكثير من الباحثين إلى نتائج مهمة في حكمة الله عز وجل في التفريق بين المصطلحين ومن أهم النقاط التي أدركوها هي كالآتي:

أولا: بنو إسرائيل:

1- إنهم قوم أو شعب من سلالة نبي الله يعقوب عليه السلام، تسموا بهذا الاسم إبان مقامهم في مصر بعد أن أذن لهم سيدنا يوسف عليه السلام من الدخول، كما كان يطلق عليهم هذا الاسم في عهد سيدنا موسى عليه السلام واستمر بعد ذلك قرونا.

[1]- ينظر، اليهود في القرآن، محمد عزة دروزة، ص 3-4

[2]- معالم قرآنية في الصراع مع اليهود أ.د. مصطفى مسلم، دار القلم، دمشق، ط 2، 1999م، ص 36

2- خاطبهم الله تعالى بهذا الاسم، كما كانت الرسل عليهم السلام يخاطبونهم بهذا الاسم، سواء كان خطاب ذم أو مدح.

3- تذكيرهم بالنعم التي أنعم الله عليهم، وكذلك تذكيرهم بالمرحلة التي استضعفوا فيها والتي وصفها الحق سبحانه وتعالى بالبلاء العظيم.

4- جاء هذا المصطلح حين كلفهم الحق سبحانه وتعالى بمجموعة من الفرائض الإلهية، وتحذيرهم من عدم الالتزام بها

5- كما ورد هذا المصطلح حين أخذ الله عز وجل منهم العهود والمواثيق.

6- استعمل الخطاب القرآني هذا المصطلح حين ذكر تشريع القصاص

أما في العهد المدني فقد ورد هذا المصطلح على الذين أسلموا منهم واتبعوا الحق أوكل من كان له علم منهم بمبعثه وصفاته صلى الله عليه وسلم.

كما استعمل هذا المصطلح حين ذكرهم بسالف النعم التي خص بها آبائهم وأسلافهم، وتفضيلهم بإرسال الرسل منهم، وإنزال الكتب عليهم، وتفضيلهم على سائر الأمم من أهل زمانهم، وذلك ليحثهم على الدخول في الإسلام، واتباع الرسول صلى الله عليه وسلم الذي وجدوه مكتوب عندهم في التوراة [1].

لقد خصهم عز وجل عن سائر الأمم الأخرى وفضلهم عليهم ولكن هذا الاصطفاء والاختيار كان مقيدا بشرط الإيمان وفي فترة معينة فهذا التفضيل لا يكون إلا بعد تحقق الإيمان الخالص والصادق، إلا أن الله تعالى نفى عنهم هذه الصفة حينما جحدوا نعم الله وكفروا بما أنزل الله، وقتلوا الأنبياء بغير حق.

[1]- ينظر، بنو إسرائيل واليهود الذين هادوا (دراسة تحليلية)، أحمد علوان حقي ، **ص**

فمصطلح بنو إسرائيل ضم معظم حياتهم لتعدد الموضوعات التي ورد في سياقها سواء التذكير بنعم الله، أو ذكر صفاتهم الإيمانية، مرورا بمرحلة التكاليف الشرعية وصولا إلى العقوبات التي تعرضوا لها[1].

ثانيا: اليهود

أما مصطلح اليهود في الخطاب القرآني فقد جاء في الأحوال التالية:

لقد ورد هذا المصطلح في آيات قليلة إذا ما قيست بالآيات التي ورد فيها مصطلح بني إسرائيل، فقد جاءت هذه التسمية حين خرجوا من دائرة الإيمان، ودخولهم في مرحلة الكفر واللعنة والطرد من رحمة الله.

فقد جاء هذا المصطلح في الخطاب القرآني عند بيان افتراءاتهم على الله بغير حق؛ كزعمهم أنهم أبناء الله وأحباؤه، وحين بيان أباطيلهم، أنه لا يدخل الجنة إلا من كان يهوديا.

كما استعمل هذا المصطلح حين تطاولهم على الحق سبحانه وتعالى ووصفهم له بالبخل.

ورد هذا المصطلح أيضا حين نفى الحق سبحانه وتعالى أن يكون إبراهيم عليه السلام وأبناؤه من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام من اليهود أو يدينون باليهودية.

جاء هذا المصطلح في معرض بيان التحذير من موالاتهم واتخاذهم أولياء لما يخفون في صدورهم من عداوة عميقة الجذور للجماعة المؤمنة.

لم يرد هذا المصطلح في الخطاب القرآني في عهد موسى عليه السلام ومن بعده من أنبياء بني إسرائيل عليهم السلام، في حين أشار الخطاب القرآني إلى هذا المصطلح في فترة عزير وذلك ما بينه سبحانه وتعالى في سورة التوبة آ 30 ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ عُزَيۡرٌ ٱبۡنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ ٱللَّهِۖ ذَٰلِكَ قَوۡلُهُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ

[1] -ينظر، منهج القرآن الكريم في التعامل مع جرائم اليهود(دراسة تطبيقية بين الماضي والحاضر) رمضان بن يوسف عبد الهادي الصيفي، ص34

مِن قَبۡلُۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۚ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾، وجاءت هذه الفترة بعد السبي البابلي، فهي لم تكن كائنة في عهد سليمان عليه السلام، وهذا ما وضحه الحق سبحانه وتعالى حين قص علينا قصة ملكة سبأ مع سيدنا سليمان عليه السلام فقد طلب منها أن تدخل الإسلام، ولم يطلب منها أن تدخل في دين اليهودية، ولو كان هذا المصطلح مستعملا لأطلق على شريعة التوراة ولطلب منها ذلك، فقد جاء الخطاب واضحا كما بينه الحق سبحانه وتعالى في سورة النمل آ 30-31 ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيۡمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعۡلُواْ عَلَيَّ وَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ ﴿٣١﴾ ﴾[1].

لقد ورد مصطلح اليهود ثمانية مرات في الخطاب القرآني كلها جاءت في سياق واحد هو ذم اليهود وكشف مزاعمهم وافتراءاتهم، وإظهار تحريفاتهم للعقيدة والدين والتاريخ، وبيان شدة عداوتهم وكرههم وحسدهم للعصبة المؤمنة.

وعلى ضوء ما سبق وحين ندقق في الخطاب القرآني نرى أن القرآن باعتباره الكتاب الحق، فقد أعطى لكل ذي حق حقه، فقد ذكر سبحانه وتعالى العصبة المؤمنة من بني إسرائيل التي آمنت بالله والتزمت بشريعته رغم ضآلتها وقلتها إذا قورنت بالجماعة الجاحدة التي كشف الخطاب القرآني عن طبيعتها العدوانية وموقفها المعاند والمكابر ضد الإسلام ونبي الإسلام، كما بين الحق سبحانه وتعالى طبيعة الشخصية اليهودية في القرآن وبين الكثير من الصفات الذميمة التي اتصف بها الأجداد والتي توارثها الأحفاد.

[1]- ينظر، بنو إسرائيل واليهود والذين هادوا، أحمد معاذ علوان، ، ص 18

1- نعم الله المتوالية على بني إسرائيل بعد خروجهم من مصر:

لقد توالت نعم الله على بني إسرائيل بعد ما أنجاهم الحق سبحانه وتعالى من عدوهم ورأوا بأعينهم هلاك من كان سببا في شقائهم، أمر الحق سيدنا موسى أن ينقطع لمناجاته أربعين يوما ليعطيه التوراة التي فيها ما هو خير لهم في الدنيا والآخرة، لكن بني إسرائيل اتخذوا في فترة غياب سيدنا موسى عليه السلام عجلا صنعوه بأيديهم ليكون لهم إلها من دون الله، لقوله تعالى:﴿وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٥١﴾﴾[1]، فيبين لنا الحق سبحانه وتعالى في هذه الآية الكريمة صفة قبيحة اتصف بها بعض القوم من بني إسرائيل وهي عدم الوفاء، لأنه كان من الواجب أن يثبتوا في عبادة الواحد الأحد رغم غياب سيدنا موسى عليه السلام لما رأوا من المعجزات والنعم، ثم بعد هذه الإساءة في حق الله عفى عنهم اللطيف لقوله تعالى:﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾﴾[2]

ويقول المفسرون أن العفو يحصل بعد أن يثبت أن هذا الإنسان قد وقع في المعصية عن جهل فمن سعة ورحمة الله أنه يعفو، فالعليم علم أن هؤلاء القوم حديثوا الحرية فقد عاشوا فترة طويلة تحت سيطرة الأقباط، ومما لاشك فيه أنهم تأثروا بمن كانوا أقوى منهم، فقد أراد الحق أن يمتحن إيمانهم بعد خروجهم من أغلال العبودية، ومن بعد ما رأوا العديد من المعجزات. وفي نفس الوقت يذكر الحق سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم سوء أدب هؤلاء القوم مع الله ثم مع سيدنا موسى عليه السلام، فلا يحزن عما يقوم به القرشيين في مكة واليهود في المدينة من معاداة للدين الجديد.

[1]- سورة البقرة، آ 51

[2] - سورة البقرة، آ 52

وبعد نعمة العفو لعبادتهم العجل يذكرهم الحق بنعمة إيتاء نبيهم سيدنا موسى عليه السلام التوراة التي فيها الرشاد في الدنيا والفلاح في الآخرة، وأنها تفرق بين الحق والباطل لقوله تعالى:﴿وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾﴾[1].

ثم يذكرهم الحق وقت أن ناداهم سيدنا موسى بـ "يا قوم" إشارة إلى ما يربطه بهم من أواصر المودة والرحمة والمناصرة، فيكون ذلك سببا في استجابتهم لندائه، فبين لهم الظلم الكبير الذي قاموا به وهو اتخادهم العجل إلها وأن السبيل الوحيد لقبول توبتهم عند بارئهم أن يقتلوا أنفسهم وفي تفسير هذه الآية أقوال كثيرة ومتنوعة للمفسرين، الأهم أن الله عز وجل قبل توبتهم بعد ما بينوا صدق توبتهم لقوله تعالى:﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَـٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾﴾[2]، وفي هذه الآية الكريمة يكرر الحق تذكيره لليهود المعاصرين للنبي صلى الله عليه وسلم نعمة عفو الله عز وجل عن أجدادهم فلو لا عفوه لما وجدوا هم، وفيها كذلك إشارة إلى سماحة الشريعة الإسلامية؛ إذ أن التوبة لم تكن تقبل في دين آبائهم إلا بقتل أنفسهم، فجاءت الرسالة الأخيرة ونسخت ما كان من شرائع عسيرة في الكتب السماوية الأولى وهذا معنى الإصر:﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ

[1]- سورة البقرة، آ 53

[2]-سورة البقرة،آ 54

وَٱعۡفُ عَنَّا وَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَآۚ أَنتَ مَوۡلَىٰنَا فَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾[1] وبذلك رفع عنهم الأغلال التي كانت على أسلافهم، وهذا إغراء لهم ليتبعوا ما جاء به الصادق محمد صلى الله عليه وسلم.

ثم ذكرهم سبحانه بنعمة عظيمة أخرى وهي نعمة بعثهم من بعد موتهم لقوله تعالى:﴿وَإِذۡ قُلۡتُمۡ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهۡرَةً فَأَخَذَتۡكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثۡنَٰكُم مِّنۢ بَعۡدِ مَوۡتِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾[2]، ويقول سيد الطنطاوي في معنى الآيتين الكريمتين:« واذكروا يا بني إسرائيل وقت أن تجاوزتم حدودكم، وتعنتم في الطلب، فقلتم لنبيكم موسى بجفاء وغلظة، لن نؤمن لك، ولن نقر بما جئتنا به، فأخذتكم العقوبة التي صعقتكم –بسبب جهلكم وتطاولكم – وأنتم تشاهدونها بعيونكم ثم مننا عليكم بلطفنا ورحمتنا فأحييناكم من بعد أن أخذتكم الصاعقة، لكي تشكروا الله على نعمه التي من جملتها إعادتكم إلى الحياة من بعد موتكم»[3].

ففي قوله تعالى:﴿وَإِذۡ قُلۡتُمۡ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهۡرَةً فَأَخَذَتۡكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ﴾ يبين لنا الحق من خلال هذه الآية تلك النفس التي لا تؤمن إلا بما هو محسوس، فرغم المعجزات المتعددة لازالت نفوسهم تراودهم الشك، فلهذا طلبوا من

[1]–سورة البقرة، آ 286

[2]– سورة البقرة،آ 55–آ56

[3]– بنو إسرائيل في القرآن والسنة، سيد محمد الطنطاوي، ص 364

نبيهم رؤية الله جهرة، فكانت العقوبة أن أخذتهم الصاعقة[1] وهم ينظرون، ثم من رحمة الله بسيدنا موسى عليه السلام أنه سبحانه قد بعث من صعقوا بمعنى أنه قد أحياهم من بعد موتهم استجابة لدعاء سيدنا موسى عليه السلام، وفي هذا التذكير نوع من التحذير لليهود المعاصرين لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، حتى لا يصابوا بما أصيب أسلافهم عند تمردهم على دين الحق.

ثم عطف سبحانه على نعمة بعثهم من بعد موتهم نعمتين هما تضليلهم بالغمام ومنحهم المن والسلوى، لقوله تعالى:﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۖ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾﴾[2]، وقال فخر الدين الرازي ما ملخصه لهذه الآية:« اعلم أن هذا إنعام آخر الذي ذكره الله تعالى وقد ذكر الله تعالى هذه الآية بهذه الألفاظ في سورة الأعراف، وظاهر هذه الآية يدل على أن هذا الإضلال كان بعد أن بعثهم لأنه تعالى قال(ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون، وظللنا عليكم الغمام) بعضه معطوف على بعض وإن كان لا يمتنع خلاف ذلك لأن الغرض تعريف النعم التي خصهم الله تعالى بها.

قال المفسرون، (وظللنا) وجعلنا الغمام تظلكم، وذلك في التيه سخر الله لهم السحاب يسير بسيرهم يظلهم من الشمس وينزل عليهم المن وهو الترنجبين مثل الثلج من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس لكل إنسان صاع ويبعث الله إليهم السلوى وهي السماني فيذبح الرجل منها ما يكفيه (كلوا) على إرادة القول (وما ظلمونا) يعني فظلموا بأن كفروا هذه النعم أو بأن أخذوا أزيد مما أطلق

[1]–الصاعقة: هي الصوت الشديد من الجو، ثم يكون منه نار فقط أو عذاب أو موت :معجم مفردات ألفاظ القرآن، للعلامة الراغب الأصفهاني، ص 211

[2]–سورة البقرة، آ 57

لهم في أخذه أو بأن سألوا غير ذلك الجنس وما ظلمونا فاختصر الكلام بحذفه لدلالة (وما ظلمونا) عليه »[1]

لقد ذكرت الآية الكريمة اليهود المعاصرين لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم نعمة تظليل أجدادهم بالغمام في فترة التيه، ونعمة منحهم الطعام بدون أي تعب، فكان من الواجب عليهم أن يشكروا الله وأن يؤمنوا برسالة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم.

ثم ذكرهم الحق بنعمة إغاثتهم بالماء في فترة التيه، إذ تضرع سيدنا موسى عليه السلام إلى الله بأن يسقيه وقومه بالماء لكيلا يهلكوا، فأمره الحق سبحانه أن يضرب بعصاه الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا علم كل سبط من الأسباط مشربهم لقوله تعالى:﴿ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾[2]، هذه النعمة كانت نافعة لهم في دينهم ودنياهم، أما دينهم فكانت الدليل القاطع لوجود الله وقدرته وعلى صدق نبوة سيدنا موسى عليه السلام، أما الدنيوية فقد أزالت عنهم العطش الشديد إذ رزقهم سبحانه بالماء دون تعب ومشقة، فكان لكل سبط عينا يشرب منها.

هذه بعض النعم التي حباها الله لبني إسرائيل، فقد كان من واجبهم أن يقابلوها بالشكر غير أنهم قابلوها بالجحود والكفر، أما الخلف فقد ساروا على خطى السلف فجحدوا وكفروا.

أما كاتب التوراة فقد تحدث عن هذه النعم التي أنعمها الله على بني إسرائيل ولكن بطريقته الخاصة.

[1]– مفاتيح الغيب، فخر الدين الرازي، مج 3، ص 93

[2]–سورة البقرة، آ 60

جاء في سفر الخروج1/32-6: ولما رأى الشعب أن موسى أبطأ في النزول من الجبل اجتمعوا على هارون وقالوا له: اصنع لنا آلهة تسير أمامنا، لأن موسى الذي أصعدنا من مصر لا نعلم ما أصابه. فقال لهم هارون: انزعوا أقراط الذهب التي في أذان نسائكم وبنيكم وبناتكم وائتوني. ففعلوا، فأخذ ذلك وصوره بالإزميل عجلا مسبوكا فقالوا: هذه آلهتك يا إسرائيل التي أصعدتك من مصر. فبنى هارون مذبحا أمامه ونادى: غدا عيد الرب. فبكروا في الغد وأصعدوا محرقات، وقدموا ذبائح سلامة، وجلس الشعب للأكل والشرب ثم قاموا للعب. فهذا زعمهم حين عبادتهم العجل.

أما نعمة إطعامهم بالمن والسلوى جاء في سفر الخروج ما يلي 1/16-3: ثم ارتحلوا من إيليم – وفي السامرية: من أيلة –إلى برية سين التي بين إيليم وسيناء، في اليوم الخامس عشر من الشهر الثاني بعد خروجهم من مصر، فتذمروا كلهم على موسى وهارون في البرية وقالوا لهما: ليتنا متنا بيد الرب في مصر فإنكما أخرجتمانا إلى هذا القفر لكي تميتانا بالجوع.

8/16: وقال موسى ذلك بأن الرب يعطيكم في المساء لحما لتأكلوا، وفي الصباح خبزا لتشبعوا لاستماع الرب تذمركم الذي تتذمرون عليه.

16-11/16: فكلم الرب موسى قائلا: سمعت تذمرهم، قل لهم: في العشية تأكلون لحما، وفي الصباح تشبعون خبزا. فكان في الصباح أن السلوى صعدت وغطت المحلة، وفي الصباح كان سقيط الندى حوالي المحلة، ولما ارتفع سقيط الندى إذا على وجه البرية شيء دقيق مثل قشور، دقيق كالجليد على الأرض- فقال لهم موسى: هو الخبز الذي أعطاكم الرب التقطوا منه، كل واحد حسب أكله على عدد نفوسكم، تأخذون كل واحد لخيمته.

21-19/16: وقال لهم موسى لا يبق أحد منه إلى الصباح. لكنهم لم يسمعوا لموسى، بل أبقى منه أناس إلى الصباح، فتولد فيه دود أنتن، فسخط عليهم موسى. وكانوا يلتقطونه صباحا فصباحا، وإذا حميت الشمس كان يذوب من خلال هذه الأسفار التي ادعى كاتبها أنها من وحي السماء نرى فساد طباع ونفوس بني إسرائيل، إذ وصفهم بالخداع والمكر وسوء الأدب.

أما نعمة تفجير الماء من الحجر فقد جاء في سفر الخروج 1/17-7:ثم ارتحلوا من برية سين ونزلوا في رفديم، ولم يكن ماء ليشربوا، فخاصم الشعب موسى وقالوا أعطنا ماء لنشرب. فقال لهم: لماذا تخاصمونني؟ لماذا تجربون الرب؟ وعطش هناك الشعب، وتذمروا على موسى وقالوا: لماذا أصعدتنا من مصر؟ لتميتنا وأولادنا ومواشينا بالعطش؟ فصرخ موسى إلى الرب قائلا: ماذا أفعل بهذا الشعب؟ بعد قليل يرجمونني. فقال الرب: مر من قدامهم، وخذ معك من شيوخ إسرائيل وعصاك التي ضربت بها النهر- فتضرب الصخرة التي في حوريب، فيخرج منها ماء ليشرب الشعب. ففعل موسى هكذا أمام عيون شيوخهم، ودعا اسم الموضع مسّة ومريبة، من أجل المخاصمة وتجربتهم الرب

وجاء في سفر العدد 2/20-5: ولم يكن ماء للجماعة، فاجتمعوا على موسى وهارون وقالوا: ليتنا فنينا فناء إخوتنا أمام الرب، لماذا أتيتما بنا إلى هذه البرية؟ لكي نموت فيها نحن ومواشينا؟ ولماذا أصعدتمانا من مصر؟ لتأتينا بنا إلى هذا المكان الرديء؟ ليس هو مكان زرع وتين وكرم ورمان ولا فيه ماء للشرب.

6/20-13:فأتى موسى وهارون إلى باب خيمة الاجتماع، وسقطا على وجهيهما. وكلم الرب موسى قائلا: خذ العصا واجمع الجماعة أنت وهارون أخوك، وكلِّما الصخرة أمام أعينهم أن تعطي ماءها. فأخذ موسى العصا من أمام الرب وجمع هارون الجمهور أمام الصخرة، وقال لهم: اسمعوا أيها المردة، أمن هذه الصخرة نخرج لكم ماء. ورفع يده وضرب الصخرة بعصاه مرتين، فخرج منها ماء غزير، فشربت الجماعة ومواشيها. فقال الرب لموسى وهارون: من أجل أنكما لم تؤمنا بي حتى تقدساني أمام أعين بني إسرائيل؛ لذلك لا تدخلان هذه الجماعة إلى الأرض التي أعطيتهم إياها. هذا ماء مريبة حيث خاصم بنو إسرائيل الرب، فتقدس فيهم[1].

ومن خلال هذه الروايات نلاحظ سوء أدب بنو إسرائيل مع الله عز وجل أولا ثم مع سيدنا موسى عليه السلام فقابلوا النعم بالجحود.

[1]- مغالطات اليهود وردها من واقع أسفارهم، عبد الوهاب عبد السلام طويلة، ص 180-ص 182

ولنا في الآيات القرآنية كل ما وقع لبني إسرائيل مع سيدنا موسى عليه السلام بعد أن جاوزوا البحر وأنقذهم سبحانه من فرعون وملئه، فقد أفاض الله عليهم بالنعم الكثيرة وأحسن إليهم، غير أنهم لم يراعوا هذه النعم حق رعايتها، ولم يعتبروا برؤية تلك الآيات العظام التي أجراها سبحانه على سيدنا موسى عليه السلام، بل قابلوا كل هذا بالكفر والجحود.

2 –تفضيل اللَّه بني إسرائيل على عالَمِي زمنهم

لقد جاءت في القرآن الكريم عدّة آيات في أكثر من سوره تتحدّث عن تفضيل وأولية بني إسرائيل على العالَمين ومن هذه الآيات على سبيل الْمثال:

1°) قوله تعالى في سورة البقرة وهي مدنية:﴿يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾[1].

2°) في سورة الْمائدة قوله جلّ في علاه :﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَـٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾[2].

3°) في سورة الأعراف قوله سبحانه :﴿قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَـٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾ ﴾[3]

[1]- سورة البقرة آية رقم 47

[2]- سورة المائدة آية رقم 20

[3]- سورة الأعراف آية رقم 140

ذكر العليُ القديرُ على هذه الأسبقية وألحّ عليها في كلٍّ من السورِ الْمكية والْمدنية فالسور الْمكية مثل سورة الأعراف وسورة الدخان وسورة الْجاثية، أنزلَها الْحقُّ سبحانه وتعالى العليمُ بنفوس مَخلوقاته البشرية، مع غيرها، أنزلَها على سيِّد الورى صلى الله عليه وسلم وهو لا يزال في مكّة الْمكرّمة في مسقط رأسه وكان اليهودُ لا يُظهِرون أيّةَ نوع من العداوة لِهذا الدِّين الْجديد فكانت تلك الآياتُ تُذكِّر سيّدنا مُحمّدًا خاصة وصحابته الكرام رضوان الله عليهم عامّة مدى صبرِ سيّدِنا موسى وقومِه من الصالِحين من بني إسرائيل إذ حقّقوا عقيدة التوحيد مُتّبِعين في ذلك رسولَهم الكريم الذي اتّجه بِهم إلى الْخالق اللطيف على هدًى وبصيرةٍ واستقامةٍ فاعتبروا أخا سيّدنا هارون إمامًا لَهم وقدوةً؛ فنتج عن هذا التجريد وعن هذه الْمتابعة الْصادقة ثَمراتٌ حسنة جيّدة ارتفعوا و سَموا بِها إلى الْمعالي فاستحقّوا التمكين في الأرض حيثما حلوا، لِتلك الأسباب الطاهرة العفيفة فضّلهم الْمولى تبارك وتعالى وقال فيهم :﴿وَلَقَدِ ٱخۡتَرۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ عِلۡمٍ﴾ وكذلك قال فيهم ربُّ العرش العظيم مادحًا بني إسرائيل بقوله :﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦﴾[1] لقد رأى الإمامُ محمّد فخر الدين الرازي بَحثيْن في هذه الآية السخية :

البحث الأوّل: أنّ (قوله على عِلمٍ) في موضع الْحال وفيه وجهان أَحَدُهُمَا أي عالَمين بكونِهم مستحقّين لأن يُختاروا ويُرجّحوا على غيرهم والوَجْهُ الثّانِي أن يكون الْمعنى قد يزيغون وتصدر عنهم بعض الفرطات في بعض الأحوال.

[1]- آية 16، سورة الْجاثية.

البحث الثاني: ظاهر القول :﴿وَلَقَدِ ٱخۡتَرۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ عِلۡمٍ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ٣٢﴾ تقتضي كونِهم أفضل من كلّ العالَمين وقيل الْمراد على عالَمِي زمنهم.[1]

لاحظ الإمام الرازي في هذه الآية فسجّل : اعلم أنَّ النعمَ قسمان نعم الدين ونعم الدنيا ونعم الدين أفضل من نعم الدنيا فلِهذا بدأ الله تعالى بذكر نعم الدين فقال :﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦﴾ والأقرب أنّ كلَّ واحد من هذه الثلاثة يَجب أن يكون مغايرًا لصاحبه، أمّا الكتاب فهو التوراة، وأمّا الْحكم ففيه وجوه، ويَجوز أن يكون المراد العِلم والْحكمة، ويَجوز أن يكون الْمراد بفصل الْحكومات، ويَجوز أن يكون المراد معرفة أحكام الله تعالى وهو علم الفقه، أمّا النبوَّةُ فمعلومة، وأمّا نعم الدنيا فهي المراد من قوله تعالى: ﴿ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ وذلك لأنّ الله تعالى وسّع عليهم في الدنيا فأورثهم أموالَ آل فرعون وديارهم ثمّ أنزل عليهم الْمنّ والسلوى، ولَمّا بيّن الله تعالى أنه أعطاهم من نعم الدين ونعم الدنيا نصيبًا وافرًا، قال:﴿وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ يعني أنّهم كانوا أكبر درجة وأرفع منقبة ممّن سواهم في وقتهم، فلهذا الْمعنى قال الْمفسِّرون الْمراد: وفضّلناهم عن عالَمي زمانِهم[2].

ففي تلك الْحقبة الزمنية كانت أمّةُ بني إسرائيل مُخلصةً لله وفيةً في عهدها معه جلّ جلاله فأفضى عليها من فضله ما تسامت بِه على العالَمين.

[1]- تفسير الفخر الرازي المستشهد بالتفسير الكبير و مفاتيح الغيب للإمام محمّد الرازي فخر الدين ابن العلاّمة ضياء الدين عمر – 604/544 هـ –الطبعة الأولى دار الفكر للطباعة والنشر و التوزيع، لبنان، بيروت، مج 27، ص 248

[2]- نفسه، مج 27، ص 265.

بينما الآية الكريمة التي جاءت في سورة الأعراف وردتْ لِتذكِّر سيّدنا محمّد صلى الله عليه وسلم كيف صبر سيدنا موسى عليه السلام مع الْمعاندين العتاة من قومه وبيان موقفه معهم فكان يُنبِّهُهم بنعم الرازق عليهم وخاصّة بتفضيلِهم على عالَمِي زمنهم ليفتح قلوبَهم و يُحرِّك عواطفهم ويحثهم على الإيمان إذ طلبوا من نبيهم أن يَجعل لَهم إلَهًا ماديًّا ملموسًا يعبدونه فكان ردُّه على رغبتهم الباطلة كما قال الْحقُّ تعالى : ﴿قَالَ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡغِيكُمۡ إِلَٰهٗا وَهُوَ فَضَّلَكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾ ﴾[1] .

قال البيضاوي﴿ قَالَ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡغِيكُمۡ إِلَٰهٗا ﴾أ طلب لكم معبودًا غير خالقكم فردّ عليهم تعالى: ﴿وَهُوَ فَضَّلَكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ و الْحال أنه خصّكم بنعم لَم يعطها غيرَكم، وفيه تنبيهٌ على سوء معاملتهم حيث قابلوا تخصيص الله إيّاهم من أمثالِهم لِما لَم يستحقّوه تفضُّلا بِأن قصدوا أن يُشركوا به أخسّ شيءٍ من مَخلوقاته.[2]

أمّا السور الْمدنية التي وردت فيها آيات التفضيل فهي سورة البقرة وسورة الْمائدة، نزلت هذه الآيات في دار الْهجرة إذ بدأت الْجاليات اليهودية تُظهِر عداوتَها لسيّد الْمرسلين وخاتِمهم صلى الله عليه وسلم، وذلك حين أحسّوا أنَّ سلطانَهم لا مَحالةَ زائلٌ فزادتْهم هذه الظاهرة طغيانًا وكفرًا، وقد عرفوا صدق مُحمّد صلى الله عليه وسلم وتأكّدوا من دلائل نبوته وصحّتها غير أنهم كتموا ذلك على عوامهم وكذبوا عليهم فضلّوا وأضلوا.

---

[1]- سورة الأعراف الآية 140.

2 –تفسير البيضاوي المسمّى أنوار التنزيل و أسرار التأويل تأليف القاضي ناصر الدين أبي سعيد عبد الله بن عمر بن محمّد الشرازي البيضاوي، حقّقه محمّد بن صبحي بن حسن حلاق و الدكتور محمود أحمد الأطرش، ط 1، دار الرشيد، دمشق، بيروت،2000م، مج 1،ص 569

ورغم كلّ ذلك خاطبهم الله بذلك الأسلوب الرباني الشيِّق الْمليء بالرحْمة إذ بدأ الْحديثَ معهم بندائهم ونسبهم إلى أبيهم إسرائيل أحبّ الأسماء إليهم فذكّرهم عزّ وجلّ بالنعم التي أنعمها على آبائهم لعلّ ذلك يهزُّ مشاعرهم فينتهزوا الفرصة الْمتاحة ليعودوا إلى موكب الإيمان، وإلى عهد البارئ الْمصوِّر فينالهم ما ينال الْمؤمنون.

إذ قال سبحانه وتعالى في سورة البقرة:﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ٤٧﴾.

وكذلك قال سبحانه وتعالى سورة الْمائدة :﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَعَلَ فِيكُمۡ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكٗا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمۡ يُؤۡتِ أَحَدٗا مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٠﴾[1].

نلاحظ في السور الْمدنية أنّ فيها تكرارَ النداء لتأكيد على واجب الشكر وتذكيرًا لبني إسرائيل الْمعاصرين للرسول صلى الله عليه وسلم بكثرة النعم التي أنعمها الله عزّ وجلّ على آبائهم لعلّ هذا التذكيرَ يؤثِّر في نفوسهم فيطيعون و يسيرون على الطريق الْمستقيم القويم و لعلّهم يُقرّون بِما جاء في التوراة من الأوصاف التفصيلية للنبي صلى الله عليه وسلم والتي لم يصل إليها أي تحريف مصداقا لما جاء في القرآن الكريم لقوله تعالى: ﴿يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۖ﴾[2].

ومِمَّا لا شك فيه أنّ خالقهم فضّلهم على عالَمي زمن حين كانوا ينفردون بالعقيدة الصحيحة بين الأمم الضّالّة، غير أنَّهم لَمَ يُتبعوا هذهِ النعم بالشكر بل كفروا وجَحدوا وكذبوا على الله.

[1]- آية 20، سورة المائدة

[2]- آية 146، سورة البقرة

هناك بعض النصوص التي لازالت موجودةً في أسفارهم والتي تَجعلُ تفضيلهم واختيارهم من بين الأمم والشعوب في زمنهم منوطًا باستقامتهم وصلاحهم مقرونان بالطاعة لا بالنسب فإن خالفوا وغيّروا منهج الله وشريعته غيّر الله أحوالَهم ونزع منهم قيادة الأمم.

جاء في سفر الْخروج 15/ 25-26: هناك وضع – الربُّ-لَه فريضة وحكمًا، وهناك امتحنه فقال إنْ كنت تسمع لصوت الربّ إلَهك، وتصنع الْحقَّ في عينيه، وتصغى إلى وصاياه، وتَحفظ جميعَ فرائضه، فمرضا ما مما وضعته على المصريين لا أضع عليك، فإنّي أنا الربُّ شافيك.

19/5-6: فالآن إن سَمعتم لصوتي وحفظتم عهدي، تكونون لي خاصّة من بين جميع الشعوب فإنّ لي كلّ الأرض، وأنتم تكونون لي مَمْلكةُ كهنةٍ وأُمَّةٌ مقدّسةٌ.

زاد قائلا 11/26-28: انظر، أنا واضع أمامكم اليوم بركةً ولعنةً، البركة إذا سَمعتم لوصايا الربّ إلَهكم التي أنا أُوصيكم بِها اليوم، واللعنة إذا لَم تسْمعوا لوصايا الربّ إلَهكم وزغتم عن الطريق التي أنا أوصيكم بِها اليوم، لتذهبوا وراء آلِهةٍ أُخرى لَم تعرفوها.

وجاء في سفر يشوع 23/ 11-13: فاحتفظوا جدًّا لأنفسكم أن تَحبُّوا الربَّ إلَهكم، ولكن إذا رجعتم ولصقتم ببقية هؤلاء الشعوب، أوْلئك الباقين معكم، وصاهرتُموهم ودخلتم إليهم وهم إليكم، فاعلموا يقينًا أنّ الربّ إلَهكم لا يعود يطرد أوْلئك الشعوب من أمامكم، فيكونوا لكم فخًّا وشركًا وسوطا على جوانبكم وشوكا في أعينكم، حتّى تبيدوا عن تلك الأرض الصالِحة التي أعطاكم إيّاها الربُّ إلَهُكم.

وقد جاء في سفر الْملوك الأوّل 9/ 6-7: إنْ كنتم تنقلبون أنتم أو أبناؤُكم من ورائي ولا تحفظون وصاياي وفرائضي التي جعلتها أمامكم، بل تذهبون وتعبدون آلِهَةً أُخرى وتسجدون لَها، فإنّي أقطع إسرائيل على وجه الأرض التي أعطيتُهم إيّاها، والبيت الذي قدّسْته لا سيما أن فيه من أمامي، ويكون إسرائيل مثلاً وهزأة في جَميع الشعوب.

وجاء في سفر إرميا 3/11-5: فتقول لَهم هكذا قال الربُّ إِلَهُ إِسرائيلَ : ملعون الإنسان الذي لا يسمع كلام هذا العهد الذي أمرتُ بِه آبائكم يوم أخرجتُهم من مصر قائلاً : اسْمعوا صوتي: واعملوا به حسب كلَّ ما آمرُكم به، فتكونوا لِي شعبًا، وأنا أكون لَكم إِلَهًا، لأُقيم الْحلف الذي حلفتُ لآبائكم أن أعطيْهم أرضًا تفيض لبنًا و عسلاً.

وورد في نفس السفر 8/11: فلَم يسمعوا ولَم يَميلوا أُذنَهم، بل سلك كلُّ واحدٍ في عناد قلبه الشرير، فجلبت عليهم كل كلام هذا العهد الذي أمرتُهم أن يصنعوه ولَم يصنعوه. ذلك هو الوعد وذلك هو الشرط، هذا هو التهديد والوعيد لكنّهم لفرط جهلِهم، وقساوة قلوبِهم ركنوا إِلى الوعد وتَمسّكوا بِه وتناسوا الشرط والتهديد فزعموا أنّه عهدٌ أبديٌّ منسحب إِلى يوم القيامة، وأنّهم أبناؤه وأحبّاؤه فحلّ بِهم الوعيد الذي حذرهم الله منه[1].

فالعبرة التي نستخلصها من هذه الآيات والأقوال أنّ اللهَ فضّل بني إسرائيل على غيرهم من الأمم التي سبقتْهم والتي كانت معاصرةً لَهم فنداهم بأحبّ الأسْماء وأشرف الأنساب وذكّرهم بِما أفاض عليهم من النعم فقد بدأ الْحقُّ سبحانه وتعالى بتذكيرهم النعم الدينية إِذ جعل فيهم الأنبياء والرسل وأنزل فيهم الكتبَ جعل فيهم أو منهم ملوكًا؛ وأمّا النعم الدنيوية فنعبر عنها إِجمالاً لا تفصيلاً ومنها إِنقاذهم من فرعون وقومه وفرق البحر وتفجير العيون من الْحجر وإِطعامهم بالْمنّ والسلوى، تضليلُهم بالغمام في الصحراء حين خروجهم من مصرَ فأمرهم ربّ العرش الْعظيم ألاّ ينسوا صنيعه مع أسلافهم فيَحلُّ بِهم ما ألْحق آباءهم من العذاب.

وكانت النعمة الكبرى التي أكرم بِها اللطيفُ الْخبيرُ بني إِسرائيل الْمعاصرين للنبي القرشي الْهاشِمي ظهور هذا الرسول الْخاتم الْمذكور عندهم في التوراة والإِنْجيل غير أنّهم قابلوا هذه النعمة بالتمرّد والعصيان والكفر.

[1]- مغالطات اليهود و ردّها من واقع أسفارهم لعبد الوهّاب عبد السلام طويلة، ط1، 2007، دار القلم، ص 111- ص115

3- فرق البحر:

الآيات الفاصلة بين نهاية عهد فرعون، وبداية عهد بني إسرائيل:

قال تعالى: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَـٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾﴾[1]

قال تعالى:﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَـٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَـٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾﴾[2]

قال تعالى:﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ۙ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَـٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ ۚ وَكُلٌّ كَانُوا۟ ظَـٰلِمِينَ ﴿٥٤﴾﴾[3]

قال تعالى:﴿۞ وَجَـٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾﴾[4].

[1] -سورة البقرة، آ 50

[2] - سورة الأعراف، آ 136

[3] -سورة الأنفال، آ 54

[4] - سورة يونس، آ 90

قال تعالى:﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَـٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَـٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَـٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ ﴾[1].

قال تعالى:﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَـٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾﴾[2].

قال تعالى:﴿۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَـٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَـٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَخْرَجْنَـٰهُم مِّن جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَـٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَـٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا

[1]–سورة الإسراء، آ 102،آ103

[2] –سورة طه، آ 77،78،79

مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجۡمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغۡرَقۡنَا ٱلۡأٓخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾[1].

قال تعالى:﴿فَأَخَذۡنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾[2].

قال تعالى: ﴿فَٱسۡتَخَفَّ قَوۡمَهُۥ فَأَطَاعُوهُۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾[3].

قال تعالى:﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمٞ مُّجۡرِمُونَ ﴿٢٢﴾ فَأَسۡرِ بِعِبَادِي لَيۡلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱتۡرُكِ ٱلۡبَحۡرَ رَهۡوًاۖ إِنَّهُمۡ جُندٞ مُّغۡرَقُونَ ﴿٢٤﴾ كَمۡ تَرَكُواْ مِن جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٖ وَمَقَامٖ كَرِيمٖ ﴿٢٦﴾ وَنَعۡمَةٖ كَانُواْ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَۖ وَأَوۡرَثۡنَٰهَا قَوۡمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَا كَانُواْ مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَقَدۡ نَجَّيۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡمُهِينِ ﴿٣٠﴾ ﴾[4].

[1]- سورة الشعراء، آ 52-67

[2] سورة القصص، آ 40

[3]-سورة الزخرف، آ54، آ55

[4]-سورة الدخان، آ 22-30

إن القرآن فيه قواعد نظرية، وفيه تطبيقات عملية، فقصة موسى عليه السلام من التطبيقات العملية في القرآن الكريم، ومن خلالها يتضح للإنسان المؤمن أنه لا ملجأ ولا منجى من الله إلا إليه، فمن أراد النصرة والتمكين فعليه أن يتمسك بالعروة الوثقى التي لا انفصام لها.

إن نجاة بني إسرائيل بفرق البحر في مواضع كثيرة من سور القرآن، فهي تجعل الإنسان يعيش كل لحظة عاشها سيدنا موسى عليه السلام وقومه مع ذاك الطاغية فرعون وقومه، فتجعلنا نشعر بما شعر به قوم موسى عليه السلام من خوف ومن رعب وهذا من كثرة إسراف فرعون وقومه في تعذيبهم، ثم تنقلنا الآيات الكريمة إلى حالة أخرى وهي حالة الفرح والطمأنينة، فالقرآن الكريم يصور لنا حالتهم النفسية وكذلك حالتهم الدينية فلو لا إيمانهم الصادق ما نجو، وقد سماهم الحق سبحانه وتعالى "بعبادي"، كما يصور لنا الحق حالتهم الاجتماعية في آيات كثيرة من القرآن إذ يتبين لنا جليا إلى أية طبقة كانوا ينتمون إليها فتارة يصفهم سبحانه وتعالى بالمستضعفين فيظهر لنا سبحانه أنهم كانوا من الضعفاء، وتارة أخرى يقص علينا الحق حين طلبوا من سيدنا موسى عليه السلام أن تخرج لهم مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها؛ وهذا النوع من الأطعمة تظهر لنا كيف كانت حالتهم الاجتماعية قبل خروجهم من مصر، فقد استبدلوا ما هو أدنى بما هو خير إذ كان هذا الطلب حين كان سبحانه يرزقهم بالمن والسلوى.

إن آية إنجاء بنو إسرائيل من فرعون وجنوده من النعم العظيمة على بني إسرائيل، فأراد الحق أن يذكر الخلف بهذه المنّة التي منّها سبحانه على أجدادهم وكيف أنجاهم بعد طول عذاب مع فرعون وقومه.

ومن حكمة الله عز وجل أن هذه القصة لم تذكر مرة واحدة وفي سورة واحدة، بل ذكرت في سور كثيرة فما يذكر في مكان يترك في مكان آخر، وفي كل مكان كانت عبرة قائمة بذاتها يذكر لها جزء من القصة، لتخصص كل عبرة وعظة في موضع، فيكون التجدد والتنبيه مستمرين.

ونحن الآن أمام القصة الصادقة قصة موسى وفرعون، فيصور لنا الحق سبحانه كيف وقف الحق أمام الباطل الذي كان يعد أطغى الطغاة، وأخبرنا كيف نجا المظلومين من الظالم وجنوده.

بعد إيمان السحرة برسالة موسى عليه السلام، ازداد غضب فرعون فضاعف عذابه لبني إسرائيل ومنع موسى وقومه الخروج من مصر، وهنا وقف سيدنا موسى عليه السلام داعيا وراجيا من الله سبحانه وتعالى أن ينقذه وقومه من هذا الطاغية، فأوحى الله عز وجل إلى سيدنا موسى أن يخرج مع قومه ليلا، متجهين نحو البحر لقوله تعالى:﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ قَوۡمٞ مُّجۡرِمُونَ ﴿٣٣﴾ فَأَسۡرِ بِعِبَادِي لَيۡلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾ وحين علم فرعون بخروجهم حشد جمعا كبيرا وألقى عليهم خطبة نرى من خلالها حالته النفسية، فوصفهم في بادئ الأمر أنهم شرذمة قليلون لقوله تعالى:﴿إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ لَشِرۡذِمَةٞ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾ بمعنى أنهم جماعة منقطعة لا ناصر لهم وأنهم قليلون وذلك ليشجع قومه على اتباعهم وإهلاكهم، ثم ذكر غيظه منهم قائلا كما أخبرنا الحق:﴿وَإِنَّهُمۡ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ بمعنى أعداء لنا لمخالفتهم ديننا، والغيظ: الغضب، ومنه التغيظ والاغتياظ، أي غاضون بخروجهم من غير إذن[1]،ثم قال كما أخبرنا الحق:﴿وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَـٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾ بمعنى يجب الحذر منهم وأن نتوقع منهم الشر فمن واجبنا أن نستعد لقتالهم وأن نأخذ حذرنا منهم، وهذه الآيات التي بين أيدينا تبين لنا حالة فرعون النفسية التي كانت مزيج من الغضب والفزع والخوف؛ فغضب وفزع لخروجهم بدون إذن وخاصة أنه

[1]– تفسير الجامع لأحكام القرآن، لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي،ط 5، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان،1996م مج 14، ص25

يعتبر نفسه أنه هو الرب الأعلى، أما خوفه فقد خاف أن ينجو موسى وقومه فيذهبوا ويتحالفوا مع أعداء فرعون ثم يأتمرون عليه فيحاربونه كما كان الحال من قبل مع الهكسوس.

ويواصل الحق سبحانه وصف الحالة الاجتماعية والاقتصادية لفرعون وقومه قبل خروجهم الأخير الذي لا عودة بعده فيقول لنا الحق:﴿فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ ﴾ وكذلك في قوله تعالى:﴿كَمْ تَرَكُواْ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُواْ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾ فكانت لهم العزة والمكانة العالية والمال ،فطغوا وأفسدوا وظلموا والله لا يهدي القوم الظالمين، فعميت أبصارهم وبصائرهم مما دفعهم للحاق بموسى وقومه، ويواصل الحق ويصور لنا مشهد مرعب لقوله تعالى:﴿فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ اتفق معظم المفسرون على أنهم اتبعهم باتجاه الشرق ووقت الشروق ولما تراءى الجمعان أي حين رأى موسى وأصحابه فرعون وجنوده صاحوا وقالوا إِنَّا لَمُدْرَكُونَ وتملكهم الخوف والفزع، وفي هذا الموقف المخيف يقف سيدنا موسى عليه السلام وقفة الرسول الواثق بأمر ربه وأجابهم بكل ثقة وطمأنينة كما في قوله تعالى:﴿قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾﴾ ،فالحق سبحانه وتعالى يصور لنا ذلك المشهد وما يحمله من دروس وعظات؛ فالملأ من بني إسرائيل وقد ملأ الرعب والخوف نفوسهم ورأوا أن المجزرة والإبادة واقعة فليست لديهم أية وسيلة للنجاة فهم يرون أنفسهم حفاة لا يملكون السلاح والعتاد والبحر أمامهم، أما الفريق الثاني فمُلأت

نفوسهم بالكبر والطغيان فاعتمدوا على قوتهم وأسلحتهم وظنوا أنهم قد أدركوا بني إسرائيل وأنهم سيعذبونهم أشدّ العذاب، أما فريق الحق موسى عليه السلام والعصبة المؤمنة من بني إسرائيل أيقنوا أن الله عز وجل لن يتخلى عنهم وأن هذا اليوم يوم عزة ونصر.

وفي هذا الموقف العسير جاء الأمر الرباني لسيدنا موسى أن يضرب البحر بعصاه لقوله تعالى:﴿فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡبَحۡرَۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرۡقٖ كَٱلطَّوۡدِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ ﴾ فكانت المعجزة العظمى انفلاق البحر فعلم بنو إسرائيل يقينا أنهم في معية الله، فمن ذا الذي يغير خصائص ماء البحر؟ مع أن الماء من خصائصه الانسياب والتداخل؟ من الذي حول قاع البحر من ماء وطين إلى أرض صلبة؟ فعلم المؤمنون أن قدرة الله قد تدخلت وأن نهاية فرعون قد قربت، أما فرعون وجنوده فقد ظنوا أن هذا من سحر موسى، فطمس الحق قلوبهم ليجازفوا ويدخلوا في هذا الطريق ليذوقوا العذاب الأليم لذا قال سبحانه وتعالى:﴿وَأَزۡلَفۡنَا ثَمَّ ٱلۡأٓخَرِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾ بمعنى قربنا فرعون وجنوده من البحر ليدخلوا إلى مصارعهم.

ونبقى مع ما يصوره لنا الحق في كتابه العزيز من مشاهد، فعند وصول سيدنا موسى عليه السلام وقومه إلى شاطئ النجاة، رأى سيدنا موسى أن الطريق مازال مفتوحا ويابسا، فأراد أن يضرب البحر بعصاه حتى يغلق الطريق ولكن الله عز وجل نهاه عن ذلك لحكمة أرادها إذ قال الحق لسيدنا موسى:﴿وَٱتۡرُكِ ٱلۡبَحۡرَ رَهۡوًاۖ إِنَّهُمۡ جُندٞ مُّغۡرَقُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ بمعنى اترك البحر على حاله ساكنا؛ حتى يتشجع فرعون وجنوده ويدخلوا ذلك الطريق، وحين وصولهم إلى وسط الطريق أمر

الله عز وجل البحر أن ينطبق عليهم، فنفذ البحر أمر ربه، وما هي إلا لحظات حتى صار فرعون وجنوده تحت الماء غرق.

وهنا اطمأن بنو إسرائيل فرأوا بأمهات أعينهم مصرع من أذاقهم أشد العذاب لمدة سنين عديدة وكيف كانت عاقبة من كذب برسل الله وآياته. وللإمام فخر الدين الرازي قولا في هذه النعمة العظمى على بني إسرائيل ما ملخصه:" أعلم أن هذه الواقعة – أي: واقعة فرق البحر – تضمنت نعما كثيرة على بني إسرائيل في الدين والدنيا، أما نعم الدنيا فمن وجوه:

أحدها: أنهم لما وقعوا في ذلك الضيق الذي من ورائهم فرعون وجنوده وقدامهم البحر فان توقفوا أدركهم العدو وأهلكهم بأشد العذاب وإن ساروا غرقوا فلا خوف أعظم من ذلك ثم إن الله نجاهم بفلق البحر فلا فرج أشد من ذلك.

ثانيها: أن الله –تعالى–خصهم بهذه النعمة العظيمة والمعجزة الباهرة، وذلك سبب لظهور كرامتهم على الله تعالى.

ثالثها: أنهم شاهدوا أن الله تعالى أهلك أعدائهم ومعلوم أن الخلاص من مثل هذا البلاء من أعظم النعم فكيف إذا حصل معه ذلك الإكرام العظيم وإهلاك العدو.

رابعها: أنه أورثهم أرضهم وديارهم ونعمهم وأموالهم.

خامسها: أنه تعالى لما أغرق آل فرعون فقد خلص بني إسرائيل منهم، وذلك نعمة عظيمة لأنهم كانوا خائفين منهم ولو أنه تعالى خلص موسى وقومه من تلك الورطة وما أهلك فرعون وقومه لكان الخوف باقيا من حيث إنه ربما اجتمعوا واحتالوا بحيلة وقصدوا إيذاء موسى عليه السلام وقومه ولكن الله تعالى لما أغرقهم فقد حسم مادة الخوف بالكلية.

سادسها: أنه وقع ذلك الغرق بمحضر من بني إسرائيل وهو المراد بقوله تعالى (وأنتم تنظرون)

وأما نعم الدين فمن وجوه:

أحدها: أن قوم موسى لمشاهدة تلك المعجزة الباهرة زالت عن قلوبهم الشكوك والشبهات، فإن دلالة مثل هذا المعجز على وجود الصانع الحكيم وعلى صدق موسى عليه السلام تقرب من العلم الضروري فكأنه تعالى رفع عنهم تحمل النظر الدقيق والاستدلال الشاق.

ثانيها: أنهم لما عاينوا ذلك صار داعيا لهم إلى الثبات على تصديق موسى والانقياد له وصار ذلك داعيا لقوم فرعون إلى ترك تكذيب موسى عليه السلام والإقدام على تكذيب فرعون.

ثالثها: أنهم عرفوا أن الأمور بيد الله فإنه لا عز أكمل مما كان لفرعون ولا شدة أشد مما كانت ببني إسرائيل، ثم إن الله تعالى في لحظة واحدة جعل العزيز ذليلا والذليل عزيزا، وذلك يوجب انقطاع القلب عن علائق الدنيا والإقبال بالكلية على خدمة الخالق والتوكل عليه في كل الأمور، وأما النعم الحاصلة لأمة محمد صلى الله عليه وسلم من ذكر هذه القصة فكثيرة:

أحدها: أنه كالحجة لمحمد صلى الله عليه وسلم على أهل الكتاب لأنه كان معلوما من حال محمد صلى الله عليه وسلم أنه كان أميا لم يقرأ ولم يكتب ولم يخالط أهل الكتاب فإذا أورد عليهم من أخبارهم المفصلة ما لا يعلم إلا من الكتب علموا أنه أخبر عن الوحي وأنه صادق فصار ذلك حجة له عليه السلام على اليهود وحجة لنا في تصديقه.

ثانيها: أنا إذا تصورنا ما جرى لهم وعليهم من هذه الأمور العظيمة علمنا أن من خالف الله شقي في الدنيا والآخرة فصار ذلك مرغبا لنا في الطاعة ومنفرا عن المعصية.

ثالثها: أن أمة موسى عليه السلام مع أنهم خصوا بهذه المعجزات الظاهرة والبراهين الباهرة فقد خالفوا موسى عليه السلام في أمور حتى قالوا (اجعل لنا إلها كما لهم آلهة) وأما أمة محمد صلى الله عليه وسلم فمع أن معجزتهم هي القرآن الذي لا يعرف كونه معجزا إلا بالدلائل الدقيقة انقادوا لمحمد

صلى الله عليه وسلم وما خالفوه في أمر البتة، وهذا يدل على أن أمة محمد صلى الله عليه وسلم أفضل من أمة موسى عليه السلام [1]

أما التوراة المحرفة فقد تحدثت عن هذه الحادثة في سفر الخروج: 5/27-14: أخبر المصريون ملكهم، الفرعون قائلين: « إن بني إسرائيل فرّوا » فقال فرعون وعماله: « ماذا فعلنا وقد تركنا بني إسرائيل يغادرون خدمتنا فقرن دبابته الشخصية وأخذ معه رعاياه وستمائة من الدبابات الممتازة وجميع دبابات مصر كلّ فارس منهم مصحوب بحامل السلاح. فالرب أقسى قلب الفرعون، ملك مصر الذي خرج للبحث عن الإسرائيليين الذين حصلوا على حريتهم ثم وجد المصريون الهاربين والتحق ببني إسرائيل جميع دبابات الفرعون وفرسانه وقواته قرب شاطئ البحر فاقترب منهم الفرعون فرفع الإسرائيليون فرأوا أن المصريين غادروا منازلهم وأخذوا طريقهم وراء أصحاب سيدنا موسى عليه السلام الذين استولى عليهم خوف شديد ونادوا الرب؛ قالوا لنبيهم: "هل مصر كانت منعدمة المقابر فأخرجتنا منها لنموت في الصحراء؟ ألم نقل لك اتركنا في شغل المصريين ومن الأفضل لنا أن نظل في خدمة المصريين ثم نموت في بلادهم؟ قال موسى للشعب:" لا تخافوا، تمسكوا بالخالق وانظروا إلى الخلاص الذي سيحققه لكم الرب اليوم فالمصريون الذين تشاهدونهم حاليا لن تروهم أبدا في المستقبل فالرب هو الذي يحارب مكانكم. قال الرب لموسى:" لماذا تصرخ في وجهي بهذا الصراخ كلم بني إسرائيل وليشرعوا في السير وأنت ارفع عصاك واهو بيدك على البحر ومر بني إسرائيل أن يدخلوا وسط البحر كأنهم يمشون على الأرض اليابسة وأن سأقسي قلب المصريين حتى يدخلوا ورائهم وأنا أباهي نفسي على حساب الفرعون وكل قوّاته ودباباته وفرسانه وهكذا يتأكد المصريون أنني أنا الرب.... مَلَكُ الله الذي كان يسير في مقدِّمة بني إسرائيل ذهب وانتقل إلى مؤخرتهم وقد وقعت بين معسكر المصريين ومعسكر الإسرائيليين. فكانت الغمامة وانتشرت الظلمات فأضاءت الغمامة الطريق لبني إسرائيل ولم يقترب الطرفان لبعضهما البعض طيلة الليل كله. أهوى موسى يده على البحر فأبعد

[1]- مفاتيح الغيب، فخر الدين الرازي، مج 3، ص 75-ص77

الرب البحر الليلة كلها بواسطة ريح شرقية شديدة فصار البحر جافا فتفتقت المياه ودخل بنو إسرائيل وسط البحر وكان يابسا ثم تغيرت المياه وكونت حائطا سميكا مرتفعا عن شمالهم ويمينهم وأتبعهم المصريون ثم دخلوا من بعدهم.....وانتبه الرب في صفوف المصريين فجعل فيها اضطرابات وعطل دواليب دباباتهم وأضحى سيرها صعبا. قال المصريون: "لنبتعد عن بني إسرائيل لأن الرب هو الذي يحارب مكانهم ضدنا " قال الرب لموسى:" انشر اليد على البحر حتى تعود المياه على سكان مصر وعلى دباباتها وعلى فرسانها؛ مد موسى يده على البحر وعند اقتراب الصباح عادت المياه إلى موضعها الطبيعي بينما كان المصريون يفرون من لقائها وقضى الرب قضاء نهائيا على المصريين وسط البحر.»[1].هذا ما جاء في التوراة، في نعمة فرق البحر لبني إسرائيل.

لقد قص علينا الحق كيف أنجا موسى عليه السلام وقومه بفرق البحر لهم فكانت هذه المعجزة نعمة على بني إسرائيل وكانت نقمة على فرعون وقومه. لقد أراد الحق أن يذكر بهذه الآيات الكريمة بني إسرائيل الذين عاصروا النبي صلى الله عليه وسلم فيحي في مشاعرهم صورة الكرب الذي عاشه أجدادهم ثم رسم لهم مشهد النجاة بعد مشهد العذاب الذي كان فيه غدائهم الدائم مع ذاك الطاغية وملئه. فكان من الواجب عليهم أن يشكروا الله وأن يؤمنوا ويصدقوا برسالة خاتم الأنبياء والمرسلين.

4–النجاة من عدوهم:

أشار القرآن الكريم في سوره المكية والمدنية إلى اضطهاد فرعون لبني إسرائيل، فالحديث عن بني إسرائيل في السور المكية يختلف عنه في السور المدنية، فالأولى كانت تتحدث عن بني إسرائيل وتعرضهم للفتنة والابتلاء على يد فرعون وملئه، فكان في قصصهم عبرة وعظة للفئة المؤمنة التي كانت

[1]- LA BIBLE,TRADUCTION OECUMENIQUE DE LA BIBLE ,comprenant l'Ancien et le Nouveau Testament,traduit sur les textes originaux hébreu et grec, nouvelle édition revue 1990,ALLIANCE BIBLIQUE UNIVERSELLE-LE CERF , p13

تتعرض للبلاء من قبل كفار قريش، فكانت كل قصصهم تعرض عليهم بصفة مفصلة تتناسب مع المراحل الدعوية؛ وذلك بقصد تكوين الشخصية الإسلامية التي تتصف بالصبر والطمأنينة والتي تؤمن يقينا أن الله سبحانه وتعالى يبتلي عباده بالفتنة ليميز الخبيث من الطيب.

أمّا السور المدنية حين تحدثت عن اضطهاد فرعون وملئه لبني إسرائيل، كانت تعرض لنا ابتلائهم ثم نجاتهم ثم تمردهم فكانت تكشف عن دخائل نفوس هؤلاء اليهود وتحذر المؤمنون منهم لأن الخلف منهم على خطا السلف، وكذلك كان في عرض سيرتهم درسا بليغا للمؤمنين حتى يتجنبوا ما وقعوا فيه من عصيان وتمرد.

لقد كان اضطهاد فرعون وملئه لبني إسرائيل قاسيا وظالما وباغيا، إذ كان يتجلى في تقتيل أبنائهم واستحياء نسائهم واستعبادهن.

قال تعالى:﴿وَإِذۡ أَنجَيۡنَٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ ١٤١﴾[1]

قال تعالى:﴿فَأۡتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرۡسِلۡ مَعَنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبۡهُمۡۖ قَدۡ جِئۡنَٰكَ بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكَۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلۡهُدَىٰٓ ٤٧﴾[2]

[1]- سورة الأعراف، آ 141

[2]- سورة طه، آ47

قال تعالى:﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ قَدۡ أَنجَيۡنَٰكُم مِّنۡ عَدُوِّكُمۡ وَوَٰعَدۡنَٰكُمۡ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنَ وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰ ﴿٨٠﴾ ﴾[1]

قال تعالى:﴿إِنَّ فِرۡعَوۡنَ عَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلَ أَهۡلَهَا شِيَعٗا يَسۡتَضۡعِفُ طَآئِفَةٗ مِّنۡهُمۡ يُذَبِّحُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَيَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٤﴾﴾[2]

قال تعالى:﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ أَنجَىٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ ﴿٦﴾ ﴾[3]

قال تعالى:﴿وَإِذۡ نَجَّيۡنَٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ ﴿٤٩﴾ ﴾[4]

[1]–سورة طه، آ 80

[2]– سورة القصص ، آ 4

[3]–سورة إبراهيم، آ6

[4]–سورة البقرة، آ 49

كلنا نعلم من مصادرنا الإسلامية الموثوقة أن بني إسرائيل دخلوا إلى مصر وقت أن كان يوسف عليه السلام عزيزها، فأقاموا فيها معززين مكرمين، فاستمروا في التكاثر وجاءت منهم أجيال جديدة، ولكن بعد توالي السنون وتعاقب الملوك، تغير حال بني إسرائيل من العزة والكرامة إلى المذلة والمهانة، وبذلك انتهت فترة الآمان والطمأنينة لبني إسرائيل في مصر، ولا يوجد لدينا أية آية صريحة أو أحاديث صحيحة تبين لنا ما هي الأسباب التي أدت إلى هذا التغير السلبي الذي أصاب بني إسرائيل في مصر.

أما التوراة المحرفة لم تسكت على هذه الفترة بل ذكر كاتبها أسباب هذا التغير فقال « ثم قام ملك جديد على مصر لم يكن يعرف يوسف فقال لشعبه: هو ذا بنو إسرائيل شعب أكثر وأعظم منّا هلُمّ نحتال لهم لئلا ينموا، فيكون إذا حدثت حرب أنهم ينضمون إلى أعدائنا ويحاربوننا ويصعدون من الأرض. فجعلوا عليهم رؤساء تسخير لكي يذلوهم بأثقالهم، فبنوا لفرعون مدينتي مخازن، فيثوم ورعمسيس[1] ولكن بحسبما أذلوهم هكذا نموا وامتدوا، فاختشوا[2] من بني إسرائيل فاستعبد المصريون بني إسرائيل بعنف. ومرروا حياتهم بعبودية قاسية في الطين واللبن وفي كل عمل في الحقل كل عمل الذي عملوه بواسطتهم عنفا»[3].

فقد زعم كاتب التوراة مرة أن الملك بدأ في اضطهاد بنو إسرائيل لأنه رأى أن هذا الشعب يتكاثر وينمو بسرعة فخاف أن ينضم مع أعدائه؛ لهذا السبب أراد الملك الجديد ولم يقل فرعون أن يذل بنو إسرائيل. وفي تفسير ابن كثير للآية 49 من سورة البقرة رواية أخرى «وهي أن فرعون كان قد رأى رؤيا هالته، رأى نارا خرجت من بيت المقدس فدخلت بيوت القبط ببلاد مصر إلا بيوت بني

[1]- فيثوم ورعمسيس: مدن تقع شرق دلتا النيل في مصر، انظر موسوعة الكتاب المقدس، ص 158، 235

[2]- فاختشوا:فارتعبوا، ففزعوا، تفسير كلمات الكتاب المقدس، سعيد مرقص إبراهيم، ص 22

[3]- سفر الخروج 1: 8-12

إسرائيل، مضمونها زوال ملكه يكون على يد رجل من بني إسرائيل، ويقال: بل تحدث سماره عنده بأن بني إسرائيل يتوقعون خروج رجل منهم يكون لهم دولة ورفعة»[1].

والذي لا شك فيه أن بني إسرائيل عاشوا في الذل والمهانة والاضطهاد بعد فترة من موت يوسف عليه السلام، فقد ذكر الحق سبحانه وتعالى الفئة المؤمنة في مكة بهؤلاء الصالحين من بني إسرائيل الذين لقوا من الطاغية أسوأ العذاب فلما صبروا، نجاهم الله وجعل منهم أنبياء وجعل منهم ملوكا، وآتاهم ما لم يؤت أحد من العالمين كما ذكر الحق سبحانه وتعالى اليهود في المدينة نعمت إنجاء آبائهم من هذا الطاغية فبنجاتهم نجو.

وكان للإمام الرازي رحمه الله قولا بليغا إذ قال « اعلم أنه تعالى لما قدم ذكر نعمه على بني إسرائيل إجمالا بين بعد ذلك أقسام تلك النعم على سبيل التفصيل ليكون أبلغ في التذكير وأعظم في الحجة فكأنه قال اذكروا نعمتي واذكروا إذ نجيناكم واذكروا إذ فرقنا بكم البحر وهي إنعامات والمذكور في هذه الآية هو الإنعام الأول. أما قوله(وإذ نجيناكم) فقرئ أيضا أنجيناكم ونجيتكم، أما آل فرعون فلا شك أن المراد ههنا من كان من قوم فرعون وهم الذين عزموا على إهلاك بني إسرائيل ليكون تعالى منجيا لهم منهم بما تفضل به من الأحوال التي توجب بقاءهم وهلاك فرعون وقومه أما قوله تعالى(يسومونكم) فهو من سامه خسفا إذا أولاه ظلما، وأصله من سام السلعة إذا طلبها، كأنه بمعنى يبغونكم سوء العذاب ويريدونه بكم، واختلف المفسرون في المراد من (سوء العذاب) فقال محمد بن إسحاق: إنه جعلهم خولا وخدما له وصنفهم في أعماله صنفا، فصنف كانوا يبنون له، وصنف كانوا يحرثون له، وصنف كانوا يزرعون له فهم كانوا في أعماله ومن لم يكن في نوع من أعماله كان يأمر بأن يوضع عليه جزية يؤديها، وقال السدي: كان قد جعلهم في الأعمال القذرة الصعبة مثل لنس المبرز وعمل الطين ونحت الجبال وحكى الله تعالى عن بني إسرائيل أنهم قالوا لموسى:﴿قَالُوٓاْ

[1]– تفسير ابن كثير، مج 1، ص 121، مأخوذ من السنن الكبرى للنسائي

أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَاۚ ﴾ وقال موسى لفرعون:﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٢﴾ ﴾ واعلم أن الإنسان تحت يد الغير بحيث يتصرف فيه كما شاء لا سيما إذا استعمله في الأعمال الشاقة الصعبة القذرة فإن ذلك يكون من أشد أنواع العذاب، ثم إنه تعالى أتبع ذلك بنعمة أخرى أعظم منها، فقال :﴿ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ﴾ومعناه يقتلون الذكورة من الأولاد دون الإناث وها هنا أبحاث أن ذبح الذكور دون الإناث مضرة من وجوه:

أولها: أن ذبح الأبناء يقتضي فناء الرجال، وذلك يقتضي انقطاع النسل، لأن النساء إذا انفردن فلا تأثير لهن ألبتة في ذلك، وهذا يقضي في نهاية الأمر إلى إهلاك الرجال والنساء.

ثانيها: أن هلاك الرجال يقتضي فساد مصالح النساء في أمر المعيشة، فإن المرأة لتتمنى الموت إذا انقطع عنها تعهد الرجال، لما قد تقع فيه من نكد العيش بالانفراد. فصارت هذه الخطة عظيمة في المحن.

ثالثها: أن قتل الولد عقب الحمل الطويل، وتحمل الكد، والرجاء القوي في الانتفاع به، من أعظم العذاب، فنعمة الله في تخليصهم من هذه المحنة كبيرة.

رابعها: أن بقاء النساء بدون الذكران من أقاربهن، يؤدي إلى صيرورتهن مستفرشات الأعداء، وذلك نهاية الذل والهوان

البحث الثاني: ذكر في سورة البقرة (يذبحون) بلا واو وفي سورة إبراهيم ذكره مع الواو والوجه فيه أنه إذا جعل قوله (يسومونكم سوء العذاب) مفسرا بقوله (يذبحون أبناءكم) لم يحتج إلى الواو، أما إذا جعل قوله (يسومونكم سوء العذاب) مفسرا بسائر التكاليف الشاقة سوى الذبح وجعل الذبح شيئا

آخر سوى سوء العذاب احتيج فيه الواو، وفي الموضعين يحتمل الوجهين إلا أن الفائدة التي يجوز أن تكون هي المقصودة من ذكر حرف العطف في سورة إبراهيم أن يقال: إنه تعالى قال قبلك تلك الآية (ولقد أرسلنا موسى بآياتنا أن أخرج قومك من الظلمات إلى النور وذكرهم بأيام الله) والتذكير بأيام الله لا يحصل إلا بتعديد نعم الله تعالى فوجب أن يكون المراد من قوله (يسومونكم سوء العذاب) نوعا من العذاب والمراد من قوله (يذبحون أبناءكم) نوعا آخر ليكون التخلص منها نوعين من النعمة»[1].

أما كاتب التوراة فكتب في شأن ذبح الذكور واستحياء النساء ما يلي (وكلّم ملك مصر قابلتي العبرانيات اللتين اسم إحداهما شفرة واسم الأخرى فوعة، وقال: « حينما تولدان العبرانيات على الكراسي[2] إن كان ابنا فاقتلاه، وإن كان بنتا فتحيا»[3].

كما ذكر في سفر الخروج أن القابلتين خافتا الله ولم تنفذا الأمر (ولكن القابلتين خافتا الله ولم تفعلا كما كلمهما ملك مصر، بل استحيتا الأولاد)[4].

ثم زاد وقال (فقالت القابلتان لفرعون:« إن النساء العبرانيات لسن كالمصريات، فإنهن قويات يلدن قبل أن تأتيهن القابلة» فأحسن الله إلى القابلتين، ونما الشعب وكثر جدا وكان إذ خافت القابلتان الله أنه صنع لهما بيوتا)[5].

ومن خلال هذه النصوص التي بين أيدينا يتبين لنا جليا أن كاتب التوراة لم يكن موجودا في هذه الفترة من تاريخ بني إسرائيل، وأن هذه النصوص بيّنت انحراف اليهود لأنهم يرون دائما أنفسهم شعب الله المختار وأن امرأتين من بني إسرائيل استطعتا أن تخالفا أمر فرعون الطاغية، والذي يزيد

[1]- مفاتيح الغيب فخر الدين الرازي، ،مج 3، ص 71-72

[2]- الكراسي: كرسي الولادة، وهو مقعد خاص لهذا الغرض، التفسير الحديث للكتاب المقدس، ج 1، ص 62

[3]- سفرالخروج1: 15-16

[4]- سفر الخروج 1: 17

[5]-سفر الخروج 1: 19-21

ضعف هذه الروايات أنها تظهر فرعون الطاغي القاسي الذي تحدث عنه القرآن والتاريخ قبل بكل سذاجة عذر القابلتان.

وبعد هذا الموقف تذكر التوراة أنه حين فشل فرعون في ذبح الذكور من قبل القابلتين أمر بطرح كل مولود ذكر في النهر وإبقاء الإناث فجاء في سفر الخروج ما يلي:(ثم أمر فرعون جميع شعبه قائلا:« كل ابن يولد تطرحونه في النهر، لكن كل بنت تستحيونها»)[1].

مما لا شك فيه أن الروايات التوراتية محرفة وأننا لا يمكن أن نعتمد عليها لمعرفة هذه الفترة التي لم يتحدث عنها القرآن.

في حين بيّن الإمام الرازي عدّة فوائد لذكر هذه النعمة في القرآن الكريم

« أحدها: أن هذه الأشياء التي ذكرها الله تعالى لما كانت من أعظم ما يمتحن به الناس من جهة الملوك والظلمة صار تخليص الله إياهم من هذه المحن من أعظم النعم وذلك لأنهم عاينوا هلاك من حاول إهلاكهم وشاهدوا ذل من بالغ في إذلالهم ولهذا السبب ذكر الله تعالى هذه النعمة العظيمة مبالغة في إلزام الحجة عليهم وقطعا لعذرهم.

ثانيها: أنهم لما عرفوا أنهم كانوا في نهاية الذل وكان خصمهم مبطلا، فكأنه تعالى قال لا تغتروا بفقر محمد وقلة أنصاره في الحال فإنه محق لابد وأن ينقلب العز إلى جانبه والذل إلى جانب أعدائه.

ثالثها: أن الله تعالى نبه بذلك على أن الملك بيد الله يؤتيه من يشاء، فليس للإنسان أن يغتر بعز الدنيا بل عليه أن يسعى في طلب عز الآخرة»[2].

لقد تكررت الآيات الكريمة التي ذكر فيها الحق سبحانه وتعالى بني إسرائيل نعمة إنجائهم من فرعون وقومه الذين كانوا يبدعون في عذابهم فبيّن الحق سبحانه وتعالى كيف كانت نفوس هؤلاء

[1]- سفر الخروج1: 22

[2]- مفاتيح الغيب فخر الدين الرازي ، مج 3، ص 73-74

الطغاة التي اتسمت بالحقد والغل وكذلك نستشعر فيهم نوع من الخوف وهذا ما أدى بهم إلى هذه الشدّة والقسوة، في حين نرى أن الفئة المؤمنة من بني إسرائيل قد صبرت واتصفت بإيمان قوي فكانت النتيجة النجاة والعزة بعد طول العذاب والهوان، وكل هذه المشاهد كانت تقتضي من بني إسرائيل الشكر والعرفان.

5- فساد طباع وأخلاق بني إسرائيل كما يصورها القرآن الكريم

1.5- مفهوم الشخصية

إنّ موضوع الشخصية الإنسانية يُعدُّ من أهمّ مواضع العلوم الإنسانية الْحديثة فقد دُرِس من قِبَلِ عدد كبير من الباحثين الْسيكولوجيينَ فظهرت عدّة نظرِيات تُحدِّد أبعادَ تلك الشخصيةِ فمن أَولئك مَن يرى أَنَّ الطبيعةَ البشريةَ ما هي إِلاَّ امتدادٌ وتطوّرٌ لِطبيعة الْحيوان، وذلك وفقَ قوانينَ النشوء والارتقاء ومنهم من يعتقد أَنّ هذه الطبيعةَ البشريةَ مكرمة من قِبل الْخالق الْمصوِّر عزّ وجلّ بِنفخِه الروح وتكريمه الآدميين بالعقل.

دُرِس موضوعُ الطبيعة البشرية والشخصية الإنسانية من زوايا مُختلِفة منها ما كانت سيكولوجيَّةً ومنها ما كانت فلسفيةً وبعضها كان ذا اِتّجاهٍ أنثروبولوجي ومنها ما كان من منظور سوسيولوجي، فبرزت مدارسُ مُختلفةٌ ركّزت دراستَها على الطبيعة البشرية و الشخصية الإنسانية و التي قامت على مقاييسَ متنوِّعةٍ و منهم مَن بَحث فيها من حيث الطبيعة الاجتماعية التي ينتمي إليها الفردُ أو من حيث جنسه أو لون بَشرته أو من حيث قومتيه أو وطنه والبعضُ الآخر من حيث بُنية جسمه أو تركيب مزاجه.

لِهذه الأسبابِ توجد عدّة تعريفات للشخصية يُمكننا تعريفها بِمجموعات منَ أساليبِ التفكيرِ والتصرُّفِ واتّخاذ القرارات والْمشاعر الْمتأصلة والفريدة لشخصٍ مُمَيِّزٍ.

بدأت دراسةُ وتَحليلُ شخصية الإنسان من طرف اليونانيين القدماء وخاصّة مع أبي قراطَ[1] الذي قال أنَّ الاختلاف في الشّخصيات من بني البشر يُنسب إلى ما وصفه بالسوائل الْحيوية الأربعة وهي حسب هذا الْمفكِّر : الدّم و الْمادّة الصفراء من مرارة الإنسان و الْمادّة السوداء من مرارة الإنسان والبلغم[2] فكان أبو قراط يعتقد أن الشخصية الدموية يكون ذا صفات متفائلة ومُحبًّا للمغامرة على عكس ذي الشخصية البلغمية التي تكون غير مبالية و بعد أبي قراط حاول أرسطو[3] تَحليلَ الشخصيات فقام بتفسيرها حسب الوجه و البناء الْجسمي لِلشخص و على سبيل الْمثال اعتقد أرسطو أنّ الأشخاصَ ذوو البنية النّحيفة يكونون، على العموم، خجولين.

قام داروين[4] بتحليلِ الشخصية كعواملَ غريزيةٍ اكتسبها الْمرءُ من غرائز البهائم أمّا سجموند فرويد[5] فقد حلَّل شخصيةَ الإنسان بالصراع بين الأنا السفلى والأنا و الأنا العليا أمّا في الوقت الْحاضر يُعتبر عاملُ الوراثة و الْمجتمعُ الْمحيطُ بالفرد من أهمّ العوامل الّتي تُبيّن شخصية الإنسان.

عرّف مورثون الشخصية بأنّها حاصلُ جَمع كلِّ الاستعدادات والْميول والغرائز والواقع والقوى البيولوجية الْموروثة وكذلك الصفات والْميول الْمكتسَبة.

ويقول "ش إ ن "أنّ الشخصية هي التنظيمُ الديناميكي في نفس الفرد لتلك الاستعدادات الْجسمية والعقلية الثابتة نسبيًّا التي تُعتبر مُميّزًا خاصًّا لابن آدم وبِمقتضاها يتحدّد أُسلوبه في التكيف مع البيئة[6]

---

[1]- طبيب يوناني عاش تقريبًا من 460 إلى 377 قبل الْميلاد

[2]- عرّف المنجد في اللغة العربية البلغم في طبعته الخامسة عام 1956 صفحته 46 بِأنّه (خلط من أخلاط البدن الأربعة في عرف الأقدمين)

[3]-فيلسوف يوناني عاش حوالي 384 إلى 322 قبل الْميلاد

[4]- عالِمٌ إنجليزي مُختصٌّ في البيولوجيا و علوم الطبيعة (1809 إلى 1882)

[5]- طبيب نَمساوي في علم النفس (1856 إلى1939)

[6]- الشخصية المتكاملة، أحمد عبد الصّادق، دار طيبة للطباعة، الطبعة الأولى، 2008م، ص 74

إنّ تصنيف الشخصية الإنسانية في الْمدارسِ الغربية تقوم على مقاييس بشرية مُختلفة مِمّا أدّى إلى اتّجاهاتٍ متنوِّعة ومتعدّدة بتعدّد الْمذاهب الفلسفية والفكرية والدينية والْمدارس النفسية والاجتماعية.

في حين اعتقدت الْمدرسة العربية الإسلامية، قديمًا وحديثًا في دراستها لِلطبيعة البشرية والشخصية الإنسانية على القرآن الكريم والسنَّة النبوية الشريفة، علمًا بِما في كتاب الله من دعوةٍ صريحةٍ إلى التّأمّل في النفس البشرية وما تنطوي عليه من أسرارٍ وآياتٍ فالذكرُ الْحكيمُ كلُّه هو إمّا حديثٌ للإنسان أو حديث عن الإنسان.

فالقرآنُ العظيمُ لا يُقيِّم شخصيةَ الإنسان من خلال طبقته الاجتماعية أو جنسه أو قومتيه أو بنية جسمه أو لون جلده أو مواقفه تُجاه النّاس بل مقياسه الوحيد يكمن في موقفه من هدى الله وإنّ أكثر من أعطى هذا الْموضوعَ حقَّه من علماء الْمسلمين هم علماءُ الأخلاق من رجالِ الصوفيةِ الْملتزمين بالكتاب والسنّة.

اتّفق السالكون إلى الله على اختلاف طرقِهم وتباين سلوكهم على أنّ النفسَ قاطعة بين القلب وبين الوصول إلى الرَّب أنّه لا يدخل عليه سبحانه ولا يوصلُ إليه إلاَّ بعد إماتتِها وتزْكِها بِمخالفتها والظفر بِها، فإنّ الناس على قسميْن : قسم ظفرت به نفسُه فملكتْه وأهلكتْه وصار طوعًا لَها ولِما تَحت أوامرها وقسمٌ سيطروا على نفوسهم و قهروها فصارت تلك النفوسُ طوعًا لَهم منقادة لأوامرهم؛ قال بعض العارفين :« اِنْتهى سفرُ الطّالبين إلى الظّفر بأنفسهم، مَن ظفر بنَفسه أفلح وأنْجح ومن ظفرتْ به نفسه خسِر وهلك.» قال تعالى :﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى

ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾ ﴾[1] فالنفسُ تدعو إلى الطغيان وإيثار الْحياة الدنيا و الرّبُ يدعو عبدَه إلى خوفه و نهى النفس عن الْهوى و القلبُ بين الداعيَيْن يَميل إلى هذا الدّاعي مرَّةً وإلى هذا مرّةً و هذا موضوع الْمحنة والابتلاء وقد وصفَ الْخالِقُ في القرآنِ النفسَ بِصفاتٍ ثلاثة هي النفس الْمطمئنة والنفس الأمّارة بالسوء والنفس اللّوامّة[2].

نقل نزار العاني قول ابنِ مكسويه من كتابه ((السّعادة)) « أن النفسَ ناسوتية وهي الأصلُ في الإنسان فإن نَمت تزكيتها بالذكر والفكر والرياضة صارت روحًا ترتقي إلى أن تكونَ سرًّا من أسراره تعالى وقد تَميل النفسُ إلى الطبيعة الْجسدية فتَجذِب القلبَ إلى الأسفل وتأمره بإشباع شهواته و(يتعاطى حينئذٍ إلى) الأخلاق السيِّئة وقد تتنوّر وتتيقظ من الغفلة وتعمل على إصلاح حالِها متقلِّبةً بين حالتيِ الرّبوبية والْخلقية فإن صدر عنها فعلُ شَيءٍ تداركها النور التّنبيهي الإلهِي في ضوءِ فطرتِها الْمَجبولة عليها فتلوم نفسَها وتتوب إلى خالقها وقد تتخلَّق بالأخلاق الْحميدة و تبتعد وترتفع عن الأخلاق الذميمة فيتنوّر قلبُها بِالإيمانِ وتواظبُ على فعل الطاعات[3]»

عرف علماءُ الإسلام التصوّرَ الصحيحَ لِحقيقة الإنسان و دورَه في الْحياة الْمبتدئة بِخلق سيِّدنا آدم – عليه السلام- ثُمّ إهباطه (هبوطه) إلى الأرض ابتلاءً و اختيارًا و كيف تتحقّق سعادته الدّنياوية بتطبيق شريعة الله و تنفيذًا لأحكامها وارتفاعًا بِمستواها الإنساني والذي نستخْلِصه من الدراسات العربية والغربية وهو أنّ التفاعل بين النفس والفكر يولِّد شخصيَّةً إمّا إيجابيةً أو سلبيةً فنقول عن أيِّ إنسانٍ يتمتَّع بشخصية متوازنة عند ما يكون سلوكُه منسجِمًا مع فكره فيكون التفاعلُ بين نفسيته

[1]- سورة النازعات: آيات من 37 إلى 41

[2] – ((صحيح إغاثة اللهفان من مقاصد الشيطان)) الإمام شَمس الدين بن قيم الْجوزية ، تَحقيق مُحمّد أحمد عيسى، دار الرشيد: الجزائر، ط1، عام 2007م، ص91.

[3] ((الشخصية الإنسانية في الفكر الإسلامي)) لنزار العاني صـ 28 مأخوذ من كتاب ((آفات النفس كما يصوِّرها القرآن الكريم))، دراسة موضوعية، رسالة مَاجيستير في التفسير وعلوم القرآن، لِنعيمة عبد الله البرش، إشراف د راس محمود قاسم 2008م، الْجامعة الإسلامية، غزّة قسم التفسير و علوم القرآن ص 47.

وفكره إيجابيًّا ونقول عن إنسانٍ آخر أنّه ذا شخصية منعدمةِ التوازن عند ما يكون تناقض بين نفسيته وفكره، فظاهره يُبرهنُ على مقصودٍ ويكتم في باطنه هدفًا آخرَ؛ فالنَّفسُ الإنسانية لَها نوازعُ الشّرِّ ولَها نوازع الْخيرِ.

إنّ الْحقّ جلّ في علاه بيّن لنا حقيقَة الإنسان في الفرقان وصرّح أنّ الإنسان يُمكن أن يكونَ من أفضل الْمخلوقات إذ جعله خليفتَه في الأرض وحاملَ أمانتَه، كما يَجوز لِذلك الْمخلوق أن يصاب بصفات غير إيجابية كالضعف أو الْجهل أو الكفر أو العجلة فيصير أدنى من منزلة الأنعام وأضلّ سبيلا.

ولكي نُدركَ مكانةَ الإنسان في كتاب الله وسببَ تذبذُبَي الْخلق بين الشخص الكريم والشخص الْمنحطّ، فلا بدَّ من أن نعلم أنّ طبيعة خلقه أيْ علينا أن ندرس الإنسان كما بيّنه لنا صاحب العرش العظيم ففي سورة الْحجر صرّح تعالى:﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾﴾[1] و كرّر خالقنا في نفس الْمعنى :﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾﴾[2] ففي هذه الآيات الكريمة وغيرها من الآيات يكشِف لنا الله سبحانه وتعالى الطبيعة الْمزدوجة لِلإنسان أي أنَّه مَخلوق مركَّب من بُعدَيْن مُختلفَيْن وهُما الطينُ ونفخةُ الرّوح فيه، فالْميول الْماديّة التي هي من طبيعة الطين والْحمإِ الْمسنون تسوق الإنسان نَحو عالَم الْحيوان الأسفل أمّا الْميولُ الرَّوحانيةُ فهي تقود صاحبها نَحو الْهدى والاستقامة وإلى الْمكانة العالية عند الله، فمن

[1]-آياتان 28 و 29 من سورة الْحجر

[2]- آياتان 71 و 72 من سورة ص

حِكمة العزيز الْحكيم أنّه أعطى مطلَق الاختيار للإنسان في اصطفاء أحد الْمنهَجيْن ومن رحْمته بالعباد أنْ أرسل الأنبياءَ والرُّسلَ لِترسيخ الْبُعد الروحاني لدى البشر؛ فالنفس الإنسانية تتصارع داخلها ثلاث قوى : القوّة العاقلة والقوّة الشهوانية والقوّة الغضبية، فالقوّة العاقلة هي التي تستمدُّ تعاليمها من وحي الأديان وهدى الأنبياء، أمّا القوّتان الأخريان فهما رمزَا الضلالِ والشّرِّ إن لَم يتمّ إخضاعهما لِحكم العقل والشرع.

والذي نستنتجُه مِمّا سلف أنّ اختلاف البشر يعود أساسُه إلى الصراع الْقائم بين القوّة العاقلة من جهةٍ وهوى النفس من جهةٍ أخرى، فتغلُّب العقل باتّباع تعاليم الشريعة وسيطرتُه على الأهواء والنزعات الْحيوانية دليلٌ على خضوع هذه النفس لأوامرِ بارئها وبالتالي تكون نفسٌ مطمئنّةٌ، وفي حالة ما خضعتْ هذه النفسُ إلى الْميول الْمادّية وإلى وساوس الشيطان وجنده من الإنس والجان ولَمْ تتأ لَّم بارتكاب القبائح فهذه هي النفسُ الأَمّارةُ بالسوءِ وأمّا النفس التي تُؤنِّبُ قرينتَها الآثِمَةَ وتَلومُها على عصيانِها فهذه هي النفس اللوّامة وقد يُنتِج عن هذا التوبيخ إمّا أن تتوب وتندم النفسُ الظالِمةُ وإمّا أن تستمرَّ في ابتعادها عن طريقَيِ الْحقِّ والْهدى.

إنّ الإنسان الذي يعي الوعيَ كلَّه أن عليه أن يرقى روحيًّا على عالَمه الْمادِّي فهو مِمَن اختار سبيل التقرُّب إلى الله وجعل هدفَه العبوديةَ الْخالِصة لله، أمّا من غفل عن حقيقة خلقه وسبب وجوده في الأرض فهو أسيرُ شهواته البهائمية ونزعاته الْمادّية وبالتالي يصير أدنى من الأنعام، فالصراعُ بين النفس الرّوحانية ذات الْميول الإلَهية والنفس الْمادّية هو ما وصفه خاتم الأنبياء والْمرسَلين بالْجهاد الأكبر إذ قال ما معناه :{{اِنتهيْنا من الْجهاد الأصغر فعلينا الآنَ أن نستعدّ لِلْجهاد الأكبر ألا و هو السيْطرة على أنفسنا }}؛ إنّ الإنسان الذي يُهمل الْجانبَ الروحي يصير عاجزًا عن إدراك الْحقائق ويُحوِّله إلى حيوان لا يفقَه من الْحياة سوى الأكل والشهوات الأخرى وأمّا الإنسان الذي يراعي جانبه الرّوحي فهو ما وصفه الْحقُّ الْمنعمُ سبحانه وتعالى بِخليفته في الأرضِ.

إنّ الإنسان، بطبيعة الحْال، يَمتلِك غرائزَ حيوانيةً لا بدَّ مِن إشباعها، قد أكّدت عليها كلّ الدّياناتِ السماوية لَم تتجاهلْ هذه الحْقيقة، فالتعالِيمُ الدينيةُ تؤكِّد على وجوب التعامل مع تلك الغرائز والرّغبات النفسية بشكلٍ صحيحٍ وإشباعها وفق ضوابطَ خاصّةٍ حتّى لا تكونَ مفسدة تُسبِّب الضررَ للإنسان وما يُحيطُ به، فإنّ إطلاقَ العنان للغرائز والنزعاتِ النفسية السلبيةِ سببٌ لطغيانِ الإنسانِ ووقوعه في التّهلُكة، فلا بدّ من وجود رادعٍ يُمسكُ زمام هذه الغرائز والنزعات حتّى لا تنحرِف ولا تتمرّد و لِهذا كلِّه كانت بعثةُ الأنبياءِ والرّسل وإنزالُ الكتبِ السّماوية سببًا لِهداية العقل البشري إلى الْمنهج الصحيح فالإنسان لا يتحكّم في غرائزه النفسانية و نزواته الْحيوانية فهو إنسانٌ نَجد في نفسه الأنانية، يسعى لكسبِ الدّنيا و حبِّ الْمناصب و إتّباع كلِّ الشهوات التي تَهْوى به إلى الْحضيض.

لقد تَحدّث القرآن الكريم عن الشخصية الإنسانية فكشف لِلنّاس في كثيرٍ من سوره وآياته عن نوعية الذين اِستجابوا لِلعون الإلَهي والذين رفضوا ذلك العون، ذلك لترشيد الإنسانيةِ وترقيتها نَحو الأمثل والأكمل مُتخلِّصةً من أسر الغرائز وسيطرتِها.

لقد أفاض الْقرآن العزيز الْحديثُ عن بني إسرائيل مفصّلاً صفاتِهم وأخلاقهم وطباعهم واستخرجَ طبائعهم الثابتة والْمشتركة فيهم وبذلك أعطى كتابُ الله القيِّمُ لِبني الإنسانية والْمفاتيحَ لِمعرفةِ الشخصية اليهودية فقد عرى النفسية اليهودية من زيفها وخِدعها وكشف عن حقيقتها فإذا هي تنطوي على أخلاقٍ غاية في السوء والالتواء[1].

جاء فيما أُحِي إلى النبيِّ الْأمّي الْحديثُ عن بني إسرائيل لِكلّ ما يُعاونُ على فهم مشكلات هذا النّمط من البشر وحلّها وقد تعمَّق ودقّق العليمُ الْمبينُ كلَّ ما يتعلّق بِآبائهم الأوَّلين وقدَّم دروسًا وعظاتٍ تُميِّز بين الْخبيث والطيِّب ثُمّ أبرز مواقفَ الرفض والبهتان والكفر والْعصيان عند الكفرة، الْجاحدين الْمبدِّلين لدينَ الله وأسهب سبحانه وتعالى الكلام في الذين اعتصموا في مواجهة الكثرة الكثيرة من بني قومهم فقاوموهم لِكفرهم وعدوانِهم.

[1]- العقيدة اليهودية صـ 19

ولقد أجْملَ صابر طعيمة في كتابه ((نبأ بني إسرائيل)) إذ قال : « لَمّا كان القصص كلُّه والْحديثُ بِجملته يَجري به الْوحيُّ الإلَهي قرآنًا عربيًّا على قلبِ رسول الله مُحمّدٍ (صلّى الله عليه و سلَّم) يقود الْحوار والْمجابَهة ويتعرَّض للمراوغة والْمناورة من جانب اليهود في يثربَ وحين كان عليه أن يُوجِّه إليهم دعوةَ الإسلام ويُجدِّد فيهم ما تبقّى من بعض الْحقّ الذي كان عليْه بعضهم ليُطهِّر ويُصحِّح غالبيَهم وكان من الْمنطق والْمعقول أنْ يتعرّضَ الذكر الْحكيم بالتفصيل لِجوانب الْمراحل التي تعرَّض فيها بنو إسرائيل لِلإسلام نبيِّه ومُقاومتِها أو إشهار السلاح، مُحاولةً مطاردتِها إلى أن لَجَأُوا إلى مكنون أخلاقهم وسرِّ طبعهم وتكوينهم الْعمل بالْخديعة والوشاية والْمؤامرة والتشهير بِهدف عزل مضمون العقيدة الإسلامية من قلوب الْمؤمنين بِها [1] »

أخبرنا الفرقانُ عن صفاتٍ كثيرةٍ للْيهود فسجّل الله عليهم ذلك ليتَّقي النّاس شرَّهم من جهةٍ وليكونوا عبرةً لغيرهم من جهةٍ أُخرى.

فمن هذه الصفات الكفرُ بالله وآياته والْخداعُ وقسوةُ القلوب والدهاءُ والْمكرُ والْخيانةُ والغدرُ وإشعالُ الْفتنةِ وسفكُ الدِّماءِ وحبُّ الدّنيا وكراهيةُ الْموتِ وأكلُ أموال النّاس بالباطل فقد كشف علاّم الغيوب خُبْثَ طبيعتهم وسوءَ طويتِهم وبِهذا فصَّل لنا الله جلَّ حلاله في الكتاب عن أخلاق الْيهود الظاهرة والباطنة ومقاصدهم في الأعمال والأقوال إذ يستطيع كلُّ من يقرأُ القرآن بتدبُّرٍ أن يُدركَ واقع اليهود حقَّ الإدراك ويعي نفسياتِهم وما جُبلوا عليْه من فسادٍ وانْحرافٍ خلقي، فهذه الصفاتُ الذّميمة انعكستْ على سلوكهم أفرادًا وجَماعاتٍ تلك هي نظراتٌ عابرة تكشِف عن صفات الْيهود كما صوّرها القرآن.

ولكن قبل أنْ نَخوض في الْحديث عن هذه الصفات يَجِب أن نوَضِّح أهميةَ العقيدة في الفرد والْمجتمع.

[1] – ((نبأ بني إسرائيل)) صابر طعيمة صـ 12

2.5 أهمية العقيدة للفرد والمجتمع

لقد فطر الله عز وجلّ الإنسانَ على معرفته وتوحيده وجاءت عدّة آياتٍ صريحةٍ في إثبات ذلك ومنها قوله تعالى :﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾[1]

إنّ حاجة الإنسان للعقيدة الدينية أمرٌ فطريٌّ في حياته لأنّه جُبِل عليها منذ ولادته مصداقًا لقول الرسول (ص) في حديثه الشريف : "كلُّ مَولودٍ يولد على الفطرة فأبواه يُهوِّدانه أو يُنصِّرانه أو يُمجسانه، كما تنتج البهيمةُ بَهيمةً جمعاءَ هل تُحسّون فيها من جدعاء [2]" ويقول هنري برغسون : « لقد وُجِدت وتوجد جَماعاتٌ إنسانية من غير علومٍ ولا فنونٍ ولا فلسفاتٍ ولكِّنه لَم توجد قطّ جَماعةٌ بغير ديانةٍ.[3]» ويرى كثيرٌ من الباحثين في الأديان ومنهم بنيامين كونستان أحد مؤرِّخي الأديان « إنّ الدين من العوامل التي سيطرت على البشر وأنّ التَّحسُّسَ الديني من الْخواصِ اللازمة لطبائعنا الرّاسخة ومن الْمستحيل أن نتصوَّر ماهيةَ الإنسان دون أن تتبادرَ إلى ذِهننا عقيدة الدين.[4]» يرى ماكس موللر : « أنَّ الدينَ قوَّةٌ من قوى النفس وخاصيةٌ من خصائصها وأنّ فكرة التعبُّد من الغرائز البشرية الّتي فُطِرَ عليها الإنسان منذ نشأته الأولى [5]»

---

[1]- آية 30 من سورة الرّوم

[2]- أخرجه البخاري تَحت رقمي 1359 و 1385 و مسلم تَحت رقم 2658

[3]-أخلاق القرآن، لِمحمّد دراز، صفحة 83

[4]- منهج الإسلام في بناء العقيدة و الشخصية،-صـ 39

[5]- الأديان : دراسة تاريخية مقارنة، صـ 28/27-

لقد تَحقَّق الكثير من عقلاء الغرب أنّ العقيدةَ مرتبطةٌ ارتباطًا مباشرًا بالرّاحة النّفسية للإنسان فهي الَّتي تعطيه الاستقرار النفسي والروحي كما يتغذّى الجْسمُ بالطعام والشراب فالرّوح تتغذّي بالإيمان والعقيدة السليمة إذ أعلن بعضُهم : « إنّ جدور هذه الأمراض النفسية : الْكراهية والْحقد والجْريمة والإرهاق والْيأس والترقُّب والشّكّ والأثرة والانزعاج في البيئة وكلّ هذه الأعراض تتعلَّق مباشرةً بالْحياة الْمحرومة من الإيمان بالله، إذ أنّ هذا الإيمانَ يَمنح الإنسانَ يقينًا جبّارًا حتّى يستطيع مواجهةَ أعتى الْمشكلات والصِّعاب فهو يُجاهد في سبيل هدفٍ سامٍ أعلى و يُغض بصره عن الأهداف الدّنيئة الْقذرة.[1]»

كما أنّ لِلْعقيدة أهَميةٌ عظمى في حياة الفرد فلها أثرٌ كبيرٌ في السيْر الْحسن للنظام والاستقرار على مستوى الْمجتمع وأكّد د دراز في هذا الْمعنى : « لا حاجة لنا إلى التّنبيه على أنَّ الْحياة في جَماعةٍ لا قيامَ لَها إلاَّ بالتعاون بين أعضائها وأنَّ هذا التعاونَ إنّما يتمُّ بقانونٍ يُنظِّم علاقتَه ويُحدِّد حقوقَه وواجباتِه وأنّ هذا القانونَ لا غنى له عن سلطانٍ نازعٍ وازعٍ. والذي نريد أنْ نثبِّتَه أنّه ليس على وجه الأرض قوّة تُكافئ قوَّة التّديُّن أو تداينها في كفالة احترام القانون وضمانِ تَماسكِ الْمجتمع واستقرار نظامه والْتئام أسباب الرّاحة والطُّمأنينة فيه، ذلك أنَّ الإنسان يَمتاز عن سائر الكائنات الْحيَّةِ بِأنَّ حركاتِه وتصرُّفاتِه الاختياريةَ يتولّى قيادَتَها شيْءٌ لا يقعُ عليه سَمعه ولا بصرُه ولا يوضع في يده ولا في عنقه ولا يَجري في دمه ولا يسري في عضلاته وأعصابه وإنّما هو معنى إنساني روحاني اسْمه الدِّين و العقيدة.

أجل إنَّ الإنسان يُساق من باطنه لا من ظاهره وليست قوانينُ الْجماعات ولا سلطان الْحكومات بكافيَيْن وحدهُما لإقامة مدينة فاضلة تُحترَمُ فيها الْحقوق وتُؤدّي الواجبات على وجهها الكاملِ.

[1]– كتاب الإسلام يتحدّى، لِوحيد الدِين خان – صـ 186

فإنّ الذي يُؤدّي واجبَه رهْبةً من السوط أو السجن أو الْعقوبة الْمالية لا يَلبث أنْ يُهمله متى اطمأَّن إلى أنّه سيفلت من طائلة القانون ومن الْخطأِ البيِّن أنْ نظنَّ أنَّ في نشر العلوم والثقافات وحدها ضمان لِلسلام والرّخاء عوضًا عن التربية والتّهذيب الديني والْخلقي. ذلك أنّ العِلمَ سلاح ذو حدّيْن: يصلح لِلْهدم والتحطيم كما يصلح لِلْبناء والتّعمير، ولا بدَّ في حسن استخدامه من رقيبٍ خلقي يوَجه لِخيْرِ الإنسانية وعمارة الأرض لا إلى نشر الشّر والفساد، ذلكمُ الرَّقيبُ هو العقيدةُ والإيمانُ [1]»

يقول العقّاد : «إنّ تَجارب التّاريخ تقرِّر لَنا أصالة الدِّين في جميع حركات التّاريخ الكبرى ولا تَسمح لأحدٍ أن يزعَمَ أنّ العقيدة الدينية شيء تستطيع الْجماعةُ أن تلغيه، ويستطيعُ الفرد أن يستغنى عنه في علاقته بِتلك الْجماعة أو فيما بينه وبين سريرته الْمطوية عمن حوله ولو كان من أقربِ النّاس، ويقول لنا التّاريخ أنّه لَم يكن قطّ لعاملٍ من عوامل الْحركة الإنسانية أثرٌ أقوى وأعظمُ من عامل الدِّين وكل ما عداه من العوامل الأخرى في حركات الأمم فإنّما تتفاوت فيه القوّة بِمقدرة ما بينه وبين العقيدة الدينية من الْمشابَهة في التَّمكُّن من أصالة الشعور وبواطن السريرة.» [2]

ركّز القرآن الكريم على أهَمية العامل العقائدي في السيْر الْحسن للدول والْمجتمعات فقال عزّ من قائلٍ :﴿مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَـٰقَوْمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ ﴾[3] وأنّه إذا فقدت هذه اللبنة في أساس بناء هذه الدُّوَل والْمُجتمعات رغمَ قوَّتِها وبأْسِها فإنّها ستنهار، ولشيخ الإسلام قول في هذا إذ قال :« فإِنَّهُ إِذَا ظَهَرَتِ الْبِدَعُ الَّتِي تُخَالِفُ دِينَ الرُّسُلِ اِنْتَقَمَ اللهُ مِمَنْ خَالَفَ

[1]- أخلاق القرآن ، لدراز – ص98-99

[2]- حقوق الإسلام وأباطيل خصومه، لِعبّاس محمود العقاد، دار الكتاب العربي، ط 3، 1966م، –ص 15

[3]-آياتان 32/31 من سورة غافر

الرُّسُلَ وَانْتَصَرَ لَهُمْ» وجُملة القول أنّ العقائد والأديان تَحمل من الْمجتمعات مَحلّ القلب من الجْسد وأنّ الَّذي يُؤرِّخ الديانات كمن يُؤَرِّخ لِلشعوب وأطوار الْمدنياتِ.[1]

لقد بيّن الْحقّ سبحانه وتعالى في كتابه العظيم وحدةَ الأصول واتّفاق الرسالات وأنّ أهداف الرسلِ صلواتُ الله عليْهم جَميعًا كان واحدًا لِقولِه تعالى :﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ كَبُرَ عَلَى ٱلۡمُشۡرِكِينَ مَا تَدۡعُوهُمۡ إِلَيۡهِۚ ٱللَّهُ يَجۡتَبِيٓ إِلَيۡهِ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ ﴾[2] غير أنّ الّذي يدرس العقيدة الْيهودية يرى ويتأكّد أنّها حرّفت وبُدِّلت إذ أتت بمعنى خاصٍّ للإله وأعطتْ صورًا بشعةً قذرةً عن صفوة الْخلق وهمُ الأنبياء عليهم أفضل الصلاة والسلام فيتضح لنا جليًّا أنّ رسالةَ سيّدنا موسى والأنبياء من بعده قد حرّفت ففسدت عقيدتُهم مِمّا جعلهم يَحملون في أعماقهم خصائصَ نفسيةً معقّدةً تنطَوي على أخلاق في غاية الالتواء، وقد تَحدّث القرآنُ الكريمُ عن تلك النفسية الْيهودية أو الشخصية الْيهودية في الكثير من سور القرآنِ الكريم .

3.5–سوء أدب بني إسرائيل مع الله وملائكته وأنبيائه

1°) تَجسيم الإله والشرك في الربوبية

إنّ اليهود فضَّلوا الوثنيةَ على التّوحيد وشهِد عليهم القرآن الكريمُ بِهذه الصفة القبيحة في عدّة آيات من سورٍ مُختلفةٍ فتارة يُخبرنا الْحقُّ تبارك وتعالى عن طلبِهم لسيِّدنا موسى عليه السلام بِأن يَجعلَ لَهم عِجلاً يَعبدونه من دون الله وتارةً يُصوِّر لنا الْخالق البارئ عزّ وجلّ كيف تمَّ صنع العجل وكيف

[1]- أخلاق الإسلام، محمّد دراز ص.92

[2]- آية 13 من سورة الشّورى

عبدوه في سورٍ أخرى (ثُمّ) بيَّن لنا الرّحْمن الرّحيم كيف كان أحبارُهم يُفضِّلون الوثنيةَ على التوحيد فأقرّوا عبادةَ الْجِبت والطّاغوت على عبادة الواحد الأحد.

عند ما انتهتِ الْمرحلة الأولى من مهمّة سيِّدنا موسى عليه السلام وهي إنقاذ بني إسرائيل من عبودية فرعون وملئه والسير بِقومه إلى بيت الْمقدس، بدأتْ تظهر جليًّا تلك النفوسُ الْمريضةُ وهي تشرع في خطواتِها الأولى لِتواجه الْحريَّةَ بعد أن تعوّدوا على الذُّلّ لِغير الله فانطوت نفوسهم الْمهزومة على الإعجاب بِمن هزموهم، ففسدت فطرتُهم وتبيَّن ذلك عندما امتحنهم عالِمُ الغيب والشهادة بعد شقِّ البحر وموت فرعون غرقًا أمام أعينهم، فلمّا مرّوا على قومٍ يعبدون الأصنام طلبوا من سيِّدنا موسى عليه السلام أن يَجعلَ لَهم إلَهًا يعبدونه مثل الّذين مرّوا عليهم في طريقهم، مصداقًا لِقوله تعالى: ﴿وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتَوۡاْ عَلَىٰ قَوۡمٖ يَعۡكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصۡنَامٖ لَّهُمۡۚ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ قَالَ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ ١٣٨ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٞ مَّا هُمۡ فِيهِ وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٣٩ قَالَ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡغِيكُمۡ إِلَٰهٗا وَهُوَ فَضَّلَكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٤٠﴾[1] حينئذٍ اِهتزّت عقيدةُ التوحيد في نفوسهم بِطلبِهم هذا ولهذا السّبب كان لا بدَّ من منهاجٍ مُفصَّلٍ لتربية هؤلاء القوم وإعدادِهم لِما هم مقبلون عليه ومن أجلِ هذا كانت مواعدةُ اللهِ لِعبده موسى عليه السلام لِيلْقاه فقال العليمُ الْخبير :﴿ وَوَٰعَدۡنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيۡلَةٗ وَأَتۡمَمۡنَٰهَا بِعَشۡرٖ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗۚ

[1] -آيات 140/139/138، سورة الأعراف

وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخۡلُفۡنِي فِي قَوۡمِي وَأَصۡلِحۡ وَلَا تَتَّبِعۡ سَبِيلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿١٤٢﴾ ﴾[1]

وبعد هذه الْمواعدة مع مَنْ لا ندَّ ولا شريكَ له أخبر الْحقّ سبحانه وتعالى سيِّدَنا موسى عليه السلام فيما وقع فيه قومه من شركٍ وظلمٍ إذ ظلموا أنفسَهم باتِّخاذهم العجل إلهًا يعبدونه من دون الله فقال لَهم كليمُ الله غاضبًا أشدَّ الغضب:﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلۡعِجۡلَ سَيَنَالُهُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَذِلَّةٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُفۡتَرِينَ ﴿١٥٢﴾﴾[2] وتابع كلامَه عنهم قائلاً: ﴿يَسۡـَٔلُكَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيۡهِمۡ كِتَٰبٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِۚ فَقَدۡ سَأَلُواْ مُوسَىٰٓ أَكۡبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓاْ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلۡمِهِمۡۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُواْ ٱلۡعِجۡلَ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ فَعَفَوۡنَا عَن ذَٰلِكَۚ وَءَاتَيۡنَا مُوسَىٰ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينٗا ﴿١٥٣﴾﴾[3].

وأثناء غيبةِ سيِّدِنا موسى عليه السلام في جبل الطور لِمناجاة خالقه وباعثه لِتلقّي التوراة وقع من بني إسرائيل ما قد نَهاهم عنه نبيُّهم قبل ذهابه إلى الْميقات وما نَهاهم سيِّدنا هارونُ عنه ألا وهو اِتِّخاذُهم العجلَ إلهًا من دون الْخالق الْجبّار الذي وبّخهم أشدَّ التوبيخ قال:﴿وَٱتَّخَذَ قَوۡمُ مُوسَىٰ

[1] -آية 142، سورة الأعراف

[2] - الآية 152، سورة الأعراف.

[3] -آية 153، سورة النساء

مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِنۡ حُلِيِّهِمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٌۚ أَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمۡ وَلَا يَهۡدِيهِمۡ سَبِيلًا ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُواْ ظَٰلِمِينَ ١٤٨ ﴾[1]

إنّ القرآن الكريم فصّل لنا موقفَ أحبار اليهود وعلمائهم من دعوة الْحقّ فقد كانوا رغم علمِهم بالتّوراة يُصدِّقون بالْجبت والطّاغوت فمالوا واختاروا الوثنيةَ على التوحيد والباطل على الْحقّ:﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡجِبۡتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَٰٓؤُلَآءِ أَهۡدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا ٥١ ﴾[2] ثُمّ قوله تعالى : ﴿قُلۡ هَلۡ أُنَبِّئُكُم بِشَرّٖ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيۡهِ وَجَعَلَ مِنۡهُمُ ٱلۡقِرَدَةَ وَٱلۡخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَۚ أُوْلَٰٓئِكَ شَرّٞ مَّكَانٗا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ٦٠ ﴾[3].

كما إنّهم قومٌ نسبوا أنفسَهم بالبنوة إلى الله عزّ وجلّ في قوله عنهم : ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحۡنُ أَبۡنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥۚ قُلۡ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُمۖ بَلۡ أَنتُم بَشَرٞ مِّمَّنۡ خَلَقَۚ يَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَاۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ١٨ ﴾[4] ففي هذه الآية الكريمة يُبيِّن لنا مُجيبُ الْمضطرّين جملة من

[1]-آية 148، سورة الأعراف

[2]- آية 51، سورة النساء

[3]- آية 60، سورة الْمائدة

[4]- آية 18، سورة الْمائدة

الترهات والأباطيل التي تعيشها مجموعة منَ اليهود و النّصارى، فيُوضِّح لَهم الرّبُّ العليمُ أنّهم بشرٌ من خلقه وأنّ نسبَتهم إلى الله تعالى نسبةُ مَخلوقٍ إلى الْخالق وأنّ سنّتَه سبحانه وتعالى تَجري عليهم كما هو شأنُ جَميع البشرِ فمَن عمِل صالحًا فله الْحسنى ومن عمِل سيِّئًا فسيجزى به. ولِهذا ادّعوْا البنوّة[1] إلى الله عزّ وجلّ كما أنّ سوءَ أدبِهم مع ربّ السماوات والأرض أدّى بِهم إلى تَجسيم الْخالق سبحانه وتعالى وإعطائه صفات الآدميِّين إذ جاء في التوراة : «فبقي يعقوب وحده وصارعه إنسان حتّى طلوع الفجر ولَمّا رأى أنّه لا يقدر عليه ضرب حقّ فخذه فانْخلع حقُّ فخذ يعقوب في مصارعته معه. وقال «أطلقني لأنّه قد طلع الفجر» فقال «لا أطلقك إن لم تباركني» فقال: «ما اسْمك؟» قال «يعقوب» قال: « لا يدعى اسْمك في ما بعدُ يعقوب بل إسرائيل لأنّك حاربْت الرّبَّ والناسَ وانتصرْتَ» وسأل يعقوبُ وقال: «أخبرني باسْمك» فقال: «لِماذا تسألني عن اسْمي؟» وباركه هناك فدعا يعقوبُ اسْمَ الْمكان فنيئيل قائلا لأنّي نظرتُ الله وجهًا لوجه وأشرقتْ له الشمس فعبر فينئيل وهو يَجمع على فخذِه؛ لذلك لا يأكل بنو إسرائيل عرق النسا الذي على حقّ الفخذ إلى اليوم لأنّه ضرب حقّ فخذ يعقوبَ على عرق النسا.[2] »

نسب كتبةُ التَّوراة الْمحرَّفةِ وأعطوْا لِلْحيِّ الّذي لا يَموت صفاتٍ لا تليق بِجلالتِه في حين أكّد تعالى عن نفسه قائلاً:﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾[3] فتَجرَّؤوا بِوقاحةٍ ما فوقها وقاحة ومنحوا لِلْقويِّ القديرِ التعبَ إذ ورد في التّوراة : « فأكملتُ السّموات والأرضَ وكلّ جندها وفرغ الله في اليوم السابع من عملِه الذي عمِل فاستراح في اليوم السابع من جَميع عملِهِ الذي عمل وبارك الله اليوم السّابع وقدّسَهُ لأنّه استراح من جَميع عملِه الذي عمل الله خالقًا [4]» فالْيهودُ وصفوا القويَّ بِأنّهُ تعِب بِخلق السماوات والأرض تعالى الله عما يقولون إذ يقول سبحانه وتعالى وهو يُصرِّح بِهاتيْنِ الآيتيْن

[1]- تفسير السعدي، صفحة 245

[2]- سفر التكوين، الإصحاح 22– الفقرة(32/24)

[3]- جزءٌ من آية 11، سورة الشّورى

[4] -سفر التكوين، الإصحاح 2، الفقرة 1-3

الكريمتيْن :﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَـٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾﴾[1] قال أيضًا:﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾﴾[2].

كان اليهود يظنون في أنفسهم امتيازًا وتفوُّقًا على سائر الْخلق بِسبب أسلافهم الأفاضل الْمشهورين بالورع، الْبعيدين عن الْمعاصي من الأنبياء حتّى انتهوْا في تعظيم أنفسِهم فاليهود يروْن أنّ مُنزِّل الذِّكر الْحكيم عزّ وجلّ يُخطِئ ثُمَّ يندم على أفعاله وقراراته السابقة فقد جاء في التوراة : « فندم الربُّ على الشرِّ الذي قال إنّه يَفعل بشعبه [3]»

إلى درجةٍ أنَّهم قالوا :نَحْن أبناءُ الله وأحبّاؤُهُ فنعتوه تارَة بالعجز وتارة بالفقر وافتخروا بِغناهم مصداقًا لقوله تعالى :﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ﴾[4]، وتارةً أُخرى بِالْبخل ناسين بُخلَهم عن فعل الْخير فحذّرَهم الْمنعم القدّوس بِقوله :﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَـٰنًا وَكُفْرًا ۚ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ كُلَّمَآ أَوْقَدُواْ

[1]- آية 33، سورة الأحقاف

[2]- آية 38، سورة ق

[3]- سفر الْخروج، الإصحاح 32، الفقرة 14

[4]- جزءٌ من آية 181، سورة آل عمران

نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ۚ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾[1]

هذه بعضُ الافتراءات الّتي زعمها اليهود عن صاحب العرش الْعظيم جلَّ في علاه والتي ذُكرَت فيما أُوحِيَ إلى سيِّدِ الْخلق صلّى الله عليه وسلّم لِتفضِح شركَهم وسوء طويتِهم، فتوراتُهم رغم تَحريفها تشهد عليْهم بِشركِهم و ظلمِهم و سوءِ أدبِهم تُجاه بديع السّماوات والأرض، حينئذٍ تتّضح جرأةُ اليهودِ على الله سبحانه وتعالى، زعموا أنّ لَهم إلَهًا خاصًّا بِهم لا يُشارِكُهم فيه أحدٌ غيرُهم ثُمّ أَطلقوا عليْه اسْمَ يَهوه واعتبروه إِلَهَ اليهود وحدهم فقد جاء في التوراة : « قال الله لِموسى هكذا تقول لِبني إسرائيل يهوه إلَه آبائكم، إلَه إبراهيمَ وإلَه إسحاقَ وإلَه يعقوبَ أرسلني إليْكم، هذا اسْمي إلى الأبد وهذا ذكْري إلى دورٍ فَدورٍ [2]»وكانوا يعتقِدون أنّ هذا الإلهَ إلهٌ قوميٌّ خاصٌّ بِهم تكلَّمتِ التّوراة عنه فسجّلت : « لأنّك أنت شعبٌ مُقدَّسٌ لِلرّبِّ إلَهِك إيّاك، قد اِختارَ الرَّبُّ إلَهُك لِتكون له شعبًا أخصّ من جَميع الشعوب الَّتي على وجه الأرض [3]» و زادت في نوع هذا الْحديث، على لسان نفس الرّبّ: «اعترف قائلاً: « ندمتُ على أنّي جعلتُ شاول ملكًا لأنّه رجع من ورائي و لَم يُقم كلامي[4]» ثُمّ أضاف : «فحزن الربّ أنّه عمل الإنسان في الأرض وتأسّف في قلبه فقال الربّ : لأنّي حزنتُ أنّي عملتُهم[5]» فاليهود يروْن أنّ مُنزِّل الذِّكر الْحكيم عزّ و جلّ يُخطِئ ثُمَّ يندم على أفعاله وقراراته السابقة

[1]- آية 64، سورة الْمائدة

[2]- سفرالْخروج، الإصحاح الثالث، الفقرة 15 من كتاب العنصرية اليهودية، الْجزء الثاني، ص 155

[3]- سفر التثنية، الإصحاح السابع، الفقرة 6، نفسه الصفحة 156

[4]- صموؤال 1-(15/10)

[5]- سفر التكوين، 6-(7/5)

فقد جاء في التوراة : « فندم الربُّ على الشرِّ الذي قال إنّه يَفعل بشعبه[1]»، فصرَّح الربُّ عن ندمه الْعميق وتنازله عن نية معاملته الشرِّيرة للشعب الذي اختاره لنفسه .

ومن خلال هذا العرضِ الوجيز تتَّضح لنا جرأةُ اليهود في الذات الإلَهية و يَظهر لنا مدى انْحرافِهم في تصوُّر لِمقام الأُلُوهيةِ؛ فالصمد الّذي لَم يلد ولَم يولد أطلعنا على رذيلةٍ عجيبةٍ من رذائل اليهود وهي عداوتُهم بل كراهيتُهم لِمَلَكٍ من ملائكة الرّحْمن فأكّد الواحد الديّان:﴿قُلۡ مَن كَانَ عَدُوّٗا لِّجِبۡرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلۡبِكَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَهُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ٩٧ مَن كَانَ عَدُوّٗا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبۡرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوّٞ لِّلۡكَٰفِرِينَ ٩٨﴾[2].

2°)عداوة بني إسرائيل لجبريل عليه السلام:

تقوم عقيدتُهم على التّفريق بين الْملائكة فميكائيلُ عليْه السلام وليُهم وجبريلُ سفير الإلَه إلى خاتِم الأنبياء والْمرسَلين عليْه السلام هو خصمُهم الْمكروه شديد الكراهة وهذا بغضُهم الْمبالَغُ فيه ليسَ له أيُّ إشارةٍ في التوراة ولَكِّنها ظهرت _ تلك العداوة_ في نصوص التلمود وذلك لأسبابٍ عدّة منها :

1°) إدّعاء اليهود أَنّ جِبريلَ عليه السلام ضدَّهم لِكونه يَنزِلُ بالشدَّة والْهلاك فعن عبدِ الله بن الْعبّاس –رضي الله عنهما – قال :« أقبَلتِ اليهود على رسول الله (ص) فقالوا يا أبا الْقاسم....فإنّه ليس

[1]- سفر الْخروج، الإصحاح 32، الفقرة 14

[2]- آيتان 98/97، سورة البقرة

من نبيٍّ إلا له مَلَكٌ يَأتيه بالْخبر، فأَخبِرْنا مَن صاحبُك؟ قال جبريلُ قالوا جبريلُ ذاك الذي ينزل بالْحربِ والْقتالِ والْعذاب فهو عدوّنا لو قلتَ ميكائيل الذي ينزل بالرّحْمة والنبات والقطر لكان....[1]»

2°) اِدِّعاؤهم أنّ جبريل عليْه السلام يُطلع محمّدا(ص) على أسرارهم فعن قتادةَ رحمه الرّحمن قال : «ذُكِر لنا أنّ عمر بنَ الْخطّاب اِنطلق ذات يوم إلى اليهود فلَمّا أبصروه رحّبوا به فقال لَهم عمر أَما واللهِ ما جئت لحبكم وللرغبة فيكم ولكن جئتُ لأسْمعَ منكم، فسألَهم وسألوه فقالوا مَن صاحبُ صاحِبكم قال لَهم جبريلُ فقالوا ذاك عدوّنا من أهلِ السماءِ يُطلع مُحمّدًا عن سرِّنا وإذا جاء جاء بالْحرب ولكن صاحب صاحبنا ميكائيل وكان إذا جاءَ جاء بالْخصب وبالسلم، فقال لَهم عمر أَ تعرفون وتنكرون مُحمّدًا، ففارقهم عمر عند ذلك وتوجَّه نَحو رسول الله (ص) لِيُحدِّثه حديثَهم فصادف نزولَ هذه الآية من سورة البقرة:﴿قُلۡ مَن كَانَ عَدُوّٗا لِّجِبۡرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلۡبِكَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَهُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ٩٧﴾

3°) اِدِّعاؤهم أنّ جبريل خان الأمانةَ وذلك بنقل الرسالة الإلَهية الْخاتِمة من بني إسرائيل إلى مُحمّد وهو من بني إسْماعيل؛ فعن مقاتل رحمه الله تعالى قال: قالتِ اليهود إنّ جبريلَ عدوُّنا أُمِر أنْ يَجعلَ النبوّةَ فينا فجعلها في غيرنا[2].

وبناءً عن ذلك يبدو لنا أنّ اليهود في عهد النبيِّ لَم يَخفوا عدوانَهم لِجبريلَ عليه السلام وسببُ ذلك يرجع إلى حسَدهم وغيْظهم من جبريل عليه السلام لأنّه أُمِر بِإنزال القرآن الكريم على

[1] – العنصرية اليهودية و آثارها في المجتمع الإسلامي و الموقف منها، د أحمد بن عبدالله بن إبراهيم الزغيبي، مكتبة العبيكان، ط1، 1418=1998، الرياض، ص182

[2] المرجع السابق، ص183

مُحمّد(ص) الّذي لَمَ يكنْ من بني إسرائيل إنّما هو من ذرية سيِّدِنا إسْماعيل عليه الصلاة والسلام فهاتان الآيتان 98/97 من سورة البقرة) برهنتا بوضوحٍ لا شكَّ ولا ريب على كفرِ وجهل اليهود.

3°) سوء أدب بني إسرائيل مع رُسُل الله عليهم السلام :

أخبرنا الْخالقُ القديرُ سبحانه وتعالى عن نظرة اليهود لِلأنبياء، فكان موقفُهم دائمًا يحكمه الْهوى الْمنحرف فيُؤمنون ويصدِّقون جَميع ما يتماشى مع ميولِهم وشهواتِهم ومصالِحَهم وأمّا غيرُ ذلك فهو مرفوض، لنا في الْكتاب آياتٌ كثيرةٌ تُلقي الضوءَ الساطع على مزاجهم الْمضطرب كقوله : ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَـٰتِ وَأَيَّدْنَـٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾[1] وفي نفس الْمعنى كرّر :﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾[2] ثُمّ أعاد الفكرة عينَها فأخبرنا :﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا ۖ

[1] آية 87 من سورة البقرة

[2] – آيتان 22/21، سورة آل عمران

كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُواْ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾[1]

هكذا صوَّرت لَنا هذه الآياتُ تلك النُّفوسَ الْمريضةَ غيرَ الْمستقيمة والبعيدةَ عن الصواب والتي جُلبتْ على العادات الْخبيثةِ السِّلبيةِ وهذا ما جعلهم يقابلون و يتصرّفون مع أنبياء الله تارةً بالتكذيب والاستكبار والْمكر وتارةً بالطرد والنفيِّ والْقتل وهذا دليلٌ على أنّهم بلغوا من الفساد ذروتَه فقستْ قلوبُهم حتّى صارت أشدَّ قسوةً من الصخور والْحجارة كما صورها لنا الحق سبحانه وتعالى، وكانوا كلّما اجتهد الرسل في وعظهم وهدايتهم إلى سُبل السلام والنّجاة ازدادَ اِستهزاؤُهم وتكذيبُهم وعصيانُهم وكفرُهم إلى إنْ ينتهيَ الأمر بِهم إلى قتلِ هذه النفوس الطاهرة الآمرة بالْمعروف وناهية عن الْمنكر.

إنّا نلمس في العهد القديم –وهو الْجزء الأوّل من الكتاب الْمقدَّس لدى اليهود والنصارى – صورًا مُضطربة لأنبياء الله ورسله عليْهم وعلى رسولنا أَزْكى الصلاة وأفضل السلام ولقد تعرّض كتبتُه من اليهودُ برئاسة عزرا الورّاق بالْقدح في قصصٍ نسجوها من أخْيِلَتِهم – لا صحَّة فيها ولا أساس– عن أولئك الأنبياء الأطهار الّذين يُحقّق لَهم النيل منهم لأهدافٍ تَخدم مصالِحهم الدُّنياوية العامّة منها والْخاصّة ومن مثل ذلك ما يأتي :

1°) اتّهام سيّدنا نوح عليه السلام بالْسكر والتعري فأبصره ابنُه حام، وهو جدّ الكنعانيين، عورةَ والده فغضب النبيُّ ولعن حام وجَميع ذريته من الكنعانيين.

2°) اِتِّهام سيّدنا لوط عليه السلام بكثرة شرب الْخمر ثُمّ تعاطيه إلى الزنا ببنتيْه بعد مؤامرة دبّرتاها فباشر الكبرى التي أَنْجبت منه مؤاب وكُرّرتْ الْعملية مع الصغرى فولدت منه عمونا.

[1]– آية 70، سورة الْمائدة

فالعهدُ القديمُ يَحكي لنا الكثيرَ من نوع هذه القصص الْخيالية الكاذبة وحتّى الأنبياء الإسرائيليين لَم ينجوا من هذا التحريف والتغيير فقد طعنهم اليهود في كرامتهم وعِزّتِهم والغرضُ من هذا تشجيعُ الْجمهور على الرذيلة والْمكر والْخداع ثُمّ نشرها وتعميمُها في الْمجتمع، نسبوا هذه الصفاتِ الْخبيثةَ لِصفوة الخلق وهم الأنبياء فكيف بعامّة الناس الّذين لَم يهتدوا بنورِ الإيمان كما أنّهم لَجأوا إلى هذه القصص لأهدافٍ اقتصادية وسياسية تَخدم مصالِحَهم الدنيوية الهابطة [1] مثل انتشار الربا وأكلِ أموال النّاس بالباطل ومنها كذلك الْمقاصدُ السياسيةُ كالْخضوع لِذوي السلطة العليا في ميدانَيِ الإداري والدِّيني، فشهدت الآياتُ القرآنيةُ العديدة وحتّى توراتُهم الْمزيَّفة هذه العاداتِ الّتي اتّسمتْ بِها تلك النّفوسُ الْمعتلّة وهي اِفتراءاتِهم الباطلة الظالِمةِ التي ألصقوها بمُنزِّلِ الكتاب وملائكته الأطهار الكرام الْمقرّبين وأنبيائه ورسله الأصفياء الفضلاء.

4.5– استحلال بني إسرائيل مَحارمَ الله و جحودُهم الْحقَّ بعد بيانه :

استكَان بنو إسرائيل إلى رذائلَ خبيثةٍ نتيجة فسوقهم وعصيانِهم وكفرِهم وضعف إرادتِهم فاحتَالُوا على مَحارمَ الله فعمدوا إلى هدم الشريعة قصدين إزالةَ الشريعةَ الْمنزَّلة من السماء ومَحوَها بغيةَ الوصول إلى إشباع كلّ شهواتِهم، وتَحْقيقًا وتلبيةً لِمطامعِهم، وإنَّهم ضنّوا أنّهم سينجون من العقاب إذا تَحايلوا على مَحارم الله ولنا في قصّة أصحاب السبت الَّتي ورد ذكرُها في الفرقان خيرُ دليل على هذه النفوسِ الْمريضةِ التي تتلاعب بأَوامرَ من يَحول بين الْمرء وقلبه سبحانه وتعالى، والعبرةُ من تلك القصَّة أنّ اليهود قاموا بأعمال لا تُجدي لَهم نفعًا ولا جزاءً عند ذي العلم الأزلي فأهْملوا معتمدين الوصايا الإلَهية وضربوا بِها على عرض الْحائط، وهدفُهم الأسْمى من مُمارساتِهم الْمختلفة في شتّ الْميادين يَكمُن في تَجسيدهم أغراضِهم الْخسيسة في الْحياة الدُّنيا الفانية.

[1]– ينظر، العنصرية اليهودية، الْجزء الثاني، صفحة 222

يقول ملك يوم الدّين :﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْاْ مِنكُمْ فِي ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِئِينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾[1] ثُمّ تكرّمَ عليْهم بتفاصيلَ إضافيةٍ هامّةٍ فيما يَخصُّ تلك القصّة فأكّد : ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ ۙ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ۙ ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ قَالُواْ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ ﴾[2] و يَظهرُ من خلال آيتي سورة البقرة أنّ مُخرجَ الْميِّتَ منَ الْحيِّ، يُخاطبُ يهودَ الْمدينة الْمنوّرة الْمعاصرين لِلبشير النذير عليه الصلاة والسلام يُخاطبهم عمّا صدر من أجدادهم الأقدمين من أعمالٍ شنيعةٍ فصيَّرهم قردةً خاسئين وكان هذا العذابُ عبرةً لِمن يَخافُ ويخشى مخرج الْحي من الْميّت؛ ومن جهةٍ كان العليمُ بِما سيكون، قد سبق له أن طلب من اليهود بل أكّد لَهم أن يَجعلوا يومًا من أيّام الأسبوع، وهو يوم السبت، يُخصِّصونه لِعبادتِه الْخالصة وحرَّم عليهم أثنائه كلَّ عمل كبيرًا كان أوِ صغيرًا، نافعًا أَوْ غيرَ مُفيدٍ وكان الْمعنيون بِهذه القصّة يعيشون في قريةٍ على شاطئ البحر وكان مصدرهم الاقتصادي الرئيسي يعتمد،

[1]- آيتان 66/65 من سورة البقرة

[2]- آيات 165/164/163 من سورة الأعراف

قبل كلِّ شيءٍ، على اصطيادهم السمك فعَزَمَ صاحبُ كلّ الْكرامات جلّ في علاه أن يُجرِّب ويَمتحِنَ إيمانَهم فغيَّب الْحيتانَ من على سطح البحر إلى أعماقه طيلة الأيام الستّة من الأسبوع ثُمّ أعادَها كثيرةً إلى الأعلى الظاهر من البحر يومَ السبت.

ثُمّ يُمكِننا أن نستنتج بوضوحٍ تامٍّ من آيات الأعراف أنّ قاطني هذه القرية انقسموا إلى فئاتٍ ثلاثة معظمهم عددًا مكروا وأهْملوا وتناسوا أمر الْخالق البارئ فوضعوا يوم سبتهم على الساحلِ الشبّاكَ تقعُ فيها السمك، بكميَّة مُرتفعة وحين يَتبيَّن الْخيطُ الأبيض من الْخيط الأسود من فجرِ يوم الأحد يذهبون إلى شبّاكهم ويَجمعون بكلّ سهولة ومن غير جُهد، منَ السمكِ مقدارًا غزيرًا أكثرَ منَ الْحصى مِنْ تلك الشبّاك، وكانتِ الفئة الثانية مطيعةً لربِّ الفلق ولكنها كانت تنظر تصرُّفات الْمجموعة الكبيرة ولَم تقل لَهم شيئًا، بينما تدخَّلت الفئةُ الثالثةُ ووبّخَتْ ولامتْ ونَهَتْ العصاةَ الْمتمرِّدين وأعادت إلى ذاكرتِهم أنّهم استعملوا ولَجَأوا إلى الْحيلة مع ربّهم والْمفروضُ عليهم احترامُ الأوامر والنّواهي بِمراعاتِها ظاهريًّا وباطنيًّا، ونلاحظ في هذه القصّة كيف أن ربّ الناس شدَّدَ على بني إسرائيل في أمر تعظيم السبت وحرمة العمل فيه وهذا ما نلمسُه في الأسفار الْخمسة لِسيِّدنا موسى عليْه السلام ومن ذلك ما ورد : « اذكرْ يوم السبتِ لِتقدِّسَه، ستّة أيام تعملُ و تصنعُ جَميعَ عملك، وأمّا اليومُ السابع ففيه سبتُ للربِّ إلَهِك لا تصنعْ عملاً ما، أنتَ ولا ابنك ولا بنتك ولا عبدك ولا أمتك ولا بَهائمك ولا نزيلك الذي داخل أبوابك [1] » و قد جاء في الإصحاحِ الخامس عشر من سفر العدد ما نُسِب إلى نبيِّ بني إسرائيل[2] قوله : « ولما كان بنو إسرائيل في البرية وجدوا رجلا يَحتطبُ حطبًا في يوم السبت فقدّمه الّذين وجدوه إلى موسى وهارون وكلِّ الْجماعة' فوضعوه تَحتَ المحرس لأنّه لَم يعلن ماذا يفعل به

[1]- سفر الْخروج، 20-(10/8)

[2]- الأساس في التفسير-الجزء4-عبد القادر محمود البكار، دار السلام، الطبعة 1404=1985، القاهرة مصر، الصفحتان : 213 و 358

فقال الرّبُّ لِموسى : قتلاً يُقتَل الرّجل، يرجُمه بحجارة كل الْجماعةُ خارجَ الْمحلّة، فأخرجه كل الجماعة إلى خارج المحلة ورجَموه بحجارة كما أمرُ الرّب موسى.[1]»

نتج عن هذا الاعتداءِ أنّ الله مسخهم قردة، كان ذلك الاعتداء، في نفس الوقت، عبرة لِذريتهم وموعظة لِكافَّة الْمؤمنين شرح سيِّد طنطاوي هذا الْموقفَ السِّلبيَ بقوله : « عن بعض الأئمة ففي هذا زجرٌ عظيمٌ لِمن يتعاطى على الْمناهي الشرعية، مِمن يلتبسُ بعلم الفقه وهو غيْر فقيهٍ، إذ الفقيه من يَخشى الله تعالى بِحفظِ حدودِه، وتعظيمِ حرماته، والْوقوفِ عندها، وليس الْمتحايلُ على إباحة مَحارمه، وإسقاط فرائضه، ومعلوم أنَّهم لَم يستحلّوا ذلك تكذيبًا لِموسى –عليْه السلام– و كفرا بالتوراة، وإنَّما هو استحلالُ تأويلٍ، واحتيالٌ ظاهره ظاهر الإيفاء، وباطنُه باطنُ الاعتداء، ولِهذا مسخوا قردة، فلمّا مُسِخَ أولئك الْمُعتدون دِين الله تعالى بحيث لم يتمسّكوا إلاَّ بِما يُشبِه الدِّين في بعض مظاهره دون حقيقته، مسخهم سبحانه قِردة يشبهونهم في بعض ظواهرهم دون الْحقيقة جزاء وفاقا [وفي الْحديث النبويِّ الشريف :"لا تَرْتَكِبوا ما ارتكبتِ اليهود، وتستحلُّوا مَحارمَ الله بأدنى الحيل"[2]] »[3]

وفي الصحيحيْن عن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ رسولَ الله[4] قال : " قاتل الله اليهود حُرِّمت عليهم الشحوم فباعوها وأكلوا ثَمَنَها ." وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما قال : بلغ عمر، رضي الله عنه، أنّ سَمرة باع خَمرًا فقال قاتل الله سَمرة، أَلَم يعلَم أنَّ رسول الله قال :"لعن اللهُ اليهودَ حرِّمت عليهم الشحوم فجملوها –أي أذابوها–فباعوها.[5]" وبِهذا تكون الآياتُ القرآنية قد دمغت العادين في السبت من اليهود برذيلة الْجهالة وضعف الإرادة وتَحايلهم القبيح على استحلال مَحارم نواهي صاحب العرش

[1]– سفر العدد، 15–(36/32)

[2]– إغاثة اللّهفان–الجزء 1– الصفحة 358

[3]– بنو إسرائيل في القرآن والسنة، محمد سيد الطنطاوي، ص 439

[4]– صحيح البخاري :باب إيذاب شحم الميِّت– الجزء الثالث–الصفحة 102

[5]– صحيح البخاري :باب إيذاب شحم الميِّت– الجزء الثالث–الصفحة 102

العظيم فصاروا أهلا لِغضبه العميق وعذابه الشَّديد والْمسخ الشنيع جزاءَ إمعانِهم في الْمعصية وصممهم عن سماع الْمُواعظة [1]» وقد تَحلَّوا بِما لا تُقرُّه الْمروءة، ألاَ هي نكرانُهم وجحودُهم الْحقَّ بعد معرفته، وتكرّر وصفهم بِهذه الظاهرة السيِّئة في آياتٍ كثيرة من الفرقان من جُملتها قول من لا تأخذُهُ سِنةٌ لا نومٌ :﴿وَلَمَّا جَآءَهُمۡ كِتَٰبٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٞ لِّمَا مَعَهُمۡ وَكَانُواْ مِن قَبۡلُ يَسۡتَفۡتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦۚ فَلَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾[2] ثُمّ تابع قائلاً : ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ ءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ نُؤۡمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا وَيَكۡفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلۡحَقُّ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَهُمۡۗ قُلۡ فَلِمَ تَقۡتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبۡلُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٩١﴾ ﴾[3] فزاد مُكرِّرًا: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۖ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنۡهُمۡ لَيَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ ﴾[4] ثُمّ تابع موبِّخًا:﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمۡ تَشۡهَدُونَ ﴿٧٠﴾ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَلۡبِسُونَ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٧١﴾ ﴾[5]

[1]– ينظر، بنو إسرائيل في الْقرآن و السنَّة، للدكتور محمد سيِّد طنطاوي– الصفحة :440

[2]– آية 89، سورة البقرة

[3]– آية 91، سورة البقرة

[4]– آية 146، سورة البقرة

[5]–آيتان 71/70من سورة آل عمران

ومن خلال هذه الآيات الكريمة تظهر لنا بوضوحِ الْقمرِ في ليلةٍ قمراءَ هذه الطبيعةُ الَّتي وصفها ربُّ العزّة وهي طبيعةُ الكفر، طبيعة الأثرة الضيِّقة، الّتي تظنّ أنّ كلَّ خيرٍ يُصيب غيْرَها كأنَّما هو مقتطع منها، فصار الْيهود يَحرصون على احتجاز الْخيرات لأنفسهم دون سائر الناس، فكانوا ولازالوا يكنون للناس البغضاءَ، باطنيًّا ويعانون عذابَ الأحقاد، ويحسون بالْغيظ الشديد إذا ما يرون نعمةً تُساق لغيرِ أبناء ملّتِهم.

إنّ الْمتتبِع والْمطَّلِع على جملةٍ من آيات الذكر الْحكيم، والَّتي تتحدَّث عن بني إسرائيل تُثبِتُ أنَّ اليهودَ كان لديْهم نصيبٌ من التوراة يتداولونه، وفيه بعض الْحقِّ يُمكِن أنْ يكون البداية لِتصحيح ما هم عليه، وهذا التصحيحُ يكون عبارةً عن إزال أخطائهم، وبيانِ وجه الصواب في الشريعة النهائية الَّتي أُحيتْ في مكّة الْمكرّمة على سيِّد البشر. فخاطبهم الْمولى تبارك وتعالى بِاتِّباع نبي الْهدى لأنّهم أصبحوا يُشركون بِمن وسِع كرسيُّه السّماواتِ والأرضَ، وكانوا يعرفون نصيحةَ لُقمانَ الْحكيمِ لابنه الّتي تؤكِّد وتَجزِم أنّ الشركَ ظلمٌ عظيمٌ لِذا لَم يكتسبوا أيَّ حقٍّ للانتساب لأيِّ رسول وامتنعوا، بأصّح معنى الْكلمةِ، في الالتِحاق بأيِّ ميراث روحاني وعلى الرغم من كلِّ ذلك، فإنّ كتابُ الله اعترِف أنّ لديهم بعضَ الْحقِّ، وأنَّهم على هديه، ولكن لا بدَّ لَهم من الإيمان بِمُحمَّدٍ، خاتمِ رسل الله وأنبيائه، ولكنَّ الْخلقَ الضيِّقَ الرافضَ تعصَّب وقاوم كلَّ معنويات السماء اعترض لتطبيق الْهدف الالَهي فسجّل عليهم القرآن العظيم هذه القبائح في آياتٍ متعدّدةٍ :﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلۡنَا مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبۡلِ أَن نَّطۡمِسَ وُجُوهٗا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدۡبَارِهَآ أَوۡ نَلۡعَنَهُمۡ كَمَا لَعَنَّآ أَصۡحَٰبَ ٱلسَّبۡتِۚ وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ مَفۡعُولًا ٤٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ

بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾ ﴾[1] جاء في تفسير هاتيْن الآيتيْن عند ابن جرير :

«عن ابن عبّاس رضي الله عنهما أنّ رسول الله خاطب رؤساءَ من أحبارِ اليهودِ منهم عبد الله بن صوريا و كعب بن أسد وغيرهُما فقال لَهم : {{ يا معشر اليهود اِتَّقوا الله وأسلموا فو الله أنّكم لَتعلمون أنّ الَّذي جئتُكم به لَهو الْحقّ}} فردّوا عليْه قائلين : « ما نعرف ذلك يا مُحمّد.» فجحدوا ما عرفوا وأصرّوا على الكفر، فأنزل الله فيهم هاتيْن الآياتيْن[2].

يلفتُ القرآن الكريم أنظارَ الناسِ إلى طبيعة اليهود، والّتي تتميَّز بالبغي، والعدوان، والغلّ، والْحقد، والْحسد، فهذه كلُّها أغراضٌ مَرَضِيةٌ تصيب النفس الشرِّيرة التي لَمَ يُهذِّبْها خلق ولا دين، والّتي تعد سببًا لكلِّ رفضٍ أو مقاومة قال الذي لا ينام ولا يسهى :﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾﴾[3] لقد بيَّن لنا ربُّ السماوات والأرض أنّ هذا البغي الذي كانوا يَحملونه في صدورهم هو الذي نتج عنه إنكارهم الْحقَّ وكفرهم، وعدم اعترافهم بِبعض الصواب الْمجود في توراتِهم، وهذا ما

[1]- آيتان 48/47 من سورة النساء

[2]- تفسير ابن جرير، الجزء 5 الصفحة 124 مقتبس من كتاب نبأُ بني إسرائيل، لِصابر طعيمة

[3]- آية 19، سورة آل عِمران

أكّد عليْه ربّ الفلق بقوله :﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾ ﴾[1]

لَم يدخل على التوراة تغييرٌ كبيرٌ أثناء حياة الْمصطفى صلّى الله عليه وسلَّم، وهذه حقيقة يعترف بِها التاريخ ولا ينكرها، والدليل عليها أنّه، صلاة ربّه عليه وسلامُه، كان في أغلبية وجوده مع بني إسرائيل أو مقابلاته معهم، كان يطلب منهم أن يأتوه بِها لِلتأكيد على ما احتوتْها من معلومات فإنّهم قرأوا فيها قبل البعثة الْمُحمَّديّة، قرأوا فيها يقينًا وبغير شكٍّ ولا ريبٍ، أنّ آخر الأنبياء والْمرسَلين سينزل عن قريب، وكانوا يعتقدون أنّه سيكون من سلالة أنبيائهم القدماء، وبعد تدقيقهم في الكتاب الّذي أُنزل على سيِّدنا موسى اكتشفوا أنّ الْمكان الذي يظهر فيه ويبعث منه، وأنهم لما حددوا صفات دار هجرته في كتبهم غلب على ظنهم أنها يثرب أو ما حولها، فتعمدوا أن يجعلوا فيها لأنفسهم مركز إقامة، وكانوا يعتقدون أن هذا النبي المنتظر من بني إسرائيل، وأنه سيجمع شملهم، ويعيد إليهم ملكهم ومجدهم، فكانوا يسألون الله تعالى أن يفتح عليهم بهذا النبي الذي وعدوا به على لسان الرسل، حتى يتبعوه ويقاتلوا العرب الوثنين معه، لأنهم يعلمون أن الله سيكتب له النصر والفتح. فكانوا قبل البعثة المحمدية إذا نشب نزاع بينهم وبين أعدائهم يستنصرون بالنبي عيه الصلاة والسلام وهذا كان قبل بعثته صلى الله عليه وسلم، لقول ابن عباس –رضي الله عنهما –: "كانت يهود خيبر تقاتل غطفان، فكلما التقوا، هزمت يهود، فعادت يهود بهذا الدعاء، وقالوا: إنا نسألك بحق النبي الأمي الذي وعدتنا أن تخرجه لنا في آخر الزمان إلا نصرتنا عليهم. قال: فكانوا إذا التقوا دعوا بهذا الدعاء، فهزموا غطفان، فلما بعث النبي صلى الله عليه وسلم كفروا"[2].

[1]–آية 14، سورة النساء

[2]– الجامع للأحكام، ج2، القرطبي، ص 248

ولما ظهر النبي الموعود وجاء من العرب أولاد إسماعيل عليه السلام حسدوه وكفر به عامة اليهود، أما الذين آمنوا به منهم فكانوا قلة، ولم يكن الباعث لمن كفر منهم أنّ قلوبهم لم تصدقه، فإنهم قد عرفوه بصفاته المذكورة عندهم وهذا بشهادة من كبير أحبارهم:" كان كعب الأحبار جالسا وعمر بن الخطاب –رضي الله عنه – كان موجودا، فسأله عمر أكنتم تعرفونه يا كعب؟ أي كنتم تعرفون محمد (ص) ورسالته وأوصافه؟ فقال كعب وهو حبر من أحبار اليهود ....أعرفه كمعرفتي لابني، ومعرفتي لمحمد أشد....فلما سألوه لماذا؟ قال لأن ابني أخاف أن تكون امرأتي خانتني فيه أما محمد (ص) فأوصافه مذكورة بالدقة في التوراة بحيث لا نخطئه. فأهل الكتاب يعرفون رسول الله صلى الله عليه وسلم ويعرفون زمنه ورسالته....والذين أسلموا منهم وآمنوا فعلوا ذلك عن اقتناع، أما الذين لم يؤمنوا وكفروا بما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم عرفوا ولكنهم كتموا ما يعرفونه"[1]، مصداقا لقوله تعالى:﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۖ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنۡهُمۡ لَيَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ١٤٦﴾[2]،ويقول الحق سبحانه وتعالى:﴿وَلَمَّا جَآءَهُمۡ كِتَٰبٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٞ لِّمَا مَعَهُمۡ وَكَانُواْ مِن قَبۡلُ يَسۡتَفۡتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦۚ فَلَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٨٩﴾[3]، فقد كان اليهود قبل بعثة النبي صلى الله عليه وسلم يستفتحون على الذين كفروا بأنه أطل زمن رسول سنؤمن به ونتبعه،...فلما ظهر الرسول كذبوه، وكفروا برسالته. وبالتالي نرى أن بني إسرائيل فيهم جحود مركب؛ جاءهم الرسول الذي

[1]- خواطر الشعراوي، مج 1، ص 653

[2]- سورة البقرة، آ 146

[3]- سورة البقرة، آ 89

انتظروه وبشروا به...ولكن أخذهم الكبر رغم أنهم موقنون بمجيء الرسول الجديد وأوصافه موجودة عندهم في التوراة إلا أنهم رفضوا أن يؤمنوا فاستحقوا بذلك لعنة الله...واللعنة كما قلنا هي الطرد من رحمة الله.

جاء في صحيح البخاري حديث عبد العزيز بن صهيب، عن أنس بن مالك، قال: أقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة، فقالوا: جاء نبي الله، فاستشرفوا ينظرون، إذ سمع به عبد الله بن سلام، وهو في نخل لأهله يخترف لهم منه، فعجل أن يضع الذي يخترف لهم فيها....، فسمع من نبي الله صلى الله عليه وسلم، ثم رجع إلى أهله، فلما خلا نبي الله صلى الله عليه وسلم جاء عبد الله بن سلام، فقال: أشهد أنك نبي الله حقا، وأنك جئت بالحق، ولقد علمت اليهود أني سيدهم وابن سيدهم، وأعلمهم وابن أعلمهم، فادعهم فسألهم عني قبل أن يعلموا أني قد أسلمت، فإنهم إن يعلموا أني قد أسلمت قالوا فيَّ ما ليس فيَّ.

فأرسل نبي الله صلى الله عليه وسلم إليهم فدخلوا عليه، فقال لهم نبي الله صلى الله عليه وسلم: يا معشر اليهود ويلكم اتقوا الله، فو الله الذي لا إله إلا هو إنكم لتعلمون أنّي رسول الله حقا، وأني جئتكم بحق، أسلموا، قالوا ما نعلمه، فأعادها عليهم ثلاثا وهم يجيبونه كذلك.

قال صلى الله عليه وسلم أي رجل فيكم عبد الله بن سلام؟ قالوا: ذاك سيدنا وابن سيدنا، وأعلمنا وابن أعلمنا. قال: أفرأيتم إن أسلم؟ قالوا حاشى لله ما كان ليسلم.

فقال: يا ابن سلام اخرج عليهم، فخرج إليهم فقال: يا معشر اليهود، ويلكم، اتقوا الله فو الله الذي لا إله إلا هو إنكم لتعلمون أنه رسول الله حقا، وأنه جاء بالحق، فقالوا: كذبت فأخرجهم النبي صلى الله عليه وسلم[1].

هذه بعض الأدلة من الكتاب والسنة التي تشهد على كذب وجحود الحق عند اليهود.

[1]– هداية الحيارى، ابن قيم الجوزية، ص 93

جاءت عدة بشارات في التوراة تبشر بظهور النبي صلى الله عليه وسلم، فحاول أحبار اليهود حذف هذه البشارات من كتبهم، ويزعمون أنه لا يوجد في كتبهم إشارة عن النبي صلى الله عليه وسلم وإن وجد شيء صرفه اليهود إلى المسيح الذي ينتظرونه، وهي في الواقع لا تنطبق إلا على نبي هذه الأمة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وقد بقي الشيء الكثير من هذه البشارات رغم تحريفهم لكتبهم، وقد عدّ منها "رحمة الله الهندي" في كتابه "إظهار الحق" إحدى عشرة بشارة في العهد القديم.

ففي سفر التثنية 17/18: "قال لي الرب: قد أحسنوا فيما تكلموا أقيم لهم نبيا من وسط إخوتهم مثلك، وأجعل كلامي في فمه فيكلمهم بكل ما أوصيه به، ويكون أنّ الإنسان الذي لا يسمع لكلامي فيكلمهم بكل ما أوصيه به، ويكون أنّ الإنسان الذي لا يسمع لكلامي الذي يتكلم به باسمي أنا أطالبه"

هذا النص في النبي محمد صلى الله عليه وسلم لأنه قال" من وسط إخوتهم"؛ وإخوتهم هم أبناء إسماعيل عليه السلام لأنه أخو إسحاق الذي ينتسب إليه بنو إسرائيل حيث هما ابنا إبراهيم الخليل عليه السلام.

وقال أيضا "مثلك" ومعلوم أن اليهود يرون أنه لم يقم في بني إسرائيل نبي مثل موسى حيث نصوا على هذا الأمر في سفر التثنية الإصحاح 34 فقرة 10 " ولم يقم بعد نبي في إسرائيل مثل موسى، الذي عرفه الرب وجها لوجه" وهذه الصفات تصدق على النبي محمد صلى الله عليه وسلم من جميع الوجوه، فإنه من إخوتهم، وهو مثل موسى عليه السلام نبي رسول، وأتى بشريعة جديدة، وحارب المشركين، كما فعل موسى عليه السلام.

ثم إنه قال: "أجعل كلامي في فمه" فهذا كناية عن القرآن المحفوظ في الصدور الذي تلقاه النبي محمد صلى الله عليه وسلم مشافهة من جبريل عليه السلام، وحفظه في قلبه وتلاه من بعد لأمته من فمه عليه الصلاة والسلام، حيث كان أميا لا يقرأ ولا يكتب عليه الصلاة والسلام. ثم إن الله جلّ

وعلا أتم وعده للنبي صلى الله عليه وسلم أن الذين لا يطيعونه فإن الله سيطالبهم، وقد طالبهم، فانتقم من أعدائه المشركين واليهود ثم ممن عداهم من الأمم.

كما جاء في سفر حجي وهو أحد أنبيائهم من العهد القديم 7/2 أن حجاي أخبر بني إسرائيل بعد تدمير الهيكل وسبيهم إلى بابل وعودتهم مرة أخرى بما قال الله له معزيا لهم:" لأنه هكذا قال رب الجنود: هي مرة بعد قليل فأزلزل السماوات، والأرض، والبحر، واليابسة، وأزلزل كل الأمم، ويأتي مشتهى كل الأمم، فأملأ هذا البيت مجدا، قال رب الجنود ولي الذهب يقول رب الجنود: مجدا هذا البيت الأخير يكون أعظم من مجد الأول، قال رب الجنود: وفي هذا المكان أعطي السلام يقول رب الجنود". فقوله " مشتهى كل الأمم" هي ترجمة بالمعنى لكلمة "حمدا" بالعبري، كما يقول البروفيسور عبد الأحد داود: والتي لازالت مكتوبة بالعبري بهذا اللفظ والتي تعني المشتهى، والشهية، والشائق، وأن هذه الكلمة "حمدا" بالعبري توازيها بالعربي "أحمد" فتكون نصا صريحا. وكذلك قوله " وفي هذا المكان أعطي السلام" والسلام والإسلام شيء واحد، وقد جاء السلام إلى بيت المقدس برحلة النبي صلى الله عليه وسلم في ليلة الإسراء ثم بفتحه في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه[1]

جاءت الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية، وحتى بعض الآيات من التوراة المحرفة تصرح بكذب اليهود وجحودهم للحق وكراهيتهم الخير لغيرهم، ورسوخ الحسد في قلوبهم، وكانت نتيجة تحليهم بهذه الصفات الشقاء في الدنيا والآخرة.

5.5- نبذهم لكتب الله تعالى واتباعهم السحر :

إن اليهود لم يقفوا عند المجابهة والتبرير والتحايل، بل أطلقوا ايديهم في كثير من الاوقات للتحريف والتبديل وجعلوا قراطيس يظهرون شيئا منها ويكتمون ما لا يلائم اهواءهم ومخططاتهم في توجهاتهم العامة، وكتبهم مليئة بترهات ينزه العاقل ذهنه من أن يفكر بأنها شريعة سماوية.

[1] –دراسات في الأديان اليهودية والنصرانية، د. سعود بن عبد العزيز خلف، أضواء السلف، ط1، 1997م، الرياض، ص 294-292

كان اليهود يقرؤون في نبوءاتهم ان نبيا سيبعث في بلاد العرب وسيكون مهاجرا إلى أرض ذات نخيل وحرات وستحقق على يديه كثير من نبوءات التوراة من الحكم بين الناس بالعدل وإقامة دين الله وانتشار دينه واتباعه في اصقاع الأرض وكانوا يطمعون ان يكون هذا النبي منهم، لأنه استقر في نفوسهم ان لا نبي إلا من بني اسرائيل، وكانوا يمهدون للنبي الخاتم ويقولون عند التشاجر والمخاصمة مع جيرانهم من القبائل العربية لقد أظل زمان نبي آخر الزمان سنؤمن به ونقتلكم معه قتل أرم وعاد، وكانوا واثقون انه سيكون من بني اسرائيل ولما بعث رسول الله (ص) وكان من نسل اسماعيل عليه السلام، لم تحتمل نفسية اليهود التي صاغها التلمود ، وهم السادة والقادة كيف تكون النبوة في غيرهم ويكونون اتباع لهذا النبي؟

لقد ذكرهم القرآن الكريم بهذه المواقف والحقائق لعلهم يتركون البغضاء والحسد والبغي فإن النبوة هبة الله يضعها فيمن شاء وهو اعلم حيث يجعل رسالته يقول تعالى :﴿وَلَمَّا جَآءَهُمۡ كِتَٰبٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٞ لِّمَا مَعَهُمۡ وَكَانُواْ مِن قَبۡلُ يَسۡتَفۡتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦۚ فَلَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٨٩ بِئۡسَمَا ٱشۡتَرَوۡاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمۡ أَن يَكۡفُرُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغۡيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٖۚ وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٞ مُّهِينٞ ٩٠﴾

وفي هاتين الآيتين الكريمتين مظهر من مظاهر نقض العهد، فقد كان ضمن الميثاق الذي أخذه الله عليهم أن يؤمنوا بكل رسول يبعثه، فريقا من احبارهم رفضوا التصديق به وبرسالته كأنهم لا يعلمون شيئا من التوراة، فعملوا عمل من لا يعمل و يقول ابن جرير في تفسيره لهذه الآية" أي أنزلنا إليك يا محمد علامات واضحات دالات على نبوتك وتلك الآيات هي ما حواه كتاب الله من خفايا علوم اليهود ومكنونات سرائر اخبارهم واخبار اوائلهم وعلماؤهم وما حرفه اوائلهم وأواخرهم وبدلوه من

أحكامهم التي كانت في التوراة فاطلع الله في كتابه الذي انزله على نبيه محمد "صلى الله عليه وسلم "فكان في ذلك من أمره الآيات البينات لمن انصف نفسه ولم يدعها إلى هلاكها الحسد والبغي إذ كان في فطرة كل ذي فطرة صحيحة تصديق من أتى بمثل ما جاء به محمد (ص) من الآيات البينات التي وصف من غير علم تعلمه من بشر ولا أخذ شيئا منه عن آدمي"[1] ،ولم يكتف اليهود بنبذ كتاب الله وراء ظهورهم ولكنهم اتبعوا ما تروي الشياطين، وخبثاء الإنس المشعوذون السحرة على عهد ملك سليمان، ظانين انه ما سحر الريح والجن إلا بالسحر، وانه كان يستجيزه، ولم يكفر سليمان بفعل السحر وتعلمه، ولم يكن ساحرا، لأن السحر كفر، ولكن الشياطين المذكورين هم الذين كفروا بتعليم الناس السحر وفعله، بقصد إغوائهم وإضلالهم ويعلمونهم أيضا ما انزل على الملكين :هاروت وماروت الموجودين ببابل : بلد بالعراق، وكان هذان الملكان يعلمان الناس السحر ليجتنبوه، وكانا في الأصل من الملائكة ،وهبطا إلى الأرض، وما يعلمان أحدا إلا قالا له :لا تفعلوا كذا ولا تكفروا، ونحن فتنة، أي ابتلاء واختبار من الله لعباده، وبتعلم الناس منهما ما يسبب التفريق بين الزوجين بزرع الكراهية والبغضاء بينهما، وللسحر حقيقة ثابتة عند الجمهور غير المعتزلة وأبي حنيفة، وله تأثير في القلوب في هذا المجال ولكنه لا يضر إلا بما يأذن الله به ، يتعلم الناس السحر الذي يضر في الدين ، ولا ينفع في الدنيا لأنه ضرر محض ولقد علم اليهود ان من اختار السحر بدلا عن كتاب الله ، ليس له نصيب من الجنة، ولبئس ما باعوا به أنفسهم بالسحر عوضا عن دينهم وتركهم العمل بما عملوا، لو علموا ما ينتظرهم من العذاب[2].

لقد اشتهر اليهود بمزاولتهم للسحر فأصبح أمر مشهور عندهم إذ أن علماء اليهود اعتقدوا ان التلمود من كتب السحر، وقال معلم السحر (إليفاس ليفي) اليهودي " إن التلمود اول كتاب

[1] –جامع البيان عن تأويل أي القرآن ابن جرير الطبري، ، ج1، ص 440

[2] – الموسوعة القرآنية المبسرة وهبة الزحيلي، محمد عدنان سالم، رشدي الزين، وهبي سليمان، دار الفكر، دمشق، سوريا، الطبعة 11، 1435هـ-2014م ، ص17

سحري"[1]، وما ورد في التلمود من حكايات وقصص حول سحر يدل بشكل واضح على هذه الحقيقة.

جاء في التلمود (سنهدرين ص| 2 ما) : أن احد علماء التلمود كان بمقدوره أن يخلق رجلا بعد ان يقتل آخر، وكان يخلق كل ليلة عجلا عمره ثلاث سنوات بمساعدة حاخام آخر وكانا يأكلان منه معا.

كما كان الرابي (نياي) يحول الماء إلى عقارب، وقد سحر يوما امرأة وجعلها حمارة، وركبها ووصل عليها غلى السوق (سنهدرين 2 | 67).

كما يزعم التلمود أن إبراهيم الخليل كان يتعاطى السحر ويعلمه، وكان يعلق حجرا ثمينا يشفى بواسطته جميع الأمراض، فوصل هذا الحجر لبعض الحاخامات التلموديين فأصبح قادرا هو ورفقائه على إحياء الموتى. وحصل ان احد الحاخامات قطع مرة رأس حية ثم لمسها بالحجر المذكور فإذا هي تسعى. وقد لمس أيضا به مجموعة اسماك مملحة فدبت فيها الروح بقوة السحر[2].

والتلمود يمتلئ بطقوس السحر والشعوذة والعرافة، ويعتقد بوجود العفاريت، وأن الأرواح الشريرة والشياطين والعفاريت والجنيات من ذرية آدم، وهؤلاء في كل اتجاه ويعرفون احوال المستقبل باستراق السمع في السماء، ويضرب لهم مثلا ب" الرجال الّذين يلعبون الحيل المنحرفة "[3]

ويمنع الناس من ان يركبوا على ظهور الثيران التي كانت مربوطة في كشك داخلي، لأن الشيطان يرقص بين قرني الثور في المربط، كما يمنعهم من السلام على أصدقائهم في الليل، خوفا من أن يسلموا على الشياطين والعفاريت.

---

[1] انظر: الكنز المرصود في قواعد التلمود، نصر الله، يوسف دمشق، دار القلم، بيروت، دار العلوم، ط1، 1408، 1987، ص57.

[2] انظر، المرجع السابق، ص55، 57

[3] انظر: التلمود / تاريخه و تعاليمه، ص 76 ، للاستاذ ظفر الاسلام خان، دار النفائس، ط6 ، 1405هـ، 1985م .

ويأمرهم ان يريقوا بعض الماء من الإناء قبل أن يشربوا منه، للنجاة مما رشفت منه الأرواح الشريرة، وأن يستشيروا الشيطان في آخر أيام الأسبوع " الجمعة" والتلمود يورد كثيرا من حيل الشيطان الذي جعل كثيرين، بواسطة تلك الحيل، يتركون قراءة القانون[1]

لقد اشتغل اليهود بالسحر وكان هدفهم استعباد البشر وسبق المعرفة بالغيب، كما أقاموا علما بالسحر أسموه الكابالا او القبالة، هي كلمة آرامية من الأصل ومعناها القبول او تلقي الرواية الشفوية، وأصبح هناك طائفة معينة متميزة تسمى القبالة واخذت على عاتقها تفسير التوراة ممزوجة بالسحر والشعوذة حتى أنهم اضافوا مزمارا في سفر الزبور خاصا بالسحر ووضعوا كتابا وشروحات تشتغل بالسحر والشعوذة ومن كتبهم هذه كتاب اسمه "الزوهار" وهي أيضا لفظة آرامية تعني النور والضياء[2].

ومن الملاحظ أن شغفهم بالسحر تزايد بعد موت سيدنا سليمان واعتبروا سيدنا سليمان ساحرا ولم يعترفوا به كنبي مرسل، بل اتهموه بالسحر وانه من كبار السحرة وهكذا سخر الجن والطير يعملون تحت إمرته وسلطانه وهذا خطأ وإثم كبير وواحدة من جرائم بني اسرائيل، لذلك هم يستعينون بالجان ويمارسون السحر لإفساد البشرية ونشر الشر.

6.5–الحرص على الحياة وإفراطهم في حب المال:

من فطرة الإنسان أنه شديد الحب لنفسه، فمن خواص طبيعة هذه النفس البشرية هي الميل إلى جمع المال وتحصيله. لكن حب الإنسان للمال قد يكون سببا في شقائه، وقد يكون سببا في طغيانه. ولهذا جاءت رسالة الإسلام وجميع الرسالات قبل هذه الرسالة الأخيرة لتهذيب وتربية غريزة التملك وتوظيفها في خدمة الفرد والمجتمع.

[1] الفكر اليهودي، د سعد المرصفي ، مكتبة المنار الاسلامية ، ط1، 1431هـ ، 1992 م، الكويت، ص90

[2] مقالة في الانترنيت، عنوان المقالة السحر ، الجن ، بني اسرائيل ، سيدنا سليمان ، هاروت و ماروت، الخميس 9، يونيو 2011: http : //rev facts.blogspot.com/2011/06

لكن الرسالات السماوية الأولى قد حُرفت من قبل رهبانها وقسيسيها الذين تغلبت عليهم أهوائهم فمالوا وحرفوا وأفسدوا في التشريعات الدينية التي هي قوام الحياة السعيدة.

اتصف اليهود بحب الدنيا، فكذبوا على الله لحبهم للدنيا وجبنوا عن القتال لحبهم الدنيا، وأضلوا الناس حبا في الدنيا، وحبهم للدنيا جعلهم يأكلون الربا وأموال الناس بالباطل، كما أنهم تحايلوا على الأوامر والنواهي حرصا منهم على متاع الدنيا الزائل.[1]

شهدت البشرية على حرص اليهود في جمعهم للمال وحبهم له، مما جعلهم يستصغرون كل ما له علاقة بالعقيدة والسلوك، فنسوا أن الدنيا والمال ملك لله وأنهم مستخلفون في هذا المال، فقد استعملوا كل الطرق لجمعه سواء كانت شرعية أو غير شرعية، حتى أن المسيح عيسى عليه السلام الذي أرسله الله لهداية بني إسرائيل خاطبهم بهذه الكلمة الرائعة: "لا تعبدوا ربين: الله والمال."[2]

ولعل من أهم الأسباب التي جعلت اليهود يحبون المال حبا جما ويسعون إلى جمعه بشتى الطرق اعتقادهم الخاطئ بأنهم شعب الله المختار، فكان هدفهم الأول السيطرة على العالم من خلال جمعهم القدر الأوفر من المال. إن الدارس لتاريخ بني إسرائيل يرى أن جميع معجزتهم كانت مادية، فكان عصرا ماديا يؤمنون بالمادة ولا يؤمنون بالغيب، فرسخ لديهم هذا الإيمان بالحياة المادية، ولا يرون حياة أخرى عندهم، فقلما نجد في التوراة ذكر للحياة الآخرة وفي هذا يقول ول ديورانت :"إن اليهود قلما كانوا يشيرون إلى حياة أخرى بعد الموت ولم يرد في دينهم شيء من الخلود، وكان ثوابهم وعقابهم مقصورين على الحياة الدنيا."[3] فكان نكرانهم لوجود اليوم الآخر من أهم الأسباب التي جعلتهم يتمسكون بالمادة وحرصهم الشديد على جمع المال بشتى الطرق.

---

[1]– ينظر دراسات في الأديان اليهودية والنصرانية ، د سعود بن عبد العزيز الخلف، ، أضواء السلف، ط 1، 1997م، الرياض، المملكة العربية السعودية، ص 115

[2]–ينظر اليهود في القرآن ،د. عفيف عبد الفتاح طباره، ، دار العلم للملايين، ط 12، 1995م،لبنان بيروت،ص 32

[3]–المرجع السابق، ص 33

لقد نجم عن اعتقاد وإيمان اليهود بأنهم شعب الله المختار الكثير من الانزلاقات في هاوية المنكرات. ومن أخطر ما توهموه أن كل الخيرات والثروات الموجودة على الأرض ملك لهم. فقد جاء في التلمود " أن الإسرائيلي معتبر عند الله أكثر من الملائكة، وأن اليهودي جزء من الله، فإذا ضرب أمّي إسرائيليا فكأنه ضرب العزة الإلهية، والفرق بين درجة الإنسان والحيوان، هو بقدر الفرق بين اليهود وغير اليهود. ولليهودي في الأعياد أن يطعم الكلب وليس له أن يطعم غير اليهودي، والشعب المختار هم اليهود فقط، أما باقي الشعوب فهم حيوانات."[1] ومما جاء في التلمود كذلك "أن أرواح اليهود تتميز عن سائر الأرواح بأنها جزء من الله، فهي تنبثق من جوهر الله كما ينبثق الولد من جوهر أبيه، فهم منحدرون من الله، أما غيرهم فأرواحهم شيطانية وهي مشابهة لأرواح الحيوانات النجسة، وإنما خلقوا على صورة البشر ليليقوا بخدمة بني إسرائيل، كي لا تشمئز نفوسهم من رؤياهم والعيش بينهم."[2] كما قرر كاتب التلمود "أن جميع خيرات الأرض ملك لبني إسرائيل، وقد كتب على شعوب الأرض: لحومكم، لحوم الحمير وزرعكم من زرع الحيوانات، وأبناء إسرائيل يجب أن يعيشوا من خيرات الأمم دون أن يتحملوا عناء العمل."[3] كما جاء في تعاليم حاخاماتهم ما يلي: "اقتلوا الأذكياء من غير اليهود لتنالوا رضا الرب، وتضعفوا شوكة غيركم، فيبقى الجهلاء والأغبياء منهم خدما مطيعين لليهود، ولا يفهمون ما يراد بهم"[4]، فهذه بعض النصوص المحرفة التي صاغها أحبارهم، ليوهموا الجميع أنهم شعب الله المختار، وأن لهم الحق في امتلاك العالم.

ولما كان التلمود يقرر أن اليهود أجزاء من الله، فإن اليهود يعتبرون أنفسهم مالكين لكل ما في الأرض من ثراء بالنيابة عن الإله، وقد جاء في وصايا موسى 'لا تسرق مال القريب'، "ففسر علماء التلمود هذه الوصية بجواز سرقة اليهودي مال الغريب أي غير اليهودي فسلب ماله ليس مخالفا

[1] – مقارنة الأديان، اليهودية أحمد شلبي، مكتبة النهضة المصرية، ط 8، 1988م، القاهرة مصر، ص 208

[2] – مغالطات اليهود وردّها من واقع أسفارهم عبد الوهاب عبد السلام طويلة، ، دار القلم، ط 1، 2007م، دمشق سوريا، ص22

[3] – نفسه، ص23

[4] –نفس المرجع السابق، ص25، منقول من كتاب الكنز المرصود، ص 75

للوصايا، وسار الفكر اليهودي في التلمود على هذا النحو فعدّ سرقة اليهودي مال غير اليهودي استرداد لأموال من ساليبها؛ وجاء في التلمود نص يشرح هذه الفكرة شرحا وافيا وهو: إن مثل بني إسرائيل كمثل سيدة في منزلها، يحضر لها زوجها النقود فتأخذها وتنفقها دون أن تشترك معه في الشغل والتعب، فعلى الأمميين أن يعملوا ولليهود أن يأخذوا نتاج هذا العمل"[1]. وهكذا يتضح لنا كيف توغلت فكرة شعب الله المختار في أعماق نفوس اليهود، فأصبحت جزء لا يتجزأ من عقيدتهم الدينية والدنيوية.

لقد أجاد اليهود حرفة التجارة خاصة بعد السبي البابلي (587-539 ق.م) فقد كانت تجربتهم التجارية في بابل نواة لنشاطهم المعروف في العالم في هذا المضمار، وتشهد بعض النصوص التاريخية أن النازحين اليهود قد اشتركوا اشتراكا نشيطا في الحياة التجارية، ومارسوا عملية التسليف بالربا، وقد كانت هذه العملية متبعة بشكل واسع بين سكان بابل[2].

عرف اليهود في كل تاريخهم بالربا، فكان أهم مصدر من مصادر ثرواتهم في كل زمان ومكان، فكانت معظم معاملاتهم مع غير اليهود تقوم على المراهنات وتعاطي الربا.

إن فساد اليهود في عقيدتهم وانحطاطهم في أخلاقهم واعوجاجهم في سلوكهم راجع إلى حبهم وحرصهم الشديد على جمع المال، ولم يقتصر هذا الداء على السواد الأعظم منهم، بل تجاوزه إلى علمائهم وأحبارهم كما بينه عفيف طباره في كتابه اليهود في القرآن "لقد دأب علماؤهم وأحبارهم على أكل أموال الناس بالباطل، والصد عن سبيل الله، بتحريض العامة ودعوتهم إلى تقديم القرابين والنذور للهيكل، كي يظفروا بمغفرة الله كما وسطوا الأحبار والرهبان بينهم وبين الله، كي يغفر لهم الذنوب والخطايا، وكان هذا الطابع المادي الذي صبغ نفوسهم وحياتهم الخاصة والعامة، سببا في انغماسهم في الحياة المادية، وشغفهم بمتع الحياة، حتى أن بعضهم أنكر اليوم الآخر وما فيه من

[1]- اليهودية أحمد شلبي، ص 269

[2]- بنو إسرائيل أ.د.محمد بيومي مهران ، الجزء4، دار المعرفة الجامعية، د ط، 1999م، الإسكندرية مصر،ص673

حساب وثواب وعقاب. وكان الانغماس في الحياة المادية دافعا لهم إلى اقتراف الجرائم والتورط في الآثام[1].

إن في الإنسان ميل فطري للتشبث بالبقاء والمحافظة على الذات، فإذا لم تشتغل الضمائر بأي قيمة روحية تقوم بها الذات، ضاعت وانصرفت، وهذا ما حدث مع اليهود، فإنهم لم يجدوا لإرضاء هذا الميل وتحقيق غايته سوى الإقبال على حيازة المال على اختلاف أنواعه بشتى الوسائل، فإذا كان المال لدى غيرهم مجرد شهوة، فهو لديهم شهوة يلابسها ويضاعف نهمها فزع النفس من خلوّها الروحي، وإلحاحها في حظها من زاد الحياة والبقاء، وتوهم طبعهم الحسي أن ذلك الغرض هو المراد إذ لا يأنس في الحياة لسواه[2].

من المعروف على مدى التاريخ أن اليهود قد اشتهروا بالربا الذي أجاز التلمود استعماله مع غير اليهود، كما تعد عملية الربا إحدى الوسائل التي اصطنعها اليهود للسيطرة على ثروات العالم، تحدثت التوراة عن الربا ولكن المتفحص في نصوصها يجد أن هناك قوانين خاصة باليهود وأخرى خاصة بغير اليهود. جاء في التوراة أن الربا بين اليهود حرام أما بين غير اليهود فهو حلال وواجب؛ ففي سفر الخروج 22:25-26 جاء" إن أقرضت فضة لشعبي الفقير الذي عندك فلا تكن كالمرابي، لا تضعوا عليه الربا، إن ارتهنت ثوب صاحبك فإلى غروب الشمس ترده له لأنه وحده غطاؤه"، ويؤكد هذه المقولة سفر التثنية 23:19-20" لا تقرض أخاك بربا ربا فضة أو ربا طعام أو ربا شيء مما يقرض بربا، للأجنبي تقرض بربا ولكن لأخيك لا تقرض بربا"[3].ويرى إسرائيل شاحاك أن:" تقديم قرض بلا فائدة ليهودي يعتبر عمل من أعمال الإحسان ولكن في حالة المقترض غير اليهودي هناك إلزام بأخذ الفائدة ويتفق العديد من المراجع الحاخامية بما فيها ابن ميمون إلزامية استخلاص أكبر قدر

[1]- اليهود في القرآن عفيف طباره، ، ص 26

[2]- ينظر بنو إسرائيل في ميزان القرآن ، البهي الخولي، ، دار القلم، ط 1، 2003م، دمشق سوريا، ص 247

[3]- ينظر، القرآن والتوراة أين يتفقان وأين يفترقان حسن الباش، ،الجزء 2، دار القتبية،د ط، 1998م،ص 525

ممكن من الفائدة على قرض لغير اليهودي"[1]، كما كتب ابن ميمون في موضع آخر" أمرنا الله بأخذ الربا من الذمي وألا نقرض شيئا إلا على هذا الشرط (الربا) وبذا نكون قد ساعدناه، مع أنه من الواجب علينا إلحاق الضرر به ولو ساعدناه في هذه الحالة (أخذنا منه الفوائد والربا)[2].

"ومما يستوقف الباحث في باب الأموال والممتلكات في الفقه اليهودي، أن الربا يحرم بين اليهود بعضهم وبعض فقط، كما جاء في التوراة "وإذا افتقر أخوك وقصرت يده عنك فاعضده غريبا أو مستوطنا فيعيش معك، لا تأخذ منه ربا ولا مرابحة ، بل اخش إلهك فيعيش معك ، فضتك لا تعطيه بالربا، وطعامك لا تعط بالمرابحة"[3](لاويين 35:25-37)، وعقوبة المخالف لذلك التكفير والخلع، بينما يباح الربا إذا أقرض اليهودي لغير اليهودي مالا. ولكن نظرا لما جبل عليه هؤلاء الناس من حب المال فإنهم تحايلوا، حتى على تحريم الربا فيما بينهم، فبعد أن جاء في المادة 584 من المجموعة القانونية التي ترجمها دي بولي أنه [محرم على اليهودي أن يقرض اليهودي مالا أو غيره من الأشياء التي يحتاج إليها كالقمح أو الدقيق مثلا بالربا. وأن المقرض بالربا يتعرض تلقائيا للخلع والطرد] فتعود المادة التالية 585 [فتقيد تحريم الربا بما يعطيه اليهودي من قرض لأخيه اليهودي ليواجه به ضرورات ملحة لا قبل له باحتمالها، أما إذا اقترض اليهودي نقودا من يهودي آخر بقصد الاستثمار، أو التوسع في التجارة، أو تنفيذ بعض المشروعات التي تدر ربعا، فإن الذي يقرضه المال يمكنه أن يقرض عليه نصيبا في الأرباح يتفق عليه]، ويبدو من التطبيق العملي لهذه الفقرة أن المقصود

[1]-المرجع السابق، ص 526

[2]-نفسه، ص 526

[3]-منهجية الأمر والنهي في الأديان السماوية- دراسة مقارنة-، رسالة دكتوراه دولة في الأنثروبولوجيا، لإعداد الطالب شايف عكاشة، جامعة أبي بكر بلقايد ، تلمسان، كلية الآداب والعلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، قسم الثقافة الشعبية، السنة الجامعية 2000م-2001م، ص 198

هو الأرباح فقط دون الخسائر، بحيث لو ضاع المال في هذه المشاريع كان على المقترض أن يؤدي دينه كما أخذه"[1].

تستند جل معاملات اليهود مع غيرهم على الربا لأنهم ظنوا أنهم غير محاسبين إذا عاملوا الذميين بما يرونه هم، فظنوا أن لهم الحق المطلق في أن يعاملوا الناس بالربا. لقد سعى اليهود على نشر الربا في كل ربوع العالم على أساس استغلال ذات النقد للكسب من غير أن يتحملوا تبعة إنتاج صناعي أو زراعي، أو استخراج لما استبطنته الأرض من معادن، أو حواه البحر من لآلىء[2].

ذكر الله عز وجل في كتابه الكريم عن خلائق اليهود بشأن المال وإنفاقه في سبيل الله، فقد روي عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه لما نزل قوله تعالى:﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَـٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾﴾[3] قالت اليهود: يا محمد لو كان غنيا ما استقرضنا وفي رواية أخرى قالوا: يا محمد افتقر ربك فسأل عباده القرض؟ فنزل قوله تعالى:﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ سَنَكْتُبُ﴾ لقد كانت قولة فاجرة وفرية عظيمة، فلذلك جاء التهديد والوعيد بقوله تعالى ﴿ سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ ﴾ مقترنا بقوله تعالى:﴿ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾﴾ أي هذا قولهم في الله تعالى من ناحية الفقر والغنى، وهذه معاملتهم مع أنبياء الله بدل أن يستجيبوا

[1]– الفكر الديني اليهودي أطواره ومذاهبه حسن ظاظا، ، معهد البحوث والدراسات العربية، د ط، 1971م، الإسكندرية، ص 237

[2] ينظر، بحوث في الربا محمد أبو زهرة، ، د ط،د ت، دار الفكر العربي، القاهرة، ص 10

[3]–سورة الحديد، آ 11

لدعوتهم يقتلونهم، وسيجزيهم الله على ذلك شرّ الجزاء ولهذا قال سبحانه وتعالى:﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ۘ سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾ ﴾[1].

وقد قالوا والعياذ بالله:﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ ﴾ أي مقبوضة عن إدارة الرزق عليهم كناية عن البخل والعجز والعياذ بالله، فنزل قوله جلت قدرته وسمت حكمته في سورة المائدة:﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۚ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ كُلَّمَآ أَوْقَدُواْ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ۚ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾[2]، وإنها لآيات تكشف بوضوح عن تلكم الخلائق الذميمة، والتناقض الفاضح بين دعوى الإيمان عند اليهود وبين هذا المنهج المخزي؛ فكرا وسلوكا[3].

[1]–سورة آل عمران آ 181،آ 182،ينظر، اليهود في القرآن والسنة محمد أديب الصلح، ، دار الهدى، ط 1، 1993م، الرياض، ص45

[2]–سورة المائدة، آ 64

[3]–ينظر، اليهود في القرآن والسنة، ص46

لقد وصف اليهود" الله عز وجل بالبخل والعياذ بالله، وكانت هذه من الصفات الملازمة لهم، رغم أنهم أهل مال إلا أنهم بخلاء به وهذا دليل على أنهم يعبدون المال ولم يجعلوه لينفقوا منه، وإنما حبا فيه فقط، وإضافة إلى البخل فهم يأمرون الناس بالبخل مصداقا لقوله تعالى:﴿ ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِ وَيَكۡتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ٣٧ ﴾.[1]

وصفوة القول أن اليهود طغت عليهم الروح المادية فامتلأت بها نفوسهم وصارت صفة ملازمة لهم فحرصوا كل الحرص على جمع المال بمختلف السبل شرعية كانت أم غير شرعية، وعملوا على نشر الربا في العالم كله، ولا همّ لهم إلاّ الكسب من ذات النقد إذ يستغلونه من غير تبعة مالية في الخسارة. كما أجاز أحبارهم الغش في التجارة مع الأمميين إذ قال الحاخام" رشى" مصرح "لليهودي أن يغش غير اليهودي ويحلف أيمانا كاذبة"[2].

لقد استطاع اليهود غزو بيوت المال، وصناديق أرباب الأعمال باستعمالهم الوسائل المعروفة لديهم عبر التاريخ منها المكر والحيلة والربا والغش والاحتكار وكل عمل ضار تحرمه الشرائع الربانية، أو تحظره القوانين الوضعية، او تتفق العقول الرشيدة والآراء السديدة على منعه لما فيه من إفساد وإثم أو عدوان أو ظلم.[3]

لقد صور لنا القرآن الكريم صفات وأخلاق اليهود، حيث توفرت في هذه الشخصية المنحرفة مجموعة من الانحرافات الأخلاقية فصارت مجسمة لمعانيها وأبعادها باستثناء الأنبياء والصالحين من بني

[1] – سورة النساء ،آ 37

[2] –ينظر اليهودية ، أحمد شلبي ، ص269

[3] ينظر: مكايد اليهود عبر التاريخ،عبد الرحمن حسين الميداني دار القلم،ط 2، 1978 م، دمشق، ص 357

إسرائيل. كما قدم لنا القرآن الكريم نماذج لممارسات يهودية تمثل تلك الرذائل، فقد أظهر لنا الحق سبحانه وتعالى هذه النفسية اليهودية ليعلم كل من تدبر القرآن خطر هذه الفئة من الناس على المجتمع الإنساني، وأن يتعظ ويعتبر بكل هذه التجارب التي مر بها هذا الشعب من رفعة حين كانوا متمسكين بالشريعة السليمة، ثم من ذل وخسة عندما خالفوا أوامر الحق سبحانه وتعالى.

نلاحظ أن القرآن الكريم دقيق وواضح، في التعامل مع بني إسرائيل، ويسير معهم لحظه بلحظة، وخطوة خطوة ويصف أحوالهم مشهدا مشهدا، حتى وهم في صحراء التيه، كل ذلك ليضع للمؤمنين منهجا قرآنيا فريدا في كيفية التعامل مع اليهود، فتارة يذكرهم بأصولهم العرقية والإيمانية فيقول لهم: يا بني إسرائيل، وتارة اخرى يوبخهم وينعى عليهم، وأخرى يهددهم وهدفه من ذلك إصلاح نفوسهم، وأحوالهم ومع ذلك أصروا على معاصيهم، حتى كان العقاب الشديد أكثر من مرة تارة بالصعق وأخرى بالخسف، حتى وصل بهم الأمر إلى اللعن والطرد من رحمة الله فضرب عليهم الذلة والمسكنة، وقطعهم في الأرض أمما.

1. التفسير البياني لبني إسرائيل كما يصوره القرآن الكريم

التفسير البياني هو التفسير الذي يبين أسرار التركيب في التعبير القرآني. فهو جزء من التفسير العام تنصب فيه العناية على بيان أسرار التعبير من الناحية الفنية كالتقديم والتأخير والحذف واختيار لفظة على أخرى وما إلى ذلك مما يتعلق بأحوال التعبير[1].فالتعبير القرآني كل كلمة فيه وكل حرف فيه إنما وضع لقصد، فهو يهدف إلى فهم إعجاز القرآن وإيضاح نواحيه البلاغية كما يستهدف تذوق أسرار البيان بالنظر لمدلولات ألفاظ القرآن، وعلى أساس التدبر الشامل للنظم القرآني الذي تلمح من خلاله المعجزة البيانية الخالدة، ويجب معرفة وجوه التناسق والتشابه بين كلمات القرآن وألفاظه، ومدى توازنها وترتيبها، ومدى مناسبتها لما سبقها ولحقها من الآيات، والمفسرون من هذا القبيل تعرضوا بدراستهم لمختلف جوانب البيان والإبداع التي تضمنها القرآن، ومنهم من وقف على إعجازه البياني من حيث علم النحو والدلالة، ومنهم من نظر إليه من حيث علم الأصوات، وآخرون فسروه من حيث روعته الإبداعية. ولقد حاولنا في هذا الفصل دراسة الجانب الدلالي من التفسير البياني.

[1]-على طريق التفسير البياني، ج1، فاضل صالح السمرائي، النشر العلمي، جامعة الشارقة، 1423هـ-2002م، د ط، الإمارات العربية المتحدة، ص 7.

أ –عبادة العجل من دون الله.

قال تعالى: [وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾][1].وقال تعالى [وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾].

يقول صاحب جامع البيان في هذا: واذكروا إذ أخذنا عهودكم خذوا ما آتيناكم من التوراة التي أنزلتها إليكم واعملوا بما فيها من أمري، وانتهوا عما نهيتكم فيها بجد، وأعطيتكم الميثاق على ذلك، وقلت لكم اسمعوا ما أمرتكم به وتقبلوه بالطاعة، لكنهم قالوا سمعنا قولك، وعصينا أمرك، فاشربوا حب العجل في قلوبهم[2]، وقال بن كثير: يعدد سبحانه وتعالى عليهم خطأهم ومخالفتهم للميثاق وعتوهم وإعراضهم عنه حتى رفع الطور عليهم حتى قبلوه ثم خالفوه، ولهذا قالوا سمعنا وعصينا فأشربوا حب العجل، حتى خلص ذلك إلى قلوبهما[3].

وأما صاحب معالم التنزيل والتفسير والتأويل يقول في معناه: أدخل في قلوبهم حب العجل وخالطها، كإشراب اللون لشدة الملازمة، يقال: فلان شرب اللون إذا اختلط بياضه بالحمرة [4].

---

[1] –سورة البقرة، آ 93

[2] جامع البيان في تأويل آي القرآن، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط 3، 1420هـ-1999م، مج 1، ص 466-467

[3] تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، دار الرشيد للكتاب والقرآن الكريم، الجزائر، ط 1، 1426هـ-2005م، مج 1، ص 126

[4] معالم التنزيل والتفسير والتأويل، الإمام أبو محمد الحسين البغوي، دار الكتب العلمية، ط 1، 1415هـ-1995م، مج 1، ص75 .

ذكر الطبري أن موسى عبر بهم يوم عاشوراء[1]، بعدما أهلك الله فرعون وقومه فصاموه شكرا لله، فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم، ويواظبون على عبادتها، وكانت التماثيل بقرا، قالوا يا موسى اجعل لنا آلهة أصناما نعكف عليها كما لهم آلهة أصناما2، قال الطبري: وقطعنا ببني إسرائيل البحر بعد الآيات التي أرينا هموها، والعبر التي عاينوها على يدي نبي الله موسى، فلم تزجرهم تلك الآيات، ولم تعظهم تلك العبر والبيئات، حتى قالوا مع معاينتهم من الحجج، ما يحق أن يذكر معها البهائم، إذ مروا على قوم يعكفون على أصنام لهم يعبدونها من دون الله، اجعل لنا إلها نعبده و صنما نتخذه، كما لهؤلاء القوم آلهة أصناما يعبدونها[3] ، قال السعدي: حدث هذا بعدما أنجاهم الله من عدوهم فرعون وقومه وأهلكهم الله، وبنو اسرائيل ينظرون[4] –

يتضح لنا من خلال هذه الآيات إعجاز ودقة التعبير وروعة البيان، فالحق سبحانه وتعالى بيّن لنا مادية هؤلاء القوم، فالحب كما هو معلوم معنوي وليس ماديا، ولكن العليم الحكيم استعمل هذا التشبيه ليبيّن لنا قوة تمكن حب كل ما هو مادي في قلوبهم رغم رؤيتهم للمعجزات، فشدة حبهم للمادة أعماهم وأصمهم عن رؤية الحق.

[1] محمد فؤاد عبد الباقي، اللؤلؤ والمرجان في ما اتفق عليه الشيحان، دت، دط، دار إحياء الكتب العربية، ج2، ص 15، رقم 692، روى البخاري من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال؛ قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة فرأى اليهود تصوم يوم عاشوراء، فقال ما هذا ؟ قالوا: هذا يوم صالح، هذا يوم نجى الله بني إسرائيل من عدوهم فصامه موسى قال؛ فأنا أحق بموسى منكم، فصامه وأمر بصيامه، — لى — الصوم — ب — صيام يوم عاشوراء.

[2] ينظر، جامع البيان مج 6، ص 45-46

[3] ينظر نفسه، مج2، ص 45

[4] ينظر، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن السعدي، تحقيق عبد الرحمن بن معلا اللويحق، دار السلام، الرياض، ط 2، 1422هـ-2002م، ص 264

التفسير البياني.

وفيه ثلاث مسائل:

المسألة الأولى؛ قوة التعبير في قوله (أشربوا).

جاءت قوة التعبير في اللفظ القرآني "أشربوا" لإظهار تغلغل حب العجل في قلوب بني إسرائيل فمن شدة حبهم للعجل تمردوا على أوامر الله، رغم رؤيتهم للآيات والمعجزات العديدة، منها: رفع جبل الطور فوق رؤوسهم، وفلق البحر، وهلاك عدوهم وغيرها...

قال بن عاشور رحمه الله؛ والإشراب هو جعل الشيء شاربا، واستعير لجعل الشيء متصلا بشيء وداخلا فيه، ووجه الشبه هو شدة الاتصال والسريان، لأن الماء أسرى الأجسام في غيره، ولذا يقول الأطباء؛ الماء مطية الأغذية والأدوية ومركبها الذي تسافر به إلى أقطار البدن فلذلك استعاروا الإشراب لشدة التداخل[1].

استعمل علام الغيوب كلمة " اشربوا" لعلمه سبحانه عن تمكن حب العجل في قلوبهم، وعبر عن حب العجل بالشرب؛ لأن شرب الماء يتغلغل في جميع أعضاء الجسم فيصل إلى باطنها، فقد شبه الخالق عز وجل حب العجل في قلوبهم بحب الناس كافة للماء، الذي لا غنى لأحد عنه فهو يسري في جميع أعضاء جسم الإنسان فصار جزءا من جسمهم، كذلك حب بني إسرائيل للعجل غدا جزءا منهم.

[1] التحرير والتنوير، ابن عاشور، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس، د ط، د ت، مج 1، ص 611

المسألة الثانية؛ علاقة قوم موسى بصناعة العجل:

لماذا قال الله تعالى 'قوم موسى' ولم يقل 'السامري' مع العلم أن الذي قام بصناعة العجل هو السامري .

1- قال البقاعي: لأن السامري اتخذه برضاهم، ولأنهم لم يعتبروا شيئا مما آتاهم موسى من تلك الآيات التي لم يروا مثلها [1]ولأن الجميع منهم قدم الحلي التي يمتلكها، قال تعالى:﴿وَٱتَّخَذَ قَوۡمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِنۡ حُلِيِّهِمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٌۚ﴾[2]

2- اتخذوا إلها من حلي قوم كفرة ظالمين، قال البقاعي في هذا: لا أضل ولا أعمى من قوم كان معهم حلي، أخذوه ممن كانوا يستعبدونهم، ويأخذونهم وهم مع ذلك أكفر الكفرة، فكان جديرا بالبغض، لكونه من آثار الظالمين الأعداء، فاعتقدوا أنهم بالصوغ صار إلها، وبالغوا في حبه والعبودية له، وهو جسد يرونه ويلمسونه[3]. وتعد هده المعصية من صنع الجميع لكونهم رضوا بما قام به السامري، فعكفوا على عبادة هذا العجل الذي جسدوه وصنعوه من الحلي، فظلموا أنفسهم باتخاذهم إياه إلاها. وقول الحق سبحانه وتعالى: يبين لنا جل جلاله أن هذا العجل عبارة عن جسد بلا روح وأنه يصدر أصوات.

[1] نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، الطبعة الأولى، 1415هـ-1995م، مج 3، ص112 .

[2] سورة الأعراف، آ 148

[3] ينظر المرجع نفسه، ص113.

المسألة الثالثة: الاستفهام ونفي صفتي الهداية والكلام للعجل:

أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُواْ ظَٰلِمِينَ.

1- ألم يروا: قال أبو حيان: الاستفهام إنكاري لأنهم عبدوا جمادا صنعوه بأيديهم، لا يتكلم ولا يعقل ولا يغنى شيئا [1].

2- لا يكلمهم ولا يهديهم، فهو إله أبكم عاجز فماذا ينتظرون من إله أبكم؟ أم هو الكفر والعناد.

قال أبو حيان: سلب عنه هذين الوصفين دون باقي أوصاف الإله، لأن انتقاء التكليم يستلزم انتفاء العلم، وانتفاء الهداية إلى سبيل يستلزم انتفاء القدرة، وانتفاء هذين الوصفين العلم والقدرة، يستلزم انتقاء باقي الأوصاف [2]، وأكد ابن عطية نفي الألوهية عمن فك صفتي العلم والقدرة قائلا: وذلك أن الصامت الجماد لا يتصف بالألوهية، والذي لا يرشد إلى خير ولا يكشف غما كذلك [3]، وأنكر البقاعي على بني إسرائيل اتخاذهم إلها أبكم عاجز فقال: اتخذتم إلها من دون الله، فجعلتم أنفسكم متذللين لمن لا يملك شيئا، ولمن هي أشرف منه، — النفس— فأنزلتموها من رتبة عزها، بخضوعها لمولاها، الذي لا يذل من ولاه ولا يعز من عاداه، إلى ذلها بخضوعها إلى من دونكم أنتم [4]؟

استعمل الخالق عز وجل في هذه الآية الكريمة الهمزة للاستفهام الانكاري والتقريع، فقد أنكر عليهم السميع العليم هذا الفعل الشنيع الذي لا يضل بمثله أهل العقل، إذ عبدوا عجلا لا يتكلم ولا

[1] النهر الماد من البحر المحيط، أبي حيان محمد بن يوسف، تحقيق عادل عبد الموجود ورفاقه، ط 1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1993م مج 1، ص 868

[2] نفسه ، مج 4، ص 391.

[3] المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لأبي محمد عبد الحق القاضي الملقب بان عطية الأندلسي، تحقيق عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، لبنان بيروت، ط 1، د ت، مج 2، ص400.

[4] نظم الدرر مج 1، ص 134 مرجع سابق .

يهدي السبيل وهذا بيان على جهلهم بل هو دليل على أن بصائرهم طمست فعبدوا من لا يتكلم ولا يهدي وتركوا عبادة الواحد الأحد الذي هو أقرب إليهم من حبل الوريد.

ب: الكذب على الله وتحريف كتابه:

قال تعالى: [ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيۡنَآ أَلَّا نُؤۡمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأۡتِيَنَا بِقُرۡبَانٖ تَأۡكُلُهُ ٱلنَّارُۗ قُلۡ قَدۡ جَآءَكُمۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِي بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِي قُلۡتُمۡ فَلِمَ قَتَلۡتُمُوهُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٨٣﴾ [1] وقال تعالى: ۞ أَفَتَطۡمَعُونَ أَن يُؤۡمِنُواْ لَكُمۡ وَقَدۡ كَانَ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ يَسۡمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعۡدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿٧٥﴾ [2] وقال تعالى: [وَإِنَّ مِنۡهُمۡ لَفَرِيقٗا يَلۡوُۥنَ أَلۡسِنَتَهُم بِٱلۡكِتَٰبِ لِتَحۡسَبُوهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ [3] ﴿٧٨﴾،] قال: [مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعۡنَا وَعَصَيۡنَا وَٱسۡمَعۡ غَيۡرَ مُسۡمَعٖ وَرَٰعِنَا لَيَّۢا بِأَلۡسِنَتِهِمۡ وَطَعۡنٗا فِي ٱلدِّينِۚ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَا وَٱسۡمَعۡ وَٱنظُرۡنَا لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ وَأَقۡوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفۡرِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُونَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٤٦﴾ [4]

[1] سورة آل عمران، آ 183

[2] – سورة البقرة، آ 75

[3] –سورة آل عمران، آ 78

[4] سورة النساء، آ 46

وقال[۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَلَمۡ تُؤۡمِن قُلُوبُهُمۡۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْۛ سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوۡمٍ ءَاخَرِينَ لَمۡ يَأۡتُوكَۖ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ مِنۢ بَعۡدِ مَوَاضِعِهِۦۖ يَقُولُونَ إِنۡ أُوتِيتُمۡ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمۡ تُؤۡتَوۡهُ فَٱحۡذَرُواْۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتۡنَتَهُۥ فَلَن تَمۡلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمۡۚ لَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾][1]

هاتان جريمتان مرتبطتان ببعضهم البعض، سواء الكذب على الله أو تحريف كتابه، وهذا صدر عن اليهود، عندما ذهبوا عند الرسول زاعمين أن الله في التوراة أمرهم ألا يؤمنوا لرسول حتى يقدم قربانا إلى الله، وعلامة قبوله أن تأكله النار، فان لم يقم بذلك ولم تأكله النار، فهو ليس نبيا حسب زعمهم؛ فوبخهم الله وكذب زعمهم؛ بأن الله أرسل إليكم الأنبياء بالحجج الدامغة التي لا لبس فيها فمنهم من قتلتموهم ومنهم من كذبتموهم وزعمتم أن ما حرفتموه هو الحق، وكنتم بزعمكم هذا كاذبين، وأنتم تعلمون أنكم كاذبون، فأي جريمة أبشع من ذلك ،فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ يَكۡتُبُونَ ٱلۡكِتَٰبَ بِأَيۡدِيهِمۡ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشۡتَرُواْ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلٗاۖ فَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا يَكۡسِبُونَ ﴿٧٩﴾ [2]

[1]-سورة المائدة، آ 41

[2]سورة البقرة، آ 79

قال البغوي: يقولون سمعنا قولك وعصينا أمرك، واسمع غير مسمع، اسمع منا ولا نسمع منك، لأنه غير مقبول منك، أو يقولون للنبي اسمع ثم يقولون في أنفسهم لا سمعت [1]

قال سيد قطب؛ لقد بلغ من التواءهم وسوء أدبهم مع الله عز وجل أن يحرفوا الكلام عن المقصود به، والأرجح أن ذلك يعني تأويلهم لعبارات التوراة بغير المقصود منها، كي ينفوا ما فيها من دلائل على الرسالة الأخيرة، ثم بلغ من التواءهم وسوء أدبهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقولوا له : سمعنا يا محمد ما تقول لكننا عصينا فلا نؤمن لك ولا نتبع ولا نطيع [2]

يفضح البارئ سبحانه وتعالى جماعة من علماء اليهود الذين افتروا الكذب على الله بكل إصرار فيما كتبوه بأيديهم حسب أهوائهم، ثم نسبوه إلى الله، لأغراض نفسية وأطماع مادية، ولهذا استحقوا مضاعفة الويل على ما يكسبونه من الخطايا إلى يوم القيامة، ولهذا تكررت كلمة الويل في هذه الآية ثلاث مرات، كما جاءت كلمة يكسبون بلفظ المضارع لأن آثارها السيئة باقية إلى يوم الدين.

التفسير البياني: وفيه سبع مسائل:

المسألة الأولى: دلالة التعبير بـ عهد.

عهد: بمعنى وصى، وهو أخص من الأمر، لأنه في كل أمر ذي بال ويبقى على مر الزمان [3]، ابتغوا بقولهم هذا، أنهم هم الأمناء والأوفياء ، المحافظون على وصايا الله والحقيقة، أنهم هم المضيعون لمواثيق الله وعهوده،﴿ أَوَكُلَّمَا عَـٰهَدُوا۟ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ

[1] معالم التنزيل مج2، ص 52

[2] في ظلال القرآن، مج 2، ص 674.

[3] ينظر، البحر المحيط مج 3، ص137

لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿١٠٠﴾ [1]، يبتغون بقولهم هذا خداع وتضليل من حولهم، والطعن في الرسول صلى الله عليه وسلم وأخلاق الصحابة رضي الله عنهم

المسألة الثانية؛ توجيه رباني:

قُلۡ قَدۡ جَآءَكُمۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِي [2]

أمر من الله لرسوله أن يرد عليهم، قال أبو السعود؛ تبكيتا لهم وإظهارا لكذبهم، قد جاءكم رسل كثيرة العدد، كبيرة المقدار من قبلي بالبينات — أي المعجزات الواضحة — وبالذي قلتم بعينه من القربان الذي تأكله النار فلم قتلتموهم إن كنتم صادقين[3] في طلبكم القربان من محمد. استعمل العليم استفهام إنكاري تعجبي، فقد طلب علام الغيوب من النبي – صلى الله عليه وسلم–أن يسأل اليهود المعاصرين له لماذا قتل أجدادهم الأنبياء الذين جاءوا بالمعجزات؟ وذلك لبيان كذبهم وسوء طويتهم.

المسألة الثالثة: أهمية الإستفهام في قوله: (أفتطمعون) [4]

معظم المفسرين يرون أن الاستفهام إنكاري هدفه التيئيس ينكر على الرسول وصحابته طمعهم في إيمان اليهود، لقسوة قلوبهم وعدم تأثرها بما شاهدته أعينهم من آيات[5]، والبعض من المفسرين يرون أن فيه معنى الإنكار، كأنه آيسهم من إيمان هذه الفرقة من اليهود الذين كانوا في زمن

---

[1] سورة البقرة، آ 100

[2] –سورة آل عمران، آ 183

[3] إرشاد العقل السليم، أبو السعود، دار الفكر، بيروت، د ط، د ت، مج 1، ص 458

[4] والطمع تعلق النفس بإدراك مطلوب تعلقا قويا، النهر الماد مج1، ص95 مرجع سابق. وقال الشعر اوي : والطمع هو رغبة النفس في شئ غير حقها، وإن كان محبوبا لها، لذا فهذه الكلمة تحدد أنه يجب ألا نطمع إلا فيما نقدر عليه مج 1، ص 405–406 مرجع سابق .

[5] فتح القدير، محمد بن علي الشوكاني، دار الحديث القاهرة، ط 3، 1418هـ–1997م مج 1، ص143

محمد، وكذلك فإن في الآية أسلوب تلوين للخطاب، وإنكار الواقع، لا إنكار الوقوع وصرف له عن اليهود، بعدما ذكرت قبائحهم ونعت عليهم جرائمهم، للحديث عن النبي ومن معه من المؤمنين[1].

قال السعدي: هذا قطع لأطماع المؤمنين من إيمان أهل الكتاب، فلا تطمعوا في إيمانهم وأخلاقهم لا تقاضي الطمع فيهم، فإنهم كانوا يحرفون كلام الله من بعد ما عقلوه وعلموه، فيضعون له معاني ما أرادها الله، ليوهموا الناس أنها من عند الله، فإذا كانت حالهم في كتابهم الذي يرونه شرفهم ودينهم، يصدون به الناس عن سبيل الله، فكيف يرجى منهم إيمان لكم، فهذا من أبعد الأشياء [2] . لقد استعمل الحكيم عز وجل همزة الاستفهام للنهي والإنكار وأتبعها بالفاء عاطفة على المقدر بعد الهمزة، كأن الحق سبحانه وتعالى يسأل الجماعة المؤمنة وعلى رأسهم سيد الخلق محمد – صلى الله عليه وسلم–أتسمعون أخبارهم فتطمعون أن يؤمنوا لكم، فهم ممن يحرفون كلام الله من بعد ما عقلوه وعلموه فهم أبعد الخلق عن الله فلا تطمعوا بإيمانهم.

المسألة الرابعة: العلاقة بين السماع والتحريف

1- يسمعون كلام الله:

الجملة حالية لتأكيد الإنكار، حاسمة لمادة الطمع؛ بإيمانهم [3]وكأن الله يريد أن يقول للرسول صلى الله عليه وسلم والصحابة هؤلاء اليهود الذين هم في المدينة، لن يؤمنوا بدينكم لأنهم يخطون نفس الخطى التي كان عليها أسلافهم من قتل الأنبياء ونقض العهود والمواثيق وتحريف لكتاب الله فهي طباع جبل عليها.

---

[1] ينظر، إرشاد العقل السليم مج 1، ص 140

[2] تفسير كريم المنان ص 38 مرجع سابق .

[3] ينظر، إرشاد العقل السليم مج 1، ص 140.

حرف، يحرف حرفا، وانحرفا؛ عدل، وإذا مال الإنسان عن شيء يثال؛ تحرف وانحرفا، حرف حرفا الشيء عن وجهه حرفه وأماله، **المرام في المعاني والكلام ،القاموس الكامل، عربي–عربي**، مؤنس رشاد الدين، دار راتب الجامعية، الطبعة 1، 2000م، ص 313.

2- يحرفونه: التحريف:

قال الشعراوي: والتحريف معناه أن يأتي باللفظ الذي يحتمل معنيين، خير وشر، لكنك تريد منه الشر[1].

3-العلاقة بين السماع والتحريف.

جاء السماع والتحريف كلاهما ليؤكد الله على الصحابة أن يقطعوا طمعهم من إيمان اليهود، لأنهم قوم بهت أصروا على الضلال لأن في ذلك تحقيق لأهوائهم ومصالحهم فقد حرفوا بعد سماعهم وسبب تحريفهم حسب ظنهم ستر فسادهم.

المسألة الخامسة: أهمية استخدام الجمل الفعلية؛ يقولون — يلوون)*

1- يقولون هو من عند الله:

الجملة الفعلية حالية، لبيان الحالة التي عليها اليهود من التحريف المستمر والدائم في التحريف بعد السماع، وأكدوا كلامهم المحرف عندما قالوا "هو من عند الله" قال الشعراوي: هذه معصية مركبة سمعوا كلام الله وعقلوه، وعرفوا العقوبة على المعصية ثم بعد ذلك حرفوا[2]، فأي معصية أكبر عند الله من الكذب على ذاته العلية.

[1] الشعراوي مج 4، ص2280 .

[2] الشعراوي مج 1،ص406 .

2- يلوون[1] قال البقاعي:

يفتلون ويحرفون ألسنتهم بالكتاب، بأن ينقلوا اللسان لتغير الحرف من مخرج إلى آخر، مثلا: بأن يقولوا في — اعبدوا الله — ابدوا اللات، وقوله ولا تقتلوا النفس إلا بالحق، يقولون بالحد، ومن زنى فارجموه[2] وقال القرطبي؛ يحرفون الكلم: يعدلون به عن القصد، وأصل اللى: الميل، لوى بيده ولوى برأسه، قال تعالى: لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ [3]، وقال: لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ [4]، عنادا من الحق وميلا عنه إلى غيره [5].

قال السعدي: يميلونه ويحرفونه عن المقصود به، وهذا يشمل اللي والتحريف اللفظي والمعنوي[6].

وقال سيد قطب: يأولون نصوصه لتوافق أهواء معينة، ويشترون بهذا كله ثمنا قليلا[7].

والمراد هنا هم أهل الكتاب؛ وبالأخص اليهود من بني إسرائيل فقد كانوا يلوون ألسنتهم بالكتاب، ليظن السامع أن الذي يتلونه هو كلام من عند الله، وما هو مما أنزله الله على أحد من أنبيائه، ولكنه مما أحدثوه من قبل أنفسهم افتراء على الله وشهادة علية بالباطل ابتغاء للرياسة وخسيس حطام الدنيا.

---

[1] يلوون؛ لوى يده، لوى برأسه إذا أماله — مجمل اللغة لابن فارس ، أبو الحسن بن فارس بن زكريا اللغوي المتوفى سنة 395هـ، دراسة وتحقيق زهير عبد المحسن سلطان، طبع بمساعدة اللجنة الوطنية، للاحتفال بمطلع القرن الخامس عشر الهجري في الجمهورية العراقية، مؤسسة الرسالة، د ط، د ت.مج3 —4، ص 797

[2] نظم الدرر مج 2، ص 116.

[3] سورة النساء، آ46

[4] سورة المنافقون، آ 5

[5] الجامع الأحكام القرآن مج 2، ص 484 .

[6] تفسير الكريم الرحمن، ص 110بتصرف.

[7] الظلال مج 1، ص 418.

المسألة السادسة؛ أنواع التحريف واللي؛

1- التحريف اللفظي.

القرآن الكريم: قوله تعالى: - قولوا حطة - فقالوا: حنطة، قال النسفي: واللي: الفتل وهو الصرف والمراد تحريفهم أية الرجم ونعت محمد عليه الصلاة والسلام [1].

ومن السنة النبوية؛ وهذا ما فعله اليهود عندما دخلوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعن عروة بن الزبير أن عائشة رضي الله عنها زوج النبي. صلى الله عليه وسلم: دخل رهط من اليهود على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا: السام عليكم قالت عائشة ففهمتها فقلت وعليكم السام واللعنة قالت فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم مهلا يا عائشة إن الله يحب الرفق في الأمر كله فقلت يا رسول الله أو لم تسمع ما قالوا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قلت وعليكم)[2].

فالتحريف اللفظي يعني التلاعب بالألفاظ من خلال تغيرها أو تبديلها ويظهر التحريف اللفظي كما جاء في سورة البقرة لقوله ﴿ يخ يم يى يي ذٰ رٰ ىٰ ﴾ ﴿ ئر ئز ئم ئن ئى ئي ﴾

ففي هذه الآية الكريمة دلالة على التحريف اللفظي الذي قام به اليهود فغيروا لفظة بلفظة أخرى تتلائم مع أهوائهم ومصالحهم فطوعوا اللفظ لأغراضهم فكأن المسألة ليست عدم القدرة على الطاعة ولكن الرغبة في المخالفة.

[1] النسفي، دار إحياء الكتب العربية، د ط، د ت، مج 1، ص 165

[2] فتح الباري بشرح صحيح البخاري، للإمام الحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (773هـ-856هـ)، تحقيق عبد العزيز بن عبد الله بن باز، ورقم كتبها وأبوابها وأحاديثها محمد فؤاد عبد الباقي، دار الرشيد، د ط، د ت، رقم الإيداع 2000/2079، الترقيم الدولي 977.6092.09.8-، كتاب الأدب-باب الرفق في الأمر كله مج 10/ص511 رقم 6024.

2- التحريف في المعنى:

القرآن الكريم: [يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرۡنَا وَٱسۡمَعُواْۗ وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١٠٤] [1]

قال د محمد عثمان شبير: وتحريف، النصوص، وتأويلها تأويلا فاسدا لأنهم لا ينقضون العقائد من أساسها ويكذبونها، وإنما يفسرونها تفسيرا يحرفها عن معانيها الحقيقية، كما جاء في البروتوكولات لا تكذبوا نصوص الجوييم [2]بل فسروها تفسيرا يزيل مفهومها[3]، وتحريف اليهود ليس محصورا لكتب الله فقط، بل إنهم يحرفون كل ما لا يتفق مع أهوائهم. فالتحريف المعنوي يعني تغيير المعنى بحسب ما تقتضيه مصلحة المحرف، ففي هذه الحالة كان اليهود يحرفون المعنى لا اللفظ إذ يقومون بتأويل بعض النصوص لما يوافق أهوائهم وأنفسهم الأمارة بالسوء من دون تغيير اللفظ الظاهري لعدم تمكنهم من ذلك إما بسبب اشتهار النص أو لسبب آخر.

المسألة السابعة؛ الفرق في التعبير

تُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ [4]

[ۖ تُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ مِنۢ بَعۡدِ مَوَاضِعِهِۦ] [5].

[1] سورة البقرة، آ 104

[2] هم الأمميون ، والمقصود بهم غير اليهود من البشر.

[3] مخاطر الوجود اليهودي على الأمة الإسلامية ص 29 ، دار النفائس –ط- الأولى 1412هـ 1989م.

[4] سورة النساء، آ 46

[5] سورة المائدة، آ 13

قال بن سيده: والوضع ضربت من السير وضع يضع وأوضع وأوضعته حملته على الوضع[1]

قال الشعراوي؛ يحرفون الكلم عن مواضعه، فكأن المسألة لها أصل عندهم، والكلام المنزل من الله وضع أولا وضعه الحقيقي، ثم أزالوه وبدلوه، ووضعوا مكانه كلام غيره، مثل تحريفهم الرجم، بوضع الحد مكانه. وأضاف، أما قوله: فتفيد أنهم رفعوا الكلام المقدس، من موضعه الحق، ووضعوه موضع الباطل، بالتأويل والتحريف، حسب أهوائهم، بما اقتضته شهواتهم، فكأنه كانت له مواضع، وهو جدير بها وحين حرفوه تركوه منقطع لا موضع له[2].

الفرق بينهما: على ضوء ما سبق يتبين أن الفرق بينهما كالتالي:

يحرفون الكلم عن مواضعه؛ تعمدوا تبديل كلام الله بكلام غيره من عندهم، وغايتهم من ذلك تبديل أحكام الله لأنها تتعارض مع أهوائهم وتكشف أكاذيبهم.

يحرفون الكلم من بعد مواضعه، استعملوا-كلام الله في غير موضعه الذي كان فيه، قصدهم من ذلك تحقيق مصالحهم، والتحايل مع من حولهم بأنهم متمسكون بتعاليم الله.

ت: جرأة اليهود على الله.

اتهام الله بالفقر.

قال تعالى: لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ [3] .

[1] المخصص لابن سيده ب — ورد الإبل مج 2، ص 192 لأبي الحسن علي بن إسماعيل النحوي اللغوي الأندلسي المعروف بابن سيده، تحقيق ؛ خليل إبر اهم جفال، دار النشر — دار إحياء التراث العربي — بيروت 1417هـ - 1996م الطبعة - الأولى.

[2] الشعراوي مج 4، ص 2282 .

[3] سورة آل عمران، آ 181

جاءت هذه المعصية لليهود بعدما سمعوا قول الله تعالى: مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًا فَيُضَـٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضۡعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقۡبِضُ وَيَبۡصُۜطُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾ [1]

قال المفسرون: إن اليهود قالوا ما قالوه في حق الله لما أنزل ـــ من ذا الذي يقرض الله قرضنا حسنا ـــ[2]، وهدفهم التشكيك في الله وتكذيب النبي صلى الله عليه وسلم، قال القرطبي: وإنما قالوا هذا تمويها على ضعفائهم، لا يعتقدون هذا لأنهم أهل كتاب، ولكنهم كفروا بهذا القول، لأنهم أرادوا تشكيك الضعفاء منهم، ومن المؤمنين وتكذيب النبي صلى الله عليه وسلم [3].جاءت هذه الآية الكريمة لتشير إلى دسائس اليهود وأساليبهم الخبيثة في محاربة الرسالة المحمدية عن طريق التشكيك والتآمر والكيد والدس لتحذر المؤمنين من خطرهم، كما بينت الآية الكريمة موقف اليهود المخزي من الذات الإلاهية واتهامهم الله عز وجل بالفقر –تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا– فجاءت هذه الآية لتفضح زعمهم الباطل وذكرتهم بقتلهم أنبيائهم بغير حق.

التفسير البياني.

وفيه سبع مسائل؛

المسألة الأولى؛ أهمية القسم في قوله؛ ولقد سمع).

1–اللام موطئة لقسم مقدر تقديره، و"الله قد سمع الله" قول الذين قالوا إن الله فقير.

[1] سورة البقرة، آ 245

[2] ينظر، فتح القدير مج 1، ص 520، إرشاد العقل السليم مج 1، ص 456

[3] الجامع لأحكام القرآن مج 2، ص 634

2-قد: حرف يفيد التوكيد عند دخوله على الفعل الماضي، وجاء القسم والتوكيد لأن ما قالوه كلمة عظيمة، أدت إلى الكفر بالله، والاستهزاء بالقرآن والرسول صلى الله عليه وسلم، من أجل هذا جاء ذكرها مع جريمة قتل الأنبياء عليهم السلام [1]

3— سمع: وهذا ما قاله الزمخشري رحمه الله: وجود السماع مؤكد بالقسم، ثم قال سنكتب على جهة الوعيد، بمعنى لن يفوتنا أبدا ثباته وتدوينه كما لن يفوتنا قتلهم الأنبياء [2] من أقوال وأفعال، ومحاسبهم على سوء أدبهم وقبح أقوالهم والتعبير فيه تهديد لهم على ما ارتكبوا[3].

فالمقصود من هذا السمع أن الله قد علم وأحاط بكل ما يقولون من قبائح، ولم يفته ولم يخف عليه شيء وهو سيجزيهم بما كانوا يفترون على الله.

المسألة الثانية؛ دلالة التعبير في قوله؛ (سنكتب).

1— السين في - سنكتب ___ لتأكيد الكتابة، وأنه لم يفوتنا تدوينه وإثباته [4]

2— الكتابة، فيها تبكيت لعملهم، وأن الله سيحاسبهم عليه، والمراد الكتابة في صحائف أعمالهم، وهذا يعنى عدم الصفح عنهم، ولا العفو، بل المحاسبة، فالكتابة أوكد للحجة[5].

لقد ارتكب اليهود آثام كثيرة في حق الله وهذا من سوء أدبهم وسوء طويتهم وحتى لا ينكروا ما قالوا يوم القيامة كتبه الله من خلال الحفظة كما قالوه حرفيا، قال البيضاوي: "سنكتبه في صحائفكم، أو

[1] أنوار التنزيل مج 1، ص 192 دار الكتب العلمية بيروت لبنان ط — الأولى —2003م/1424هـ

[2] ينظر، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي، اعتنى به وأخرج أحاديثه وعلق عليه، خليل محمود شيحا دار المعرفة، بيروت، لبنان،ط 3، 1430هـ-2004م، مج 1، ص 484

[3] بنو إسرائيل في القرآن والسنة ص 417-418 .

[4] التفسير الوسيط، سيد محمد الطنطاوي، مطبعة السعادة،د ط، د ت، مج 1، ص 814

[5] التحرير والتنوير مج 4، ص 184 .

سنحفظه في علمنا لا نهمله، لأنه كلمة عظيمة، لأنه كفر بالله عز وجل، واستهزاء بالقرآن والرسول، لذلك نظمه مع قتل الأنبياء، وفيه تنبيه على أنه ليس أول جريمة ارتكبوها[1].

قال الرازي رحمه الله؛ هذا وعيد على ذلك القول، كتبه الله عليهم ليثبته وألا

يلغى ولا يطرح، وذلك لأن الناس إذا أرادوا إثبات الشيء على وجه لا يزول ولا ينسى ولا يتغير، كتبوه[2]، قال أبو حيان: سنكتب ما قالوا في القرآن حتى يعلم القوم شدة تعنتهم وحسدهم في الطعن عليه صلى الله عليه وسلم[3] ، قال الشعراوي رحمه الله؛ حتى عندما يحاسبهم الله ويعاقبهم يوم القيامة، يؤاخذهم بقولهم لا بما سيقوله عنهم هو ولكن بما كتبه عليهم، ليقال لليهودي عند الحساب:

ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبٗا [4] ﴿١٤﴾ [5] .

فقوله سبحانه وتعالى ﴿ سنكتب ما قالوا ﴾ تهديد ووعيد، ولهذا قرنه بقوله تعالى ﴿وقتلهم الأنبياء بغير حق﴾ بمعنى هذا قولهم في الله، وهذه معاملتهم لرسل الله وسيجزيهم الله على ذلك شر الجزاء ولهذا قال تعالى ﴿ ونقول ذوقوا عذاب الحريق ﴾. يتضح لنا أنها نزلت في يهود المدينة رغم أنهم لم يقتلوا في هذه الفترة أي نبي ولكن ما هو السر الرباني في استعمال لفظة القتل كمصدر.

[1] -ينظر،أنوار التنزيل وأسرار التأويل، مج 1، ص 193

[2] التفسير الكبير ومفاتيح الغيب، محمد الرازي فخر الدين ابن العلامة ضياء الدين عمر، دار الفكر للطباعة، لبنان، بيروت، ط1، د ت، مج 9، ص 122

[3] البحر المحيط مج 3، ص 136 مرجع سابق

4 تفسير الشعراوي مج3، ص 1911 مرجع سابق.

[5] سورة الإسراء، آ 41

المسألة الثالثة: سر استخدام المصدر، في قوله تعالى؛ (قتلهم الأنبياء)

1-لبيان أن صفة القتل متأصلة عند اليهود، وأن يهود المدينة كانوا راضين عن الجرائم التي قام بها أسلافهم في الماضي، وأبشعها قتل الأنبياء[1].

2-جاءت هذه الجملة تحذيرا للنبي صلى الله عليه وسلم من تآمر اليهود على قتله، قال أبو السعود: عطف عليه-على قولهم -وقتلهم الأنبياء إيذانا بأنهما في الجرم والعظم سواء، وتنبيها على أن جريمة اتهام الله بالفقر ليست أول جريمة ارتكبوها، بل لهم سوابق، وأن من تجرأ على قتل الأنبياء لم يستبعد منه أمثال هذه الجريمة[2]. فالذي أراده الحق سبحانه وتعالى أن يبين للحبيب —صلى الله عليه وسلم- أن اليهود الذين كانوا على عهده - صلى الله عليه وسلم- لم يكن أحد قتل نبيا من الأنبياء غير أنهم كانوا راضين ما فعل أوائلهم من قتل؛ فوضح جل ثناؤه أن هؤلاء الحاضرين من اليهود يسيرون على نفس طريق أسلافهم، فلا يستبعد منهم أنهم تجرأوا واتهموا الخالق عز وجل بالفقر.

المسألة الرابعة؛ دلالة التعبير في قوله؛ (بغير حق).

قال سيد طنطاوي: ووصف سبحانه قتلهم الأنبياء بغير حق، مع أن الإجرام لا يكون بحق أبدا، للإشارة إلى شناعة أفعالهم وضخامة شرورهم، وأنهم لخبث نفوسهم وقسوة قلوبهم لا يبالون أكان فعلهم في موضعه أم في غير موضعه [3].

المسالة الخامسة: قوة التعبير في (ذوقوا).

استخدام هذا التعبير لما فيه من السخرية والاستهزاء والوعيد، وشدة العذاب الذي ينتظرهم، قال سيد طنطاوي; والذوق حقيقته إدراك المطعومات، والأصل أن يكون في أمر مرغوب تذوقه وطلبه

1 ينظر، الجامع لأحكام القرآن مج2، ص235

2 ينظر، إرشاد العقل السليم مج 1، ص407

3 التفسير الوسيط مج 1، ص457.

فالتعبير هنا بذوق العذاب، فيه تهكم واستهزاء، كما قال الله؛ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ .

فتحويل العذاب المعنوي إلى أمر مادي يمكن تذوقه بحاسة الذوق، للمبالغة في الوعيد وشدة الألم، فقد أراد الله استخدام لفظ ذوقوا ليقول لنا إن العذاب الأليم الذي جعله بسبب جريمتهم سيتغلغل إلى جميع خلاياهم.

قال الشوكاني: وإطلاق الذوق على إحساس العذاب فيه مبالغة في الوعيد[1]، قال الشعراوي : لفظ الذوق حاسة لا تختفي من أي إنسان، ولأنه نابع من داخله، لذا فهو أبلغ في الإيلام[2].

المسألة السادسة: قوة التعبير في قوله:(ذلك بما قدمت أيديكم).

1-اسم إشارة يدل على البعد المكاني، ولكنه هنا أراد بيان بشاعة الإثم الذي ارتكبه اليهود، قال أبو السعود: إشارة إلى العذاب المذكور، وما فيه من معنى البعث، للدلالة على عظم شأنه وبعد منزلته في الهول والفظاعة[3].

فاسم الإشارة "ذلك" يقصد بها البعيد فالإنسان السوّي يكون عادة بعيدا عن هذا النوع من المعصية لقبحها وسوء عاقبتها.

2- بما: الباء هنا جاءت لتفيدنا بمعنيين هما: أولا باء السببية؛ فقد ألحق بهم الله عز وجل العذاب بسبب عصيانهم وتمردهم، ثانيا: أفادت الإلصاق، والمغزى هو أن الفعل قد التصق بفاعله وأصبح ملازما له، لكثرة ارتكابه.

1 ينظر، فتح القدير مج 1، ص 520

2 الشعراوي مج 3، ص1912

3 ينظر، إرشاد العقل السليم، مج1، ص 457

3- أيديكم: قال أيديكم مع أنهم ارتكبوا جريمتهم بالقول لا بالفعل، فالإنسان غالبا ما يرتكب المعصية بيده أو بلسانه، وتخصيص الأيدي بالذكر؛ للدلالة على التمكن من الفعل وإرادته، ولأن أكثر الشر يكون ببطش اليد ولأن نسبة الفعل إلى اليد تفيد الالتصاق به، والاتصال بذاته[1]. فكثرة المعاصي التي ارتكبوها، كانت سبب عذابهم بالحريق في اليوم الآخر. كما كانت هنا إشارة لليهود في المدينة لمفاسد أسلافهم وتحذيرهم من الوقوع في نفس الجرائم فينالهم نفس الجزاء.

المسألة السابعة: العلاقة بين ذوقوا عذاب الحريق وبين بما قدمت أيديكم).

العلاقة بينهما سببية، لوجود الحرف بما، ولأنه لما ذكر العذاب الشديد -عذاب الحريق ذكر سببه قائلا -بما قدمت أيديكم — لبيان أن العذاب الذي نزل بهم عدل مطلق، لا جور فيه، قال سيد طنطاوي؛ ذلك العذاب الذي حاق بكم أيها اليهود، بسبب ما قدمته أيديكم، من جرائم وما نطقت به أفواهكم من منكر[2].فالعزيز الحكيم يبين لنا أن حصول العذاب قد وجب بما قدمت أيديهم من جرائم.

ث- التحايل على استحلال المحرمات.

قال تعالى: وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْاْ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ [3] ﴿٦٥﴾

[1] زهرة التفاسير، ص 1530

2 ينظر، الوسيط في التفسير، مج 2، 473

[3] سورة البقرة، آ 65

وقال تعالى: فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾ [1] وقال سبحانه: وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ ۙ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ [2]

أخبرنا الحق تبارك وتعالى أن يهود المدينة وخاصة كبار الأحبار منهم كانوا على علم ودراية بمعاصي أسلافهم السابقين، لأن خبر عقاب أصحاب السبت كان منتشرا بينهم إذ كان له صدى يتردد في الأجيال بعدهم جيلا بعد جيل، ومن أهم تلك المعاصي استحلال ما حرم الله عليهم يوم السبت الذي جعله الله يوم عبادة ينقطعون فيه عن أعمالهم، فأراد سبحانه وتعالى أن يختبرهم فأغراهم بالحيتان تظهر لهم وأمرهم ألا يصطادوها، فعصوا أمره فكان العقاب أن مسخهم الله قردة وخنازير وجعلهم عبرة لغيرهم.

التفسير البياني:

وفيه ثلاث مسائل:

المسألة الأولى: دلالة التعبير في قوله: (ولقد علمتم):

1—قال ابن عطية؛ اللام في لقد، لام توكيد وتسمى لام الابتداء، وجاء التوكيد لأن مثل هذه القصة يمكن أن يبهتوا في إنكارها، وذلك لما نال في عقبى أولئك المعتدين من مسخهم قردة فاحتيج في ذلك إلى توكيد، لأنهم علموا ذلك حقيقة[3]، قال الطبري: حذر الله المخاطبين من أن يحل بهم

[1] -سورة البقرة، آ 66

[2] - سورة الأعراف، آ 163

3 البحر المحيط مج 1، ص 408مرجع سابق.

بسبب كفرهم وإصرارهم، وجحودهم نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، مثل ما حل بأوائلهم من المسخ والرجف والصعق، وما لا قبل له به، من غضب الله وسخطه[1].

2 — علمتم[2]: أكدت الغرض البلاغي للقسم والتوكيد، وقال علمتم ولم يقل عرفتم، وأما الفرق بينهما فقد جاء على النحو التالي:

- علمتم؛ عرفتم أعيانهم، وعلمتم أحكامهم، وأحوالهم.
- عرفتم: مسماهم وهي توجه إلى ذات المسمى[3].

* الفرق بينهما:

قال أبو هلال العسكري رحمه الله: إن المعرفة أخص من العلم لأنها علم بعين الشيء مفصلا عما سواه، والعلم يكون مجملا ومفصلا، فكل علم معرفة، وليس كل معرفة علم،[4] فالعلم أعم وأشمل من المعرفة، لأنها خاصة بالذات، والعلم: معرفة بالذات والأحوال، والعلاقة بينهما عموم وخصوص.

قال الرازي: "فكأنه يقول لهم: أما تخافون أن ينزل عليكم بسبب تمردكم ما نزل عليهم من العذاب، فلا تغتروا بالإمهال الممدود لكم[5].

1 جامع بيان مج 1، ص 370 مرجع سابق

2 علمت الشيء: بمعنى عرفته وخبرته، وعلم الرجل خبره، وأحب أن يعلمه، أي يخبره-لسان العرب، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور الإفريقي المصري، ط 3، دار صادر، بيروت، لبنان، 2004م مج4، ص 871

3 ينظر، الجامع لأحكام القرآن مج 1، ص397، وانظر زهرة التفاسير مج 1، ص 261

4 أبو هلال العسكري، الفروق في اللغة تحقيق لجنة إحياء التراث العربي في دار الآفاق الجديدة، مكتبة لبنان بيروت، ط 4، 1400هـ-1980م، ص249

5 التفسير الكبير مج 3 -4، ج 1، ص 110

لقد علم يهود المدينة بأحوال وسوء أخلاق السابقين من أجدادهم، وما نزل بهم من عقوبات، ومع ذلك فقد أظهروا عداوتهم للرسول صلى الله عليه وسلم ودعوته، فحل بهم على يديه ما حل بأسلافهم من غضب ولعن في المدينة بطردهم منها.

المسألة الثانية: التحقيق في فعل الكينونة كونوا:

قال البغوي في فعل الكينونة: "كونوا" ليس المقصود به الأمر أي افعلوا، وإنما المراد به بيان قدرة الله في سرعة أمر تحويل وتكوين بني إسرائيل[1]، إلى قردة وخنازير، وأنهم صاروا كذلك كما أراد بهم ربهم ويرى الشعراوي في هذه المسألة أمرين هما: هل الأمر للتنفيذ، أم للتسخير وبيان القدرة الإلهية؟، ولو كان الأمر للتنفيذ ما فعلوه، لسببين:

الأول: لأن طبيعة اليهود المتمردة على أوامر الله، وتلكؤهم، يحول دون ذلك.

الثاني: لأن التنفيذ هنا ليس في مقدور اليهود، ولا أحد من الخلق[2]

إذن ففعل الكينونة كونوا، بمعني تحولوا بقدرة الخالق وإرادته إلى قردة، يؤكد هذا المعنى حرف الفاء في قوله تعالى؛ (فقلنا) الذي يفيد التعقيب والترتيب، قال ابن حيان: أمر من الكون، وليس بأمر حقيقة، لأن صيرورتهم إلى ما ذكر ليس فيه تكسب لهم لأنهم ليسوا قادرين على قلب أعيانهم قردة، بل المراد منه سرعة الكون على هذا الوصف[3]. قال الشعراوي؛ وهذا الأمر يسمى أمرا تسخيريا ولم يقل لهم كونوا قردة، ليكونوا بإرادتهم ولكن بمجرد أن قال كونوا قردة كانوا، وهذا يدلنا على انصياع المأمور للأمر وهو غير مختار[4].فقوله عز من قائل كونوا بمعنى صيروا قردة صاغرين مبعدين عن مجتمعكم ذليلين بتنكيس خلقتكم.

1 معالم التأويل مج1، ص60 بتصرف

[2] ينظر، تفسير الشعراوي، مج1، ص 384

[3] البحر المحيط، مج 1،ص 409

4 تفسير الشعراوي، مج1، ص ، 384

المسألة الثالثة: حقيقة المسخ إلى قردة

1 ـ قردة؛ لماذا هذا الحيوان دون غيره من الحيوانات؟؟؛.

أـــ لأن القردة هي الحيوانات المفضوحة العورة دائما فهذه طبيعتها، وكذلك اليهود.

بـــ لأن القردة هي التي لا تتأدب إلا بالعصا، وهذا ما حدث مع اليهود لم ينفذوا منهج الله إلا عندما رفع فوقهم جبل الطور.

تـــ لأن القردة لا يغارون على أعراضهم، وهذه صفة ملازمة لليهود، ويسعون لترويجها في بلاد المسلمين من خلال العري والجنس [1]

ثـــخاسئين؛ الخسأ: الطرد والإبعاد[2]، وخاسئين: مبعدين أذلاء صاغرين، كما يقال للكلب وللمطرود اخسأ، والجملة حالية، فأصبحوا بعد المسخ يزجرون ويطردون من المجالس كما تطرد الكلاب والعياذ بالله، إضافة إلى مسخ أشكالهم.

2-حقيقة المسخ: اختلف المفسرون في ذلك، بين الحقيقة والمجاز، والتحقيق عند القرطبي أن مسخهم كان حقيقة، قال: وقال الجمهور: الممسوخ لا ينسل، وإن القردة والخنازير، وغيرهما كانت قبل ذلك، والذين مسخهم الله، قد هلكوا ولم يبق لهم نسل، لأنه قد أصابهم السخط والعذاب، فلم يكن لهم قرار في الدنيا بعد ثلاثة أيام، وهذا هو الصحيح[3].

1 انظر تفسير الشعراوي مج 1، ص385.

2 البغوي مج 1، ص 384بتصرف.

3 الجامع لأحكام القرآن مج 1، ص398 .

3-الذي يؤكد أن المسخ كان حقيقة، وجود الفاصلة في قوله تعالى: فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا1 بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ [2] ﴿٦٦﴾، لأن المسخ لو كان مجازيا لما كانت العقوبة رادعة للغير، ولما جاءت الفاصلة بهذا التعبير والقوة، فحرف الفاء الذي يفيد التعقيب والترتيب، وضمير العظمة في ناء الفاعلين، لأن المسخ على حقيقته لا يقوى عليه إلا العظيم، وهاء الضمير العائدة على العقوبة" نكالا " اقتضى ذكرها في الفاصلة ليظهر أثرها على يهود المدينة، فتمنعهم عن تكذيبهم للرسول، وكذلك لإظهار قدرة الخالق سبحانه، وتسلية للرسول صلى الله عليه وسلم. والصحابة رضي الله عنهم في المدينة المنورة. وهذه العقوبة الفظيعة الشنيعة مناسبة لخبث نفوسهم، وسوء طويتهم الملتوية، واستخفافهم بحساب الله سبحانه وتعالى، فإن معصيتهم كانت عظيمة، لكونها مشوبة بالحيلة على الله، كأن الله جاهل تنطلي عليه الحيل والتلبيسات.

جـ- تكذيب الأنبياء وقتلهم:

قال الله تعالى : وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ [3] وقال ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ

1 النكال؛ الزجر والعقاب، والنكد والأنكال؛ القيود وسميت القيود بنكالا، لأنها ينكل بها: أي يمنع، ويقال للجام الثقيل نكل، لأن الدابة تمنع به، الجامع لأحكام القرآن مج 1، ص 401، والنكال هو العقوبة الشديدة، وجعلناها نكالا زجرا وعقابا قويا، الشعراوي مج 1، ص 386

[2] -سورة البقرة، آ 66

[3] سورة البقرة، آ 87

مِنۢ بَقۡلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسۡتَبۡدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدۡنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيۡرٌ ۚ ٱهۡبِطُواْ مِصۡرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلۡتُمۡ ۗ وَضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلۡمَسۡكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَانُواْ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ﴿٦١﴾ [1] ، وقال ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ حَقّٖ وَيَقۡتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡقِسۡطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِى ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأَخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٢﴾ [2] ﴾

أنبأنا الله عز وجل في هذه الآيات عن بعض الرسل الذين أرسلهم الله إلى بني إسرائيل ليخرجوهم من الظلمات إلى النور، وأيدهم بالمعجزات، غير أن هذه النفوس المريضة قابلت دعوة الحق بالعناد والتكذيب والقتل، فتجرؤ على رسالة الله، وتجرؤ على أنبياء الله، وبذلك ضلوا ضلالا بعيدا، فعاقبهم الله بالعديد من العقوبات التي تتناسب مع جريمتهم، من أهمها حياة الذل والمهانة في الدنيا والعذاب الأليم في الآخرة.

[1] سورة البقرة، آ 61

[2] سورة آل عمران، آ 21-22

التفسير البياني؛

وفيه ثماني مسائل:

المسألة الأولى؛ أهمية القسم في قوله: (ولقد):

اللام للقسم دخلت على حرف التوكيد قد، وتصدرت الجملة بهما لإظهار كمال الاعتناء بما سيأتي[1].كما رأى صاحب البحر أن اللام من لقد محتملة أن تكون لام جواب القسم ولا التوكيد، واللام في لقد هي لام التوكيد وتسمى لام الإبتداء[2].

المسألة الثانية؛ دلالة التعبير بقول الله (وقفينا):

قال الشعراوي أتبعنا بعضهم بعضا كل يخلف الذي سبقه [3]، وهذا يعنى أن كل رسول جاء برسالة التوحيد، وعبادة الله عز وجل، ويتضح لنا أن بني إسرائيل أرسل لهم عدد كبير من الرسل، منهم داوود وسليمان وزكريا ويحي عليهم السلام وغيرهم، قال تعالى؛ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ [4]تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾[5]، وهذا دليل على سرعة تقلب قلوبهم القاسية التي وصفها الحق بأنها أقسى من الحجارة، فقد أعلنوا بكل وقاحة أن قلوبهم غلف، لا تسمح بدخول شيء فيها، لأنها امتلأت هوى، فهوى بهم من سمو الإيمان، إلى درك الكفر والعصيان، وهذا ما أكده القرآن بقوله: [أَ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا

1 إرشاد العقل السليم مج 1، ص 152

[2] البحر، مج 2، ص 245

3 الشعراوي مج 1، ص 443.

[4] سورة النساء، آ 164

5 نفسه، مج 1، ص443.

لَا تَهۡوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ فَفَرِيقٗا كَذَّبۡتُمۡ وَفَرِيقٗا تَقۡتُلُونَ [1]﴿٨٧﴾، فهم أشبه بالإنسان المريض الذي تتوالى عليه الأطبة لمعالجة نفس المرض.

المسألة الثالثة: دلالة التعبير بالاستفهام والتكرار أفكلما:

1— الإستفهام أفاد التوبيخ والإنكار والتعجب من حالهم، وموقفهم ضد أنبيائهم [2]

2— كلما: ظرف أفاد التكرار، والعامل فيه استكبرتم وظاهر الكلام الاستفهام، أفاد التوبيخ والتقرير ويتضمن الخبر عنهم[3]، تقديم المفعول على الفعل — ففريقا كذبتم — وتقديم فريقا في الوضعين للاهتمام وتشويق السامع إلى ما فعلوه بهم[4]، وكأنه يستمر في توبيخهم ليقول لهم أن هؤلاء أنبياؤكم رسل الله إليكم فأي جريمة ارتكبتم في حقهم، بدلا من أن تصدقوهم تكذبونهم، وبدلا من نصرتهم وحمايتهم تقتلونهم؟ ما لكم كيف تفعلون؟

المسألة الرابعة؛ أهمية استخدام الجملة الفعلية تقتلون):

عبر عن جرائم الغائبين بضمير المخاطبين، وبصيغة الفعل المضارع لاستحضار صورة أفعالهم الشنيعة في أذهان المخاطبين، ولإفادة أن أفعالهم هذه متجددة كلما استطاعوا إليها سبيلا، وللإشعار بأن اليهود المعاصرين للنبي صلى الله عليه وسلم كانوا راضين بفعل آبائهم وأسلافهم، ولقد حاول اليهود في العهد النبوي أن يقتلوا النبي صلى الله عليه وسلم ولكن الله —تعالى– نجاه من شرورهم[5]

1— رضي المخاطبين عن جرائم أسلافهم، وإن لم يكونوا قد باشروه.

---

[1] سورة البقرة، آ 87

2 ينظر، إرشاد العقل السليم مج1، ص153

3 المحرر الوجيز مج 1، ص 176.

4 إرشاد العقل السليم مج1، ص153.

[5] التفسير الوسيط، ص 52

2—أعجب الحاضرين بجرائم الغائبين ولم ينكروها، فطباعهم واحدة، ونفوسهم جبلت على الحقد والحسد، وأهدافهم التي يسعون لتحقيقها واحدة، فالكفر وحب الإجرام والعناد والتكذيب هذا الذي يجمع بين سلفهم وخلفهم، وماضيهم وحاضرهم.

3. لبيان قابلية هذه النفوس لارتكاب مثل جرائم أجدادهم، وهذا ما حدث بالفعل عندما حاولوا قتل الرسول صلى الله عليه وسلم في المدينة أكثر من مرة، قال النسفي "لأنكم تحومون حول قتل محمد صلى الله عليه وسلم لولا أن أعصمه منكم، لذلك سحرتموه وسممتم له الشاة "[1]، فصار القتل صفة ملازمة لهم.

4— أراد القرآن استحضار هذه المشاهد المروعة التي حدثت منهم، وكأنها لا زالت ماثلة أمام الأعين لعظمها وخطورتها، وهم يقتلون فريقا من الأنبياء، قال الزمخشري" لأن الأمر فظيع فأريد استحضاره في النفوس وتصويره في القلوب "[2]. إن السميع البصير فضح وبين الموقف المشين لأولئك اليهود تجاه أنبياء الله فقد قابلوهم بأسوأ المقابلة، من تكذيب وقتل هذا لما بلغت قلوبهم من شدة وقسوة، فصارت صفة الكذب والقتل ملازمة لهم.

المسألة الخامسة: استهزاء بالمجرمين فبشرهم[3]

هذه بعض جرائمهم فماذا كانت نتيجتها؟ كانت نتيجتها العذاب الأليم الذي أخبرهم الله به في قوله ﴿ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ والجملة الكريمة خبر إن، وجاز دخول الفاء على خبرها لتضمن اسمها وهو الذين معنى الشرط في العموم.

1 النسفي دار إحياء الكتب العربية، د ط، د ت، ج 1، ص 21.

2 الكشاف، ص 85.

3 يقال بشرت، وبشرت، و أبشرت، وبشرت بكذا وكذا، وبشرت وأبشرت: إذا فرحت به، وبشرت الرجل أبشره; إذا أفرحته، وقال الزجاج؛ معنى يبشرك؛ يسرك ويفرحك، وأصل هذا كله إن بشرة الإنسان تنبسط عند السرور، لسان العرب، مج 1، ص553.

وحقيقة التبشير: الإخبار بما يظهر سرور المخبر- بفتح الباء- على بشرة وجهه، وهو هنا مستعمل في ضد حقيقته على سبيل التهكم بهم، وذلك لأن هؤلاء المعتدين مع أنهم كفروا بآيات الله وقتلوا أنبياءه وأولياء، وفعلوا من منكرات، مع كل ذلك زعموا أنهم أبناء الله وأحباؤه، فساق لهم القرآن ما يخبرهم به على سبيل الاستهزاء بعقولهم أن بشارتهم التي يرتقبونها بسبب كفرهم ودعواهم الباطلة هي: العذاب الأليم.

واستعمال اللفظ في ضده عند علماء البيان من باب الاستعارة التهكمية، لأن تشبيه الشيء بضده لا يروج في عقل العقلاء إلا على معنى التهكم والاستهزاء[1]

قال تعالى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ حَقّٖ وَيَقۡتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡقِسۡطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾﴾[2] أراد الحكم العدل أن تنفتح نفوسهم عند سماعهم قوله عز وجل " فبشرهم " لكونها كلمة تستقبلها النفس بالسرور فتستعد لتسمع خبرا سارا فيأتي بعد ذلك الخبر المفجع وهو العذاب الأليم فيقع وقوع الصاعقة فيكون الإحساس بالمصيبة أشد.

المسألة السادسة: قوة التعبير في قول الله: حبطت:[3]

قال الشوكاني: وحبط معناه؛ بطل وفسد ومنه الحبط؛ وهو فساد يلحق المواشي في بطونها من كثرة أكلها للكلأ، فتنتفخ أجوافها وربما تموت 4، وهكذا الكافر ربما يظن أنه قد عمل أعمالا للخير

[1] تفسير الوسيط، ص 52

[2] سورة آل عمران، آ 21 -

3 والحبط؛ وجع يأخذ البعير في بطنه من كلأ يستبوله، وقت حبط حبطا فهو حبط، وحبطت الشاة حيث، انتفخ بطنها عن أكل الذرق، والحبط ان تأكل الماشية فتكثر حتى تنتفخ لذلك بطونها ولا يخرج عنها ما فيها، لسان العرب مج 1،ص 553.

4 لسان العرب مج 3، ص 521

كثيرة يحصل بها الشيء الكثير، كما يأتي صاحب الإبل فيرى بطونها المنتفخة من كثرة أكل الكلأ فيسر بها ويظن أنها قد سمنت، لكنها سرعان ما تمرض أو تموت، كذلك الكافر يكون قد أتى بشيء أحبط عمله الكثير وأضاع ثوابه، قال تعالى؛ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ [1] ﴿٣٩﴾

المسألة السابعة: دلالة التعبير في قول الله (بغير حق):

قال أبو حيان: حال مؤكدة إذ لا يقع قتل نبي إلا بغير حق، فقتلهم الأنبياء مؤكد وهو قبيح، وكونه بغير حق هو أشد قبحا [2]؛ والمقصود من هذه الحال زيادة تشويه فعلهم [3] والآية تشنيع لأفعالهم القبيحة وكان هناك سؤال مقدر، بأي ذنب قتلوا؟ الجواب؛ بغير حق، قال سيد طنطاوي: جاءت بصيغة التنكير لعموم النفي بحيث يتناول أي حق، وهي في موضع الحال المؤكدة لمضمون جملة يقتلون النبيين، إذ لا يقتلون نبيا، إلا بغير حق [4]. جاءت "بغير حق" بصيغة التنكير لعموم النفي، إذ يتناول الحق الثابت والحق المزعوم، بمعنى أنهم لم يكونوا معذورين بأي لون من ألوان العذر في هذا الاعتداء فقد أقدموا على هذا وهم يعلمون أنهم على الباطل، فكان أعظم الإجرام في موضوعه وفي بواعثه وفي حقيقته.

[1] سورة النور، آ 39

2 البحر المحيط مج 2، ص 430 .

3 التحرير والتنوير مج 3، ج 1، ص 206 .

4 الوسيط في التفسير مج 2، ص 84

المسألة الثامنة: قوة التعبير في قول الله ضربت)[1]

قال د. صلاح الخالدي: هذه الكلمة- ضربت- توحي بالحالة الدائمة التي لا تفارقهم وكأن نفوسهم أعيد تكوينها من جديد، حيث مزجت بالذلة والمسكنة مزجا، وخلطت بها خلطا وعجنت بها عجينا، ثم أعيد تشكيل هذه الشخصية اليهودية فأخرجت إلى الخارج والواقع فكانت مصنوعة من الذلة والمسكنة وتغلغلت في كافة حناياها وتداخلت في جوانبها وسرت في دمائها وأعصابها ومشاعرها وأعضائها [2]، قال البيضاوي: فهي محيطة بهم إحاطة البيت المضروب علي أهلها[3]؛

الضرب له عدة معاني:

1— الخلط: ضربت الشيء بالشيء وضربته: خلطته.

2- الإغراء: والتضريب بين القوم: الاغراء.

آ- الوجوب؛ ضرب على العبد الإتاوة؛ أوجبها عليه [4]، قال سيد طنطاوي؛ وأصل الضرب في كلام العرب يرجع إلى معنى التقاء ظاهر جسم بظاهر جسم أخر بشدة، يقال ضرب بيده الأرض إذا الصقها بها، وتفرعت عن هذا معاني مجازية ترجع إلى شدة اللصوق [5]،وبناء على ما سبق فإن الضرب يتحمل كل المعاني السابقة فنتيجة الجريمة التي وقع فيها اليهود كانت العقوبة المفروضة عليهم قد وجبت حتما والتصقت بهم التصاق الغراء بالشيء بحيث لم يستطع أحد أن يفصل بين العقوبة وبينهم. والذلة والمراد بها الصغار والهوان والحقارة، المسكنة؛ مفعلة من المكون، ومنها أخذ لفظ

---

[1] الدّق، قال الراغب: الضرب؛ إيقاع الشئ على شئ، وضرب الخيمة، يضرب أوتادها بالمطرقة، قال تعالى ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ] آل عمران؛ ١١٢) أي التحفتهم الذلة التحاف الخيمة بمن ضربت عليهم، المفردات ص306.

[2] الشخصية اليهودية، ص 306.

[3] أنوار التنزيل مج 3، ص 175 .

[4] المرجع السابق مج 3، ص 522

[5] التفسير الوسيط مج 1، ص195 .

المسكين لأن الهم قد أثقله [1]، فجعله قليل الحركة والنهوض لما به من الفاقة، والمراد بها في الآية الضعف النفسي.

يعد هذا العنصر مترجم الجانب العملي لصفات اليهود، فهناك علاقة وطيدة بين صفات اليهود والمعاصي التي يقترفونها، إذ تعد بمثابة نتيجة طبيعية لتلك الصفات القبيحة السابقة الذكر. واليهود عندما يرتكبون مفاسدهم إنما ينطلقون من منطلق عقائدي، معتقدين بذلك أنهم يطيعون الرب، وينفدون أوامره، ولنا في توراتهم المحرفة العديد من الآيات التي تحثهم على ارتكاب هذه المفاسد.

جاء في سفر الأخبار 1/19: وكلم الرب موسى قائلا: كلم كل جماعة بني إسرائيل وقل لهم : تكونون قديسين لأني قدوس الرب إلهكم.

وجاء في سفر التثنية 1/7-2: متى أتى بك الرب إلهك إلى الأرض –وطرد شعوبا كثيرة- ودفعهم أمامك وضربتم فإنك تحرمهم – أي: تبيدهم – لا تقطع عليهم عهدا ولا تشفق عليهم.

وجاء كذلك في سفر التثنية 10/20-17: حين تقترب من مدينة استدعها إلى الصلح، فإن أجابتك فكل الشعب فيها يكون لك للتسخير ويستعبد لك، وإن لم تسالمك فحاصرها، وإذا دفعها الرب إلهك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف، وأما النساء والأطفال والبهائم وكل ما في المدينة فتغتنمها لنفسك. هكذا تفعل بجميع المدن البعيدة منك جدا – وأما مدن هؤلاء الشعوب التي يعطيك الرب إلهك نصيبا فلا تستبق منها نسمة ما، بل تحرمها تحريما[2].

يتبين لنا من خلال هذه النصوص أن إله اليهود يقرر لهم سلب الأراضي، ويأمرهم بالمجازر بدلا من التعايش فهو راض عنهم إذا ما ارتكبوا المعاصي أياً كانت ولهذا جاء القرآن الكريم ليفضح هذه الافتراءات الباطلة، كما جاء الإعجاز البياني اللغوي ليتحدى بهذه القوة البلاغية كل الدارسين

[1] التفسير الوسيط مج 195/1.

[2] مغالطات اليهود، عبد الوهاب عبد السلام طويلة، ص 143 -

للقرآن في الزمن الماضي، والحاضر، والمستقبل فلا يستطيع أحد أن يقول بأن القرآن من إنتاج بشري كما زعم بعض المتطرفين.

3- الحقل الدلالي للغة الخطاب القرآني في بني إسرائيل

أولا: حقل ألفاظ السلوك

ثانيا: حقل ألفاظ الوصف

ثالثا: حقل ألفاظ الجزاء

بحث العلماء قديما وحديثا في الظاهرة اللغوية، فتعددت آراؤهم، واختلفوا في نشأة اللغة وفرقوا بين اللفظ والمعنى. والذي يهمنا في دراستنا ذلك المعجم الثمين من الألفاظ الذي يتبين لنا من خلاله الدقة في الاختيار والعمق في التسلسل والترتيب.

حظيت لغة الخطاب القرآني في بني إسرائيل بمعجم ثمين من الألفاظ، فتمثلت لنا من خلال المعاني طبيعة الأطوار التاريخية التي عاشها بنو إسرائيل عبر العصور.

والذي يزيد إعجاز هذا القرآن الذي لا ينقضي عجائبه، أنه حيّ يلمّ بكل النظريات الحديثة والقديمة على حد سواء، ولو تسنى للمرء أن يتدبر ويمعن النظر فيه لحاز على خير وفير.

إن الأصل في الألفاظ أن يختص كل لفظ بمعنى معين، بهذا جرت الكثرة الغالبة من ألفاظ اللغات في العالم، غير أننا نعرف أن أمور الحياة الدنيا متداخلة متشاركة تكون في مجموعها نظاما متماسك الأطراف ولا غرابة إذن أن نرى معنى يقترب من آخر، أو أن نرى جزءا من معنى يشترك في عدة ألفاظ، ومع ذلك تتجه معظم اللغات إلى اللفظ بمعنى معين يصبح به بمثابة العلامة متى طرقت السمع أثارت في الذهن دلالة معينة يشترك في فهمها أفراد البيئة اللغوية [1].

[1] دلالة الألفاظ أنيس إبراهيم، مكتبة الأنجلو مصرية، القاهرة، ط 3، 1976م، ص 210.

إن اختيار الألفاظ ودراستها ضمن الحقول الدلالية لا يعني أن تفقد الكلمة أو اللفظ حيويتها وجوهرها، بل نجد كثير من الألفاظ، جاءت حية متجددة شاخصة.

يظهر ذلك جليا في لغة الخطاب، ففي قوله تعالى: وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ [1] ﴿٤٩﴾

نجد مثلا اللفظ يسومونكم بمعنى السوم، وأصله الذهاب في طلب الشيء، ومنه سامت الإبل فهي سائمة ترعى دائما، فكأن العذاب الذي سلطه فرعون وقومه على بني إسرائيل هو الغذاء الدائم لهم.[2]

هذه الدلالة، تجلي لنا هذا المشهد المرعب، لبني إسرائيل وهم يخضعون بالقوة لسلطان فرعون وجبروته، هو الويل والثبور الذي يظهر من خلال اللفظ (يسومونكم)، فهو اللفظ الموافق لمعناه الذي عبر عنه الجرجاني بقوله؛ لفظ متمكن يريدون أنه بموافقته معناه لمعنى ما يليه كالشيء الحاصل في مكان صالح يطمئن فيه [3] .

ولا ريب أن دراسة الألفاظ القرآنية بأسلوب حديث يثري النص القرآني، ويلقي عليه روعة جمالية وفنية عظيمة، ونظريه الحقول الدلالية من النظريات الحديثة؛ إذ ظهرت في العشرينيات والثلاثينيات من القرن العشرين على أيدي علماء سويسريين وألمان4، إن مفهوم نظرية الحقل الدلالي

[1] سورة البقرة، آ 49

2 انظر المفردات في غريب القران، الراغب الأصفهاني، أبو القاسم الصين بن محمد: – راجعه وقدم لد: وائل عبد الرحمن. د.ط. القاهرة؛ المكتبة التوقيفية،. 2003م. ص225.

3 دلائل الإعجاز الجرجاني عبد القاهر، قرأه وعلق عليه: محمود محمد شاكر. ط (3). جدة: دار المثني. 1992 . ص64.

4 انظر، علم الدلالة والنظريات الدلالية الحديثة البهنساوي، حسام:. ط(1). القاهرة: زهراء الشرق. 2009. ص73-74.

أو الحقل المعجمي هو مجموعة من الكلمات ترتبط دلالاتها، وتوضع عادة تحت لفظ عام يجمعها. مثال ذلك كلمات الألوان في اللغة العربية. فهي تقع تحت المصطلح العام اللون وتضم ألفاظ مثل أحمر-أزرق-أصفر-أخضر...الخ وعرفه ألمان Ulmann عرفه بقوله " هو قطاع متكامل من المادة اللغوية يعبر عن مجال معين من الخبرة" وليون Lyons يعبر بقوله" هو مجموعة جزئية لمفردات اللغة". وتقول هذه النظرية إنه لكي تفهم معنى كلمة، يجب أن تفهم كذلك مجموعة الكلمات المتصلة دلاليا أو كما يقول Lyons يجب دراسة العلاقات بين المفردات داخل الحقل أو الموضوع الفرعي[1].

وهدف هذا النوع من الدراسات يتمثل في جمع الكلمات التي يمكن أن تصنف ضمن حقل معين، والكشف عن صلات هذه الألفاظ بعضها ببعض، ثم صلتها بالمصطلح العام دون إغفال للسياق.[2]

عرف القدماء هذا النوع من الدراسات، كرسائل: الخيل لأبي عبيدة،(ت 210هـ) وخلق الإنسان للأصمعي (ت 216 هـ)، وبعض المعاجم كفقه اللغة للثعالبي (ت439هـ)، والمخصص لابن سيده، (ت 448) وغيرهم كثير.

لكن هناك من يقول: أن هؤلاء القدماء قد عجزوا في وضع منهاج معين لجمع الألفاظ، وكذلك لم يستطيعوا توضيح العلاقات بين الألفاظ داخل الحقل المعجمي الواحد، مما يجعل الدراسات التي أظهرت عمقا في البحث الدلالي ذي أهمية خاصة فأشارت إلى تقسيم الألفاظ إلى ألفاظ أساسية أو مركزية وألفاظ هامشية أو إضافية، وبناء العلاقات على أساس الاشتمال أو التضمين أو الترادف، أو التنافر، أو علاقة الجزء بالكل، أو غير ذلك من العلاقات التي تسهم في كشف الجوانب الخفية لدلالة

[1] علم الدلالة عمر، أحمد مختار:. ط (5). القاهرة: عالم الكتب. 1998. ص 79.

[2] انظر، نفسه. ص80.

ذلك المفرد لأن هذا التحليل هو الذي يقودنا إلى تفهم الشحنة الدلالية والعاطفية الكامنة في النص، والتي تؤثر في المتلقين.[1]

والاهتمام ببيان هذه الأنواع من العلاقات داخل الحقل المعجمي الواحد، لا يعني بالضرورة أن كل حقل دلالي يجب أن يشتمل على واحدة أو أكثر من هذه الأنواع، بل قد يتسنى للدراس أن يكتشف نوعا آخر من العلاقات[2].

إن بنية اللغة قائمة في الأساس على فكرة الارتباط بين الدال والمدلول أو الحاضر والغائب بأسلوب منطقي يستدعيه العقل البشري3 تهتم نظريه الحقول الدلالية بالعلاقات التلاؤمية أو الاستبدالية في دراسة الألفاظ دون إغفال للسياق؛ فهي الخطوة الأولى لأي عمل دلالي، يقول (بالمر): "من السهل أن نسخر من النظريات السياقية، مثلما فعل بعض العلماء، وأن نرفضها باعتبارها غير عملية، لكن من الصعب أن نرى كيف يمكننا أن نرفضها دون إنكار الحقيقة الواضحة، التي تقول إن معنى الكلمات والجمل يرتبط بعالم التطبيق[4].

يظهر ذلك من خلال قوله تعالى:﴿ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعۡبَ ﴾[5]، ذلك أنه يمكن تصنيف كل لفظ من هذه الألفاظ في حقل دلالي معين، لكن قراءة النص ككل متكامل تجعلنا

[1] الأسلوبية الحديثة محاولة تعريف، عياد محمود:. مجلة فصول- مج(ا). ع/2. يناير/ 1981. ص124. وانظر، عمر، أحمد مختار؛ علم الدلالة. ص80.

[2] انظر، أصول تراثية في نظرية الحقول الدلالية عزوز أحمد، د.ط. دمشق؛ منشورات اتحاد الكتاب العرب. 2002. ص11

[3] انظر، دليل النظرية النقدية المعاصرة، طقوس بسام، ط (1). الكويت: مكتبة العروبة. 2004. ص127.

[4] علم الدلالة إطار جديد، أ.ف آر بالمر، ترجمة مجيد الماشطة، د ط، حقوق الطبع والنشر محفوظة للجامعة المستنصرية،1985م، ص 80.

[5] سورة الحشر، آ2

قادرين على تصنيف أكثر من لفظ داخل الحقل المعجمي الواحد، على أساس القاعدة التلاؤمية[1] فاللفظ (قذف) ملائم للفظ (الرعب)، والرعب ما هو إلا نتيجة حاصلة لعملية القذف التي توحي بالعنف والرهبة، فالسياق والأسلوب يجعلان اللفظين في حق دلالي واحد، لو تسنى لنا تخصيص حقل لهذه الألفاظ أو تلك .

جاءت لغة الخطاب القرآني لبني إسرائيل في ثلاثة حقول دلالية:

- حقل ألفاظ السلوك الدالة على سلوك بني إسرائيل عبر العصور.
- حقل ألفاظ الوصف التي تصف سلوك بني إسرائيل ونكرهم، وتمحلهم، فجاءت الأوصاف كاشفة، تظهر تلك الشخصية المعقدة التي غلبت على كثير منهم.
- حقل الألفاظ الدالة على الجزاء، ذلك أنه من عدل الله تعالى أن ينعم على المؤمنين منهم، ويعاقب الجاحدين والمنكرين.

فالحقل الدلالي "يشمل قطاعا دلاليا مترابطا، مكونا من مفردات اللغة التي تعبر عن تصور أو رؤية أو موضوع أو فكرة معينة "[2].

وتجدر الإشارة إلى أن معظم الدراسات الحقلية بحاجة إلى مزيد من التدرج والعمق، ليتسنى لها أن تكون نظريات دلالية متناسقة، وهذا ما دفع بعض الباحثين إلى أن يطلقوا اصطلاح (المجال الدلالي) بدل الحقل الدلالي.[3]

[1] انظر، نظام الارتباط والربط في تركيب الجملة العربية، حميده مصطفى، ط(1). بيروت: مكتبة لبنان ناشرون. مصر: الشركة المصرية. 1997 ص130-131 وبالمر، ف. ر: علم الدلالة إطار جديد-ص143

[2] أصول تراثية في نظرية الحقول الدلالية عزوز أحمد : ، ص 12.

[3] انظر ، علم الدلالة إطار جديد المر ، ف .ر :.ص 111.

2.3: حقل ألفاظ السلوك

يقال :" سلكت الشيء بالشيء أي؛ أدخلته فيه فدخل، كالطاعن يسلك الرمح فيه إذا طعنه تلقاء وجهه على سجيحته"[1] ، ومنه قوله تعالى؛﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾[2] ﴾

والسلوك هو نشاط يصدر عن الإنسان ذهنيا كان أو حركيا فيصير علامة دالة عليه، والقرآن الكريم مليء بالألفاظ الدالة على سلوك بني إسرائيل، لا سيما تلك التي مارسوا فيها أشد ألوان الفساد، وحينما نتحدث عن السلوك، إنما نقصد ذلك النشاط الذي تمارسه هذه الشخصية أو تلك.

وردت الألفاظ الدالة على السلوك في لغة الخطاب القرآني من خلال نموذجين اثنين، هما:

- حقل ألفاظ السلوك للفئة الأكثر عددا من بني إسرائيل.
- حقل ألفاظ السلوك للفئة القليلة المؤمنة منهم.

وهنا نتناول كل مجموعة على حدة، جاءت ألفاظ السلوك للفئة الأكثر عددا من بني إسرائيل واضحة، نجملها في الشكل الآتي: [3]

[1] كتاب العين الفراهيدي، الخليل بن أحمد؛ - ج(5). تحقيق؛ مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي. د.ط. مصر؛ دار الهلال. د.ت. مادة (سلك). ص 311.

[2] سورة المدثر، آ42

[3] انظر، البقرة: 59. و61. و64. و75. و101. وآل عمران: 37. 112.و181. و186. و187-والنساء: 46. و153.

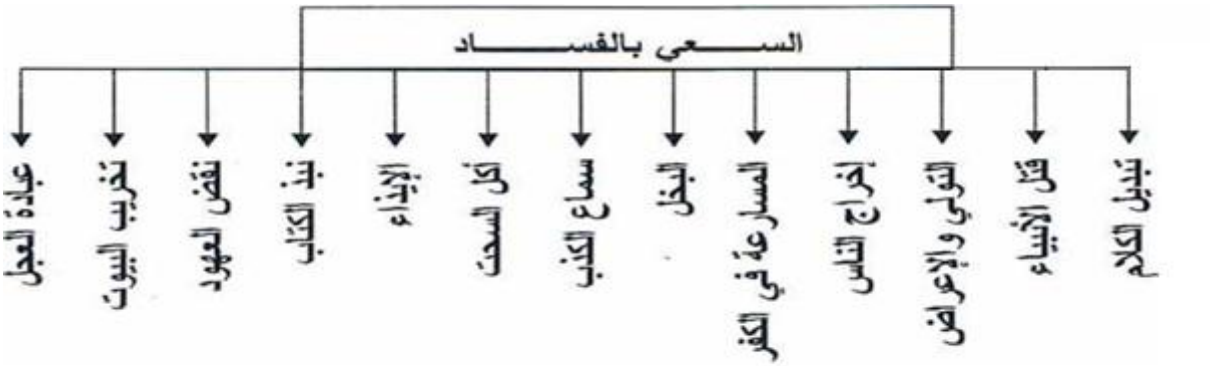

يتبين لنا أن معظم الألفاظ الدالة على السلوك في الكثرة الغالبة من بني إسرائيل جاءت بصيغة الفعل لا سيما المضارع منه، وهو الفعل الدال على التجدد والاستمرارية، نحو: (يسعون في الأرض فسادا، يقتلون النبيين، يخرجون أنفسهم، يسارعون في الكفر، يبخلون ويأمرون الناس بالبخل، ينقضون الميثاق)

لعل هذا الأسلوب يظهر المعنى المتجدد في هذا السلوك، فسعي بني إسرائيل بالفساد ظاهر منذ القدم؛ إذ قتلوا من الأنبياء ما قتلوا، وادعوا قتل عيسى، وحاولوا قتل النبي، وعمدوا إلى قتل المصلحين على مر التاريخ.

وكذلك أفسدوا ويفسدون في إخراج الناس من ديارهم، فعلوا ذلك مع بعضهم قبيل ظهور الإسلام، وإذا ما خرجوا تراهم يخربون بيوتهم بأيديهم، هذا فعلهم زمن النبي وهذا ما يقومون به حتى يومنا هذا.

هذا التجدد في السلوك والممارسة يظهر في كل الألفاظ الدالة على السلوك، لتبدو الدلالة بعمقها ودقة وصفها من خلال استخدام الفعل (المضارع).

إن الدلالة الأساسية أو المركزية المتضمنة لكل المعاني الهامشية تكمن في قوله؛ (يسعون في الأرض فسادا)، فالسعي بالفساد –بلا شك —— دافع رئيس من دوافع البغي، والقتل، والتحريف،

والإعراض، وأكل السحت، والإيذاء، وغيرها من الألفاظ الهامشية الدالة على السلوك في لغة الخطاب القرآني لبني إسرائيل.

وقد ظهرت بعض الألفاظ في هذا الحقل على صيغة المبالغة (فعال) نحو: سماعون للكذب، وأكالون للسحت...؛ لأنهما يعبران عن الكثرة في ممارسة هذا السلوك.

هذه الدلالة تتحقق أيضأ من خلال استخدام أسلوب التضعيف، نحو؛ ورود اللفظ (يقتلون) بالتشديد (يقتلون) [1]لما في ذلك من دلالة إضافية على الكثرة، ذلك أنهم يستعلمون التضعيف للدلالة على الكثرة في العمل، نحو: كسرته، وقطعته، ومزقته.[2]

ولعل مجيء الدلالة الأساسية بصيغة (المضارع) يضفي نوعا من التوافق ومجمل الدلالات الهامشية، لورود كثير منها في صيغة أيضا(المضارع)، ولتسهم في إنشاء علاقة تقوم على التضمين والاشتمال بين الألفاظ، لا سيما « أن الاشتمال مسألة عضوية في فصيلة معينة».[3]

فقولنا: (يسعون في الأرض فسادا)، يستلزم: أنهم مفسدون، وقولنا؛ إنهم مفسدون، يستلزم أنهم غير مصلحين، من هنا فإن الدلالة الأساسية هي الدلالة المشتملة على كل معاني الكلمات الهامشية، وهو ما يعرف في اصطلاح الدلالة بعلاقة الاشتمال أو التضمين أو ما يعرف بالاحتواء.[4]

[1] انظر ، سورة الأعراف :141

[2]الكتاب سيبويه ، أبو بشر عثمان بن قنبر : ، ج(4) ، ص 64.

[3] علم الدلالة إطار جديد بالمر، ف. ر:. ص118

[4]انظر، علم الدلالة إطار جديد بالمر، ف. ر:. ص102

فلنلاحظ مثلا: اللفظ (نبذ)، واللفظ (ينقضون)، إذ جاء الفعل (نبذ) في تحديد السلوك لهذه الفئة، وهو عدم الاحتكام إلى كتاب الله (التوراة)، فجاء بالتعبير (نبذ) الدال على طرح الشيء إلى الأمام أو الوراء، يقال؛ نبذ أمري وراء ظهره إذا لم يعمل به.[1]

وجاء بلفظ (النقض) للدلالة على إفساد ما أبرمت من عقد أو بناء[2] فاللفظان يشيران إلى نوعين من السلوك الظاهر في بني إسرائيل، هما سلوك عد م الاحتكام إلى أمر الله، وسلوك عدم الالتزام بالمعاهدات أو الاتفاقيات. لكنهما في الوقت ذاته يشيران إلى معنى عام، وهو الهدم، فهدم الأحكام يظهر في اللفظ (نبذ)، وهدم العهود والمواثيق يظهر في اللفظ (ينقضون)، وكلاهما معلم من معالم الإفساد (ويسعون في الأرض فسادا)، من هنا فإن الدلالة (ويسعون في الأرض فسادا) متضمنة للفظ (نبذ) واللفظ (ينقضون).

ومن يسعى إلى هدم الأحكام والعهود والمواثيق لا جرم أن يواظب على عبادة عجل ذهبي لا يضر ولا ينفع، يظهر هذا المعنى من خلال اللفظ (عاكفين) في قوله تعالى على لسان بني إسرائيل؛ ﴿قَالُواْ لَن نَّبۡرَحَ عَلَيۡهِ عَٰكِفِينَ ﴾{طه؛ 91}، والعكوف هنا مواظبة، وسلوك يمارسه أولئك القوم الذين عكفوا على عبادة المخلوق، وزهدوا في عبادة الخالق.[3]

فالوقوف على الدلالة المعجمية لكل لفظ من ألفاظ الحقل الدلالي الواحد، وهو العنصر المعجمي للدراسة الدلالية (lexical)، يعد ضرورة ملحة لتجلية العنصر التصوري (champconceptael)، المتمثل بالدلالة الأساسية أو المركزية.[4]

---

[1] انظر، أساس البلاغة الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمر؛. د ط. القاهرة؛ دار الشعب للطباعة. 1960- ص928. وابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم؛ لسان العرب. ج(14). مادة (نبذ)- ص174.

[2] انظر، نفسه. ج(14). مادة (نقض). ص339

[3] انظر، لسان العرب ابن منظور، ابو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم، ج(10). مادة (عكف). ص242.

[4] انظر، أصول تراثية في نظرية الحقول الدلالية عزوز، أحمد:. ص12

إن هذه الألفاظ تصور لنا الأحداث على حقيقتها، لتتمثل لنا الشخصية بكل سوداويتها، وشذوذها.

وثمة ألفاظ أخرى دالة على السلوك، لكنها تبدو مقابلة للألفاظ السابقة، فهي ألفاظ تظهر سلامة الفطرة، والصدق إنه سلوك القلة القليلة المؤمنة التي عمد القرآن في كل موطن من مواطن الحديث عن بني إسرائيل أن يخصها بالذكر عن طريق التصريح أو التلميح، أو يعمد إلى أسلوب الاستثناء، كأن يتحدث عن ١لمفسدين وأحوالهم ثم يقول:

إلا المصلحين، إلا...، أو باستخدام (من) التبعيضية إنصافا لهذه القلة القليلة المؤمنة[1].

وردت ألفاظ السلوك للقلة القليلة المؤمنة من بني إسرائيل في لغة الخطاب على النحو الآتي، كما يظهر في الشكل[2]:

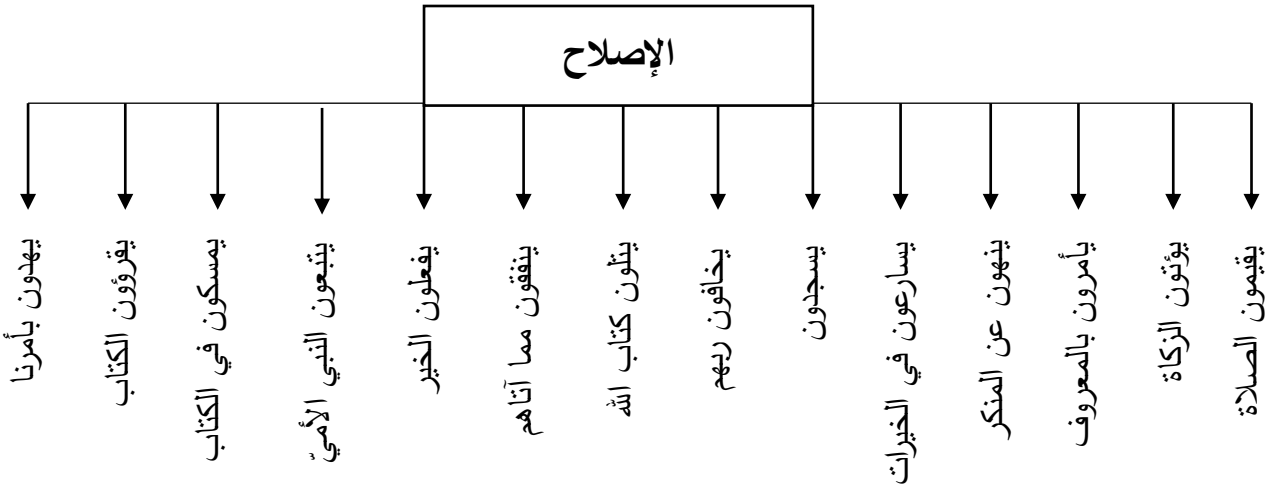

تبدو ألفاظ السلوك الواردة في تحديد سلوك القلة القليلة المؤمنة من بني إسرائيل واضحة، وهي من الألفاظ المقابلة لألفاظ السلوك الفاسدة .

[1] انظر، آل عمران: 113-114.والمائدة: 168.

[2] انظر، آل عمران: 113-114.

جاءت الألفاظ كذلك بصيغة المضارع نحو : (يقيمون، يؤتون، يأمرون، ينهون، يسارعون،...)، وغيرها من ألفاظ السلوك؛ ولعل هذا يشير إلى دقة المقابلة بين هذه الألفاظ وبين الألفاظ الدالة على سلوك الفئة العاصية، وفي ذلك ملمح مهم، وهو أن أهم ما يميز هذه الفئة القليلة المؤمنة ذلك التجدد والاستمرار، في مجموعة السلوك كلها، فإقامة الصلاة مسلك متجدد فيها، لا ينفك عنها أبدا، وكذلك ايتاء الزكاة، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، كلها سلوكيات كاشفة، تجلي لنا هذه الشخصية عبر كل العصور، يظهر ذلك من خلال استخدام الفعل (المضارع).

وردت الكلمة الأساسية أو المركزية المتمثلة باللفظ (أصلحوا)، جامعة لكل ألفاظ السلوك الأخرى، ومقابلة للدلالة المركزية والهامشية في ألفاظ السلوك للفئة العاصية، فلنلاحظ:

اللفظ (أصلحوا) يدل على الإصلاح بشتى صوره وأشكاله، ومشتمل على كل الدلالات الهامشية الأخرى، ك (إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر،...) وغيرها من الدلالات الآنفة الذكر، والإصلاح معلم من معالم الشخصية المؤمنة، ومميز رئيس من مميزاتها، يقول تعالى؛ ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ ﴾[1].

تبدو لنا العلاقة بين الكلمة الأساسية وهي (الإصلاح) والكلمات الهامشية وهي؛ (يقيمون الصلاة، يؤتون الزكاة، يأمرون، يسارعون...) علاقة اشتمال وتضمين، كعلاقة سابقاتها.

وتجدر الإشارة إلى أن ألفاظ السلوك للفئة القليلة المؤمنة جاءت في كل محاورها بصيغة الجمع، للدلالة على الوحدة في التصور، والعمل ككتلة واحدة، وهو شأن هذا الدين، الذي ينبثق نوره من خلال العمل كفريق واحد.

[1] سورة آل عمران، آ 110

3.3: حقل ألفاظ الوصف

إن لغة الخطاب القرآني استخدمت مجموعة من الألفاظ الوصفية الجامعة لكل أخلاق بني إسرائيل وسماتهم، حيث إن الوصف جاء نتيجة للسلوك الذي اتبعه بنو إسرائيل طول حياتهم، والقرآن الكريم كلام جامع صادق في الوصف والتعبير، يصف لنا الشخصية وصفا عميقا يتفق ومحور السلوك.

والآيات التي تضمنت أوصافهم وسماتهم متعددة، تجعلنا قادرين على تصنيفها ضمن نظرية الحقول الدلالية، تحت لفظ عام يجمعها، وهو (الوصف).

جاءت ألفاظ الوصف في لغة الخطاب القرآني متضمنة لنموذجين من نماذج الشخصية الإسرائيلية، نموذج الباطل في شتى صوره وأشكاله، ونموذج الحق في صدق توجهه، رغم قلة عدده، وضعف قوته.

وردت ألفاظ الوصف لهذين النموذجين في لغة الخطاب، كما يظهر من خلال الشكل، على النحو الآتي:[1] نموذج الباطل

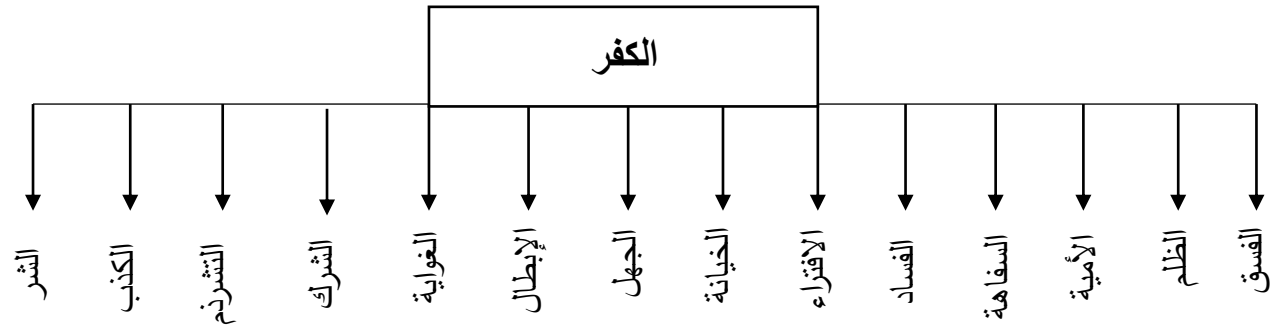

[1] انظر، سورة البقرة، 54، و59، و92، ر98، و142. وآل عمران: 63، 110 ، و113. والنساء: 50، و60، و151. والمائدة: 25، ر26، و64. والأعراف: 148، و162، و 177. والتوبة: 32. والمجادلة: 14. والجمعة: 8.

من الملاحظ أن لغة الخطاب في وصف بني إسرائيل لم تقتصر على صيغة واحدة، بل عمدت إلى استخدام اللفظ بصيغة الاسم تارة، والفعل تارة أخرى.

فقد جاء وصف بني إسرائيل بالظلم في أكثر من (20) موضعا، إذ ورد بصيغة اسم الفاعل (ظالمون) في أكثر من (14) موضعا[1] ،وصيغة المضارع (يظلمون) في أكثر من (7) مواضع[2]؛ ذلك لما يدله الاسم على ثبوت الدلالة ورسوخها، والفعل على الاستمرارية والتجدد.

وكذلك الأمر مع اللفظ (فاسقون)؛ إذ ورد على صيغة اسم الفاعل في أكثر من (10) مواضع[3]، وعلى صيغة الفعل المضارع (يفسقون) في أكثر من (3) مواضعات[4].

وشأن هذين اللفظين شأن غيرهما من الألفاظ ك (كافرون، يكفرون)، و(الكاذبون، يكذبون)، ولعل هذا الأسلوب الخطابي يسهم في كشف حقيقة السلوك الذي مارسه بنو إسرائيل عبر العصور؛ إذ إن اليهود مارسوا ظلمهم وكفرهم وفسقهم ومعظم سلوكياتهم طوال حياتهم، وعلى امتداد أطوارهم الزمنية التي عاشوها، حتى غدت هذه الصفات علامات دالة على أصل تكوينهم، فهم ظالمون، يتصفون بالظلم، وهم دائمو الظلم والطغيان رغم اختلاف الزمان أو المكان، يظهر ذلك من خلال اللفظ (يظلمون).

من الملاحظ أن ألفاظ الوصف الدالة على الثبوت والرسوخ جاءت لتشكل السمات العامة لبني إسرائيل، أما الألفاظ المتجددة من زمن لآخر، فجاءت بصيغة الاسم تارة، والفعل تارة أخرى.

يظهر ذلك من خلال الصفات؛ السفاهة، والغواية، والشرك، والشر، كلها سمات عامة متجذرة في المجتمع الإسرائيلي منذ القدم.

---

[1] انظر، سورة البقرة: 51. 92. 95. 246. وآل عمران: 94. والأعراف: 148 .والحشر: 17.والجمعة: 5. و7.

[2] انظر، سورة المائدة: 162. و177. والنحل: 118

[3] انظر ، سورة البقرة ، 99، والمائدة : 25، و26، و81 ، والحديد : 16 ، والحشر : 5.

[4] انظر ، سورة البقرة : 59 ، والأعراف : 163.

أما الأوصاف الأخرى، وهي الدالة على التجدد والاستمرارية، فقد جاءت على صيغة الاسم تارة، والفعل تارة أخرى، نحو: الكذب، والفسق، والظلم، والجهل، والافتراء، والزعم؛ وغير ذلك من الألفاظ؛ ولعل هذا يعود إلى أن هذه الأوصاف ثابتة ومتجددة في الوقت ذاته، فقد تأتي اللفظة لتحقق دلالة معينة في زمان معين، ثم يأتي ذكرها في موضع آخر لتحقق دلالة أخرى في موضع وزمان مختلفين، يظهر ذلك من خلال النموذج الآتي، والفعل (تجهلون) الذي يعطي صفة الجهل في المجتمع الإسرائيلي:

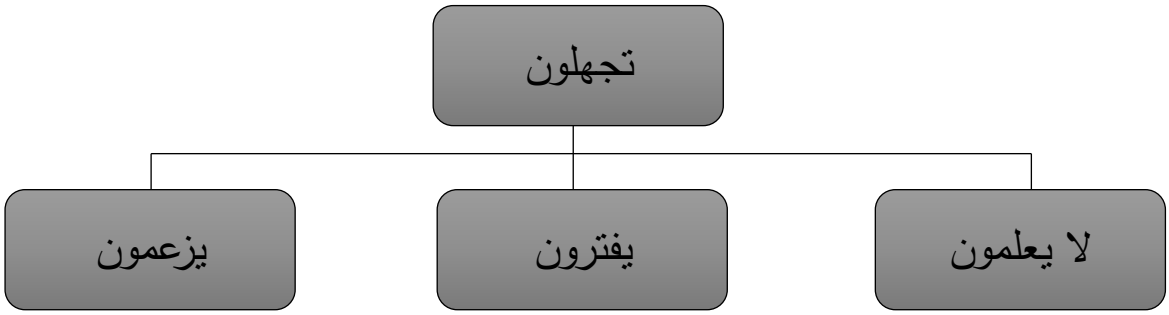

وهذه الأوصاف؛ الجهل، وما ينبثق عنه من افتراء وزعم، تبدو ظاهرة جلية في بني إسرائيل منذ أقدم العصور، ذلك أنهم جهلوا أمر دينهم، وحقيقة العهد الذي أعطاهم إياه ربهم، زمن موسى عليه السلام، ولم يدركوا أهمية هذا الاستخلاف الرباني، فجاء الخطاب على لسان موسى ﴿ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ ﴾[1]، موافقا للحدث والسياق، يوم طلبوا منه أن يجعل لهم صنما إلها من دون الله تعالى.

أما جهلهم في زمن النبي صلى الله عليه وسلم، فلم يكن في بداية الأمر جهل عقيدة، بل كان جهل بغي وهزء وحسد وكبر؛ ذلك أنهم وجدوا نعته صلى الله عليه وسلم في توراتهم، وكانوا

[1] سورة الأعراف، آ 138

يستفتحون على الذين كفروا بقرب قدومه، لكنه لما بعث النبي الكريم من العرب رفضوا ذلك حسدا من عند أنفسهم.

من هنا نلاحظ أن سمة الجهل التي يتسم بها القوم تتجدد في كل زمان، بما يتوافق وطبيعة الأحداث والمواقف السائدة في ذلك العصر، لذا نجد القرآن الكريم يعبر عن هذه الدلالة بصيغة المضارع الدال على التجدد والاستمرارية.

وكذلك يأتي على تخير اللفظ (يزعمون) و(يفترون)؛ ذلك أنهما من اختلاق الشيء وقول الكذب، وكلتاهما سمتان لا يتصف بهما إلا كل جاهل أحمق.[1]

يبدو أن الكلمة الأساسية أو المركزية الجامعة لكل هذه الأوصاف تتمثل في اللفظ (الكفر)، وهي سمة بني إسرائيل منذ القدم، وقد جاءت هذه السمة على صيغة الاسم، وكذلك وردت بصيغة المضارع، أما الألفاظ الأخرى فيمكن تصنيفها ضمن الكلمات الهامشية؛ ذلك أن (الكفر) لفظ جامع لكل الأوصاف الأخرى، كالظلم، والفسق، والخيانة، وغيرها من الأوصاف الآنفة الذكر.

أما علاقة هذه الأوصاف مع بعضها فهي كعلاقة سابقاتها، قائمة على التضمين والاشتمال.

وثمة أوصاف أخرى على النمط ذاته جاءت تصف القلة القليلة المؤمنة من بني إسرائيل، نلخصها في الجدول الآتي:[2]

[1] انظر، لسان العرب ابن منظور، أبو الفضل الدين محمد بن مكرم:. ج7، مادة: زعم.34. و الرازي، محمد ابن أبي بكر: **مختار الصحاح**، تحقيق: محمد خاطر. الطبعة الجديدة. إخراج: دائرة المعارف. بيروت: مكتبة لبنان، 1995، مادة (ف ر ا)، ص 210.

[2] انظر ،سورة البقرة : 46،249 ، وآل عمران :110،113،114 ، والنساء : 162 ، والمائدة : 66،138،168...

نموذج الحق

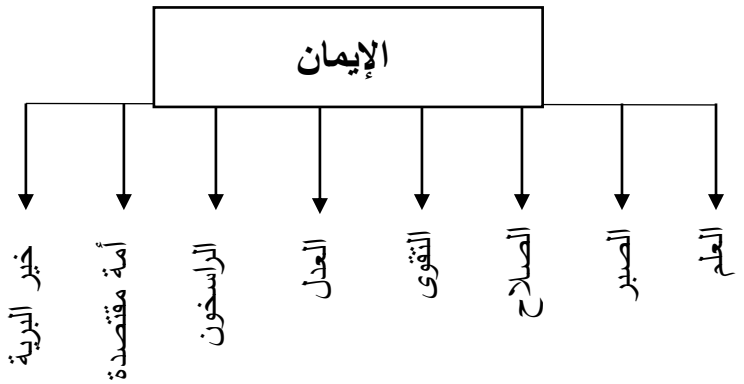

وردت هذه الألفاظ في معرض الوصف لإنصاف القلة القليلة المؤمنة من بني إسرائيل، والقرآن الكريم يولي عناية خاصة لهذه الفئة رغم قلتها، إكراما لثباتها على الإيمان، واتباعها للأنبياء منذ موسى عليه السلام وحتى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم.

وقد أشرنا من قبل إلى إيمان بعض أهل الكتاب، والتحاقهم بصف المسلمين، كعبد الله ابن سلام، وغيره من اليهود.

وردت ألفاظ الوصف للقلة القليلة المؤمنة من بني إسرائيل، رغم قلتها، واضحة المعالم، محددة للسلوك، متضمنة سمات أهل الحق على مر التاريخ، فجاءت الكلمة الأساسية (الإيمان) بصيغ مختلفة، نحو: (يؤمنون، والمؤمنون)، لتقف موقفا المواجهة مع نموذج الباطل الذي تمثله الكثرة الغالبة من بني إسرائيل، جاءت الكلمة الأساسية أو المركزية متضمنة للدلالات الهامشية بشتى صورها وأشكالها، كوصف القلة القليلة المؤمنة ب—(العلم)، وما يثير إليه من الحقائق التي لا شك معها، فهو من أهم سمات هذه القلة، إذ لا يكتمل الإيمان أو يتحقق مفهومه الكامل ما لم يعلم الإنسان حقيقة هذا المنهج أو التصور، وكذلك الأوصاف؛ الصبر، والصلاح، والتقوى، والعدل، كلها أوصاف جديرة أن تكون جزءا من هذا الإيمان.

من هنا نلاحظ أن الوصف (الإيمان) جامع لكل الأوصاف الأخرى، ك: العلم، والصبر، والصلاح، والتقوى، والعدل، وغيرها من الأوصاف، فالعلاقة بين اللفظ (الإيمان) والألفاظ (العلم، والصبر،...) علاقة اشتمال وتضمين .

4.3: حقل ألفاظ الجزاء

ليس غريبا أن نسمي هذا الحقل الدلالي باسم حقل ألفاظ الجزاء؛ ذلك أن السلوك يستدعي وصفا، والوصف بدوره يستدعي جزاء يتمثل بالنعمة أو النقمة.

ولغة الخطاب جاءت مطابقة للواقع، وهي تعبر عن سلسلة تاريخية ممتدة منذ زمن بعيد، تتمثل في حياة بني إسرائيل فلا بد أن تكون موافقة للحال، متضمنة أحواله وأطواره بما يتوافق ومراحل النمو فيه. استخدمت لغة الخطاب القرآني مجموعة من الألفاظ الدالة على الجزاء، وجاءت في نموذجين متقابلين، كنماذج السلوك والوصف.

ويمكن إجمال ألفاظ الجزاء الواردة، نتيجة عصيان بنى إسرائيل وتلكئهم وتمردهم، في الشكل الآتي:[1]

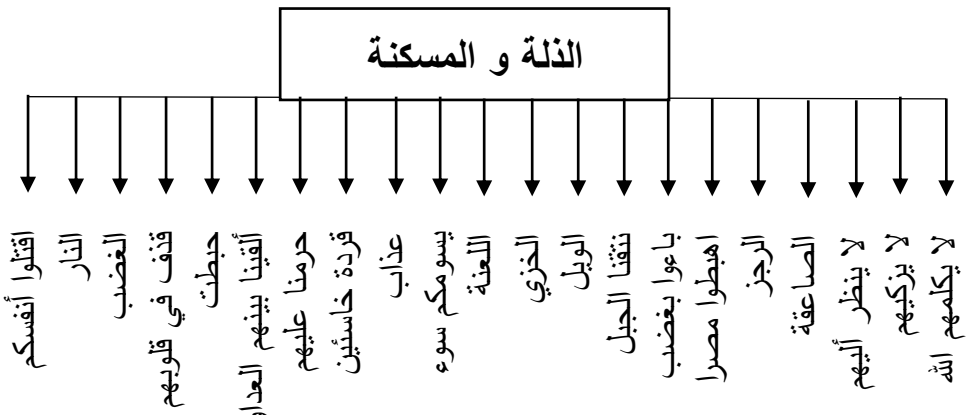

[1] انظر، سورة البقرة: 54. 59. 61. 63. 65. 79. 85. 89. وآل عمران: 77. 112. 181.والنساء: 153. 154. 160. والمائدة: 13. 41. 60. 64. والأنعام: 146. والأعراف: 141. 147.

من الملاحظ أن ألفاظ الجزاء الواردة في لغة الخطاب جاءت على نحو متسق مع الأحداث، فقسم من هذه الألفاظ وقعت أحداثها، وقسم آخر يتجدد بتجدد السلوك، وقسم أخير أعده الله يوم القيامة للمخالفين من بني إسرائيل، ولكل من يسلك سلوكهم أو يقتفي أثرهم.

وهنا مكمن التجدد في النص القرآني، ودليل ديمومته وصلاحه لكل زمان ومكان؛ ذلك أن سرد مثل هذه الألفاظ الدالة على الجزاء، ليس قاصرا على بني إسرائيل فحسب، فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، وألوان الجزاء هذه متعلقة بطبيعة السلوك والمنهج، فهي واقعة في كل أمة تتصف بصفات المخالفين من بني إسرائيل.

وردت ألفاظ الجزاء في معظمها، لا سيما تلك التي جاءت نتيجة لسلوك محدد سلكه بنو إسرائيل منذ القدم بصيغة الفعل الماضي، المضاف إلى ضمير المتكلم الدال على الجماعة (نا)، نحو: (أرسلنا عليهم رجزا، نتقنا، رفعنا، لعناهم، جعلنا، ألقينا بينهم العداوة، حرمنا عليهم، وغيرها من الألفاظ)، ولعل ذلك يتسق وطبيعة الأحداث؛ فسلوك بني إسرائيل المتسم بالكفر والحمق والتجرؤ على الله يستدعي أسلوبا مقابلا ذا وقع شديد، وأثر رهيب دال على قوة الله وجبروته، وهنا عمدت لغة الخطاب إلى ضمير الجماعة (نا)، رغم أن المجازي واحد وهو الله الذي لا إله إلا هو.

أما ألفاظ الجزاء التي ورد ذكرها في سياق القصة والحوار، فجاءت في معظمها بأسلوب الأمر، نحو ؛ (اقتلوا أنفسكم، اهبطوا مصرا، ذوقوا عذاب الحريق، وغير ذلك من الألفاظ)، ولعل هذا الأسلوب يستدعيه السياق وأسلوب الأمر يستدعيه عنصر الحوار المميز للعمل القصصي.

في حين نجد ألفاظ الجزاء الواردة في سرد وقائع الأحداث لبني إسرائيل قاصرة على صيغة الماضي، نحو (باءوا بغضب، أخذتهم الصاعقة، ضربت عليهم الذلة، حبطت أعمالهم، قذف في قلوبهم الرعب، وغيرها من الألفاظ)، ولعل مجيئها بصيغة الماضي يسهم في توظيفها لتحديد الدلالة الزمنية للفعل، فهي أحداث وقعت ومضت، وجاء ليسرد وقائعها.

وتجدر الإشارة إلى أن ألفاظ الجزاء الدالة على التجدد والاستقبال جاءت بصيغة المضارع المتسق وطبيعة هذه الدلالة، فلنلاحظ اللفظ (يسومهم)، وسوم العذاب لبني إسرائيل متعلق بأحوالهم وأعمالهم، فالله تعالى قد تأذن بأن يبعث عليهم من يسومهم سوء العذاب إلى يوم القيامة ما لم يحفظوا حدوده ويقيموا شرعه.

جاء اللفظ (يسومهم) بصيغة المضارع الدال على التجدد، وهو من الألفاظ الدالة على الجزاء غير المقتصر على زمان محدد أو مكان معين. من هنا ندرك القيمة الوظيفية للفعل في التعبير عن الدلالة الجزائية في لغة الخطاب القرآني لبني إسرائيل.

إن ألفاظ الجزاء وردت في معظمها مشتملة على دلالة (الذلة و ١لمسكنة)، المسبوقة بالفعل المبني للمجهول (ضربت)، والضرب إحاطة واشتمال، فالذلة أحاطت بهم واشتملت عليهم، كالقبة التي لزمتهم، وأحاطت بهم من كل جانب، واليهود صاغرون أذلاء أهل ذلة ومسكنة[1]، ولعل هذا الاشتمال يظهر العلاقة بين اللفظ (الذلة والمسكنة) وبين الألفاظ الأخرى، فهي علاقة قائمة على الاشتمال والتضمين، فالجزاء؛ لا يكلمهم الله، لا يزكيهم، لا ينظر إليهم، أخذتهم الصاعقة، الويل، سوء العذاب، اللعنة، ... إلخ، ماثل في دلالته مع دلالة (الذلة والمسكنة) وعامل رئيس من عوامل تشكل هذه القبة التي ضربت عليهم من الذلة والمسكنة والهوان.

[1] انظر الكشاف الزمخشري ، أبو قاسم محمود بن عمر.ج1. 174.

هناك ألفاظ أخرى دالة على الجزاء في بني إسرائيل، نتيجة الطاعة لأمر الله تعالى، والاستجابة للنبي الكريم، يمكن إجمالها في الشكل الآتي[1]:

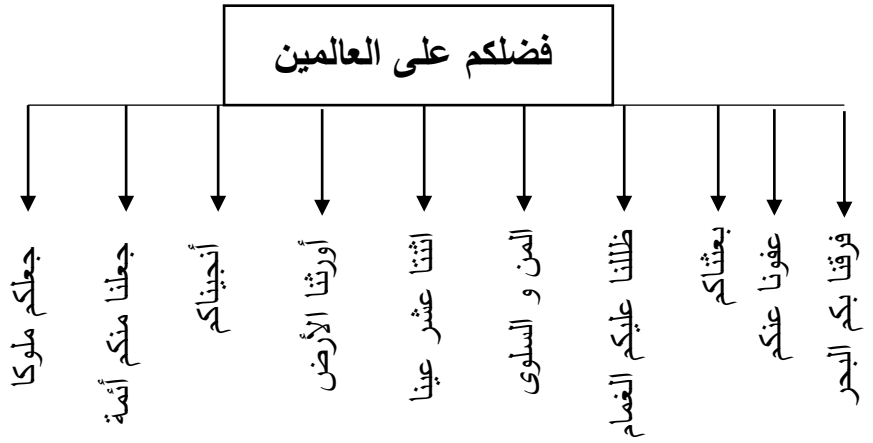

من الملاحظ أن كل الألفاظ الدالة على النعم في بني إسرائيل جاءت مسبوقة أو متضمنة للزمن الماضي من خلال استخدام الفعل الماضي، نحو: (بعثناكم، فرقنا، عفونا، ظللنا، أنزلنا، انفجرت، أورثنا...)، وألفاظ الجزاء دالة على أحداث وقعت سابقا، ومضى على وقوعها قرونا عنة، فجاء القرآن بصيغة الماضي.

واتصال ضمير الجماعة (نا) بهذه الأفعال بالغ في الأهمية؛ لما يفيده هذا الضمير من التعظيم، فالله هو المنعم وحده، وهو المنتقم وحده.

تتمحور هذه الألفاظ حول معنى واحد من معانيه، وهو التفضيل والاختيار، والله تعالى اختار بني إسرائيل لحمل الرسالة، وحفظ الأمانة، وفضلهم على أهل زمانهم؛ لأنهم كانوا هم الموحدين آنذاك، وكانوا امتدادا للأمة المسلمة من يعقوب وإسحاق ومن قبلهما إبراهيم، عليهم الصلاة والسلام جميعا، لكنهم رفضوا هذا الاختيار فتبوءوا من الله منزلة الذلة والصغار.

[1] انظر، سورة البقرة: 47، 50، 52، 56، 57. و المائدة: 20، و الأعراف: 137، 160. و الشعراء: 59. 65 والسجدة: 24. و غافر: 53. و الدخان: 32، و الجاثية: 16.

ولعل الألفاظ الأخرى الدالة على النعم في بني إسرائيل تتضمن هذا المعنى، وهو معنى التفضيل والاختيار، فلنلاحظ الألفاظ (فرقنا، بعثناكم، أنزلنا، ظللنا، انفجرت، أنجيناكم، جعلناكم ملوكا) وغيرها من الألفاظ الدالة على الجزاء، فهي تتمحور حول مجموعة من النعم التي أنعمها الله على بني إسرائيل، وهي نعم مادية أحاطت بالقوم من كل جانب، وهي نتاج واضح للجزاء الأساس في بني إسرائيل وهو التفضيل والاختيار (وفضّلناكم).

نلخص إلى أن البحث في دلالة الألفاظ، من وجهة نظر الحقول الدلالية، يسعفنا في الكشف عن العلاقات الكامنة بين هذه الألفاظ، ويميز لنا بعض الدلالات الأساسية التي تغدو مميز؛ من مميزات هذا الحقل أو ذاك.

وجمع الألفاظ الواردة في لغة الخطاب القرآني لبني إسرائيل ضمن حقول دلالية، يسهم في كشف جوانب هذه الشخصية، ويمعن في وصفها، على حقيقتها، وقد ظهرت هذه الألفاظ لتشكل نموذجين من نماذج الصراع بين الحق والباطل، « إنه الصراع بين الشكر والجحود، والذكر والغفلة، والتواضع لله والجرأة عليه، وإسلام الإيمان ووقاحة المراء، والتضحية من أجل إقامة الدين وتحقيق مبادئه، والأنانية من أجل الذات وتحقيق مكاسب النفس، إنه الصراع من أجل العزة، والقعود ايثارا للعافية »[1].

لذا نجد أن الألفاظ، في مجملها، انحصرت ضمن ثلاثة حقول؛ سلوك ووصف وجزاء، ولعل وجود كل حقل من هذه الحقول يستدعي وجود الآخر.

وهنا نجد أنفسنا أمام نموذجين من نماذج الشخصية القرآنية، شخصية الباطل بسلوكها وسماتها وجزائها المرتقب من الله تعالى، وشخصية الحق بسلوكها وسماتها وجزائها المرتقب من الله تعالى، ويبقى للمتلقي حرية الاختيار، وصدق الله إذ يقول؛ ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ۝١٠﴾ [2]

[1] بنو إسرائيل تاريخ وتحقيق الطويل، السيد رزق؛. د.ط. القاهرة؛ دار المعارف. 1980. ص29.

[2] سورة البلد، آ 10

لا شك أن دراسة الألفاظ ضمن نظرية الحقول الدلالية تسهم في إبراز قيمة كل لفظ من خلال موقعه وعلاقاته مع الألفاظ الأخرى؛ إذ إن المفردات كالجسم الإنساني يتكون من: قلب، وكبد، و...، وهي تعمل ضمن نسق معين كعمل جسم الإنسان.[1] ساهمت دراسة الألفاظ ضمن نظرية الحقول الدلالية في إبراز المعنى الدقيق للكلمة، وذلك من خلال وجودها مع العائلة اللغوية التي تنتمي إليها.

4-أساليب الإنشاء الطلبي

تشكل الأساليب الإنشائية الطلبية للغة الخطاب القرآني محور مهم من محاور الدراسة. إذ تعددت أساليب الإنشاء الطلبي في لغة الخطاب القرآني لبني إسرائيل، وانحصرت في أربعة أساليب، وهي؛ الأمر، والنهي، والاستفهام، والنداء. وخرجت في مجملها عن معانيها التي وضعت لها إلى معان بلاغية وفنية وجمالية، تسهم في توجيه الدلالة بما يحقق الغرض الرئيس المتوخى في الآيات كلها.

2.4: أسلوب الأمر

يعد أسلوب الأمر واحدا من الأساليب البلاغية المباشرة التي تعنى الدراسة الأسلوبية والدلالية بتحليلها والوقوف على أغراضها ومراميها.[2]

ويأتي الأمر إما بمعناه الأصلي، وهو طلب الفعل على وجه الاستعلاء والإلزام، وإما أن يتحول من أصل وظيفته إلى معنى بلاغي يتم تحديده من السياق.[3]

[1] انظر دلالة الألفاظ ، أنيس، إبراهيم:. ص226-228.

[2] الأسلوبية جيرو، بيير:. ترجمة: منذر عياشي. ط(2). حلب؛ دار الإنماء الحضاري. 1994. ص104.

[3] انظر، مفتاح العلوم السكاكي، أبو يعقوب يوسف:. ضبطه وعلق عليه؛ نعيم زرزور. ط(ا) بيروت؛ دار الكتب العلمية .1983.ص 318.

تعج لغة الخطاب القرآني في بني إسرائيل بهذا النوع من الصيغ والتراكيب، التي تتخذ من الأمر أسلوبا لها، لتحقق معاني إضافية ودلالات بلاغية أخرى، يظهر ذلك من خلال لغة الخطاب، لا سيما تلك التي وردت على لسان موسى عليه السلام تجاه قومه، أو العكس.

وغالبا ما يبنى أسلوب الأمر في لغة الخطاب على طرفين؛ الأول يمثله الطرف الأدنى وهم بنو إسرائيل على مر العصور، والثاني يمثله خليفة الله على الأرض، سواء أكان نبيا مرسلا أم مصلحا خيرا.

ولو فطن بنو إسرائيل لهذا المحدد المنطقي، لما أقدموا على سوء الأدب واللجاجة والكبر والعناد والكفر، وهذا ما يجعل لأسلوب الأمر أهمية بالغة ذلك أن هناك معان إضافية تكشف عن البعد السلوكي لبني إسرائيل عبر العصور.

اقتصرت لغة الخطاب في بني إسرائيل على صيغة (فعل الأمر)، ولم ترد في صيغة أخرى، ووردت في أكثر من (70) موضعا، توزعت — في أغلبها — على النحو الآتي:

- خطاب من الله تعالى إلى بني إسرائيل. والعكس
- خطاب من موسى عليه السلام إلى بني إسرائيل. والعكس
- خطاب من محمد عليه السلام إلى اليهود. والعكس
- خطاب بني إسرائيل بعضهم لبعض.

وخطاب المباشرة من الله تعالى لبنى إسرائيل لم يأت في لغة الخطاب بوساطة موسى عليه السلام، كغيره من أفعال الأمر، وإنما أوردها الله مباشرة، كقوله: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴿٤٠﴾﴾[1]

[1] سورة البقرة، آ 40

ورد هذا النوع من الأساليب في لغة الخطاب، لا سيما في سورة البقرة؛ ذلك أنها جاءت لتذكير بني إسرائيل بالنعم التي أنعمها الله عليهم، لعلهم يستجيبون أو يؤمنون، ولغة المباشرة من شأنها أن تكون أكثر تأثيرا بهم، وتذكيرا لهم، لا سيما أنها تخاطب اليهود المعاصرين للنبي محمد عليه السلام، في المدينة المنورة.

أما في السور الأخرى التي عمدت إلى التاريخ والتفصيل في أحداث بني إسرائيل كالأعراف مثلا، أو التعنيف عليهم والدعوة إلى قتالهم والقصاص منهم كالمائدة وغيرها، فإننا نجد أن الأمر فيها يأتي على لسان موسى عليه السلام مشفوعا بالصيغة الزمنية (وإذ).

من هنا يمكن القول: إن ما ورد من صيغة الأمر في خطاب الله تعالى لبني إسرائيل، كان على حقيقته، وإن تضمن معاني أخرى كالتهديد والوعيد، كقوله:﴿ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا يُؤۡخَذُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾﴾[1] أو النصح والارشاد كقوله:﴿أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٤٤﴾ وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾[2] .

وَلَقَدۡ عَلِمۡتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعۡتَدَوۡاْ مِنكُمۡ فِي ٱلسَّبۡتِ فَقُلۡنَا لَهُمۡ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾ [3].

[1] سورة البقرة، آ 48

[2] سورة البقرة، آ 44-45

[3] سورة البقرة، آ 65

وإذا كان خطاب الله لبني إسرائيل يهدف إلى تذكيرهم بالنعم التي أنعمها على أسلافهم، فكان من المتوقع أن يستجيب القوم لهذا الأسلوب؛ لما يتضمنه من معاني التكريم والتفضيل، لكن القوم لم يستجيبوا بل عصوا وأفسدوا.

يظهر لنا أن لغة الخطاب كانت ممعنة في توصيف الوضع العقدي والسلوكي؛ والنفسي لبني إسرائيل، فهم قوم يتسمون بكل مظاهر الكبر واللجاجة والحمق والكفر، فكيف سيستجيبون لك يا محمد وهم لم يستجيبوا لمن أنعم عليهم بكل هذه النعم والخيرات؟!

أما أسلوب الأمر كما ورد على لسان خليفة الله في الأرض سواء أكان موسى عليه السلام أم غيره من الأنبياء والمصلحين، فقد غلب عليه طابع التدرج؛ إذ بدأ بأسلوب التلطف والنصح والإرشاد، كما يظهر في قوله تعالى:﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُواْ ۖ قَالُواْ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُواْ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾ ﴾[1]، وقوله:﴿ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ ﴾[2] ، وقوله:﴿ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾ [3] وغير ذلك[4]

ثم يأخذ الأسلوب طابع التحفيز والإثارة، من خلال الإباحة والامتنان، نحو قوله:﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب

[1] سورة البقرة، آ 93

[2] سورة البقرة، آ 54

[3] سورة المائدة، آ 20

[4] انظر، سورة آل عمران: 64. والمائدة: 21. 23. 72. والأعراف: 128. 181. وإبراهيم: 6.

بِّعَصَاكَ ٱلۡحَجَرَۖ فَٱنۢبَجَسَتۡ مِنۡهُ ٱثۡنَتَا عَشۡرَةَ عَيۡنٗاۖ قَدۡ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٖ مَّشۡرَبَهُمۡۚ وَظَلَّلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلۡغَمَٰمَ وَأَنزَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰۖ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴿١٦٠﴾ ﴾[1].

والإكرام؛ كقوله:﴿ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ ﴾[2]

ولما لم يؤمن بنو إسرائيل إيمانا حقيقيا، أخذت لغة الخطاب طابع المحاججة والتكذيب، يظهر ذلك من خلال قوله:﴿ وَقَالُواْ لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰۗ تِلۡكَ أَمَانِيُّهُمۡۗ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾ ﴾[3]

ثم يأخذ أسلوب الأمر معنى إضافيا، وهو التعجيز، نحو قوله: ﴿قُلۡ إِن كَانَتۡ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةٗ مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾ ﴾[4] .

[1] سورة الأعراف، آ 160

[2] سورة المائدة، آ 21

[3] سورة البقرة، آ 111

[4] سورة البقرة، آ 94

ذلك أن تمني الموت ليس من سماتهم وأخلاقهم المألوفة، ولكنها من سمات الأبرار المقربين الذين يشتاقون للقاء الله تعالى.[1]

إلى أن يأخذ الأمر طابع الإهانة والتحقير، نحو قوله:﴿ يَـٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ ﴾[2]

وقوله: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُواْ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ ﴾[3] . وقوله: ﴿ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ ۖ ﴾[4]

ولعل استخدام صيغة الأمر على لسان موسى عليه السلام كما في (فاقتلوا) (أهبطوا) (فأذهب) يعزر عن الحالة الوجدانية التي ألمت به عليه السلام وذلك ملمح مهم من ملامح الدراسة الأسلوبية الحديثة، يشير إليه (بالي) في حديثه عن أثر الصيغة في التعبير عن الحالة الوجدانية.[5]

[1] انظر، الجدول في إعراب القرآن وصرفه وبيانه صافي، محمود: - مج(1). ج(ا)- دل(4). دمشق: دار الرشين. بيروت: مؤسسة الإيمان. 1998. ص204.

[2] سورة البقرة، آ 54

[3] سورة البقرة، آ61

[4] سورة طه، آ 97

[5] انظر، الأسلوبية جيرو، بيير؛. ص54.

ولما لم يستجب بنو إسرائيل لكل هذه الأساليب، عمد موسى عليه السلام إلى ربه يدعوه، والدعاء يفيد الطلب على سبيل التضرع [1]نحو قوله:﴿ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ إِلَّا نَفۡسِي وَأَخِي فَٱفۡرُقۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ٢٥ ﴾[2].

أما صيغة الأمر الواردة على لسان بني إسرائيل تجاه أنبيائهم، فكانت واضحة جلية تعج بمظاهر الكبر واللجاجة والكفر والعناد، ولم تأخذ طابع التدرج كما في أسلوب الأنبياء والمصلحين، وهي سمة واضحة في خطاب بنى إسرائيل مع كل الأنبياء وليست مقتصرة على موسى عليه السلام، انظر إلى صيغة الأمر في سورة البقرة، وذلك قولهم: ﴿ قَالُواْ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ ﴾[3]. فهم يطلبون من موسى عليه السلام أن يدعو ربه، وكأن حائلا بينهم وبين الله، وصيغة (ادع) تعج بمظاهر الكبر واللجاجة، وكأنهم يخاطبون إنسانا عاديا، ولا يخاطبون نبيا مرسلا.

ولعل تكرار هذه الصيغة في ثلاث مرات متتالية يؤكد هذا المعلم من معالم الشخصية الإسرائيلية، إنها سمة الكبر التي تتصف بها هذه الشخصية، وكيف لا؟! وهي الشخصية التي تجرأت على الله، وطلبت رؤيته جهارا؟ يظهر ذلك من خلال صيغة الأمر (أرنا) في قولهم لموسى عليه السلام : أَرِنَا ٱللَّهَ جَهۡرَةً [4].

إن صيغة الأمر تعرض لنا هذه الشخصية بكل ما تتسم بها من الضلال والكفر والفجور، فبعد كل المعجزات التي عاشها بنو إسرائيل لحظة بلحظه، يطلبون من موسى عليه السلام أن يجعل

[1] انظر، مفتاح العلوم السكاكي، أبو يعقوب يوسف:. ص319.

[2] سورة المائدة، آ 25

[3] سورة البقرة، آ68

[4] سورة النساء، آ153

لهم إلها معبودا من دون الله، وقولهم:﴿ ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ ﴾[1]. واستخدام صيغة الأمر (ٱجۡعَل) ممعن في الدقة؛ إذ إنهم يطلبون المعصية من نبيهم- كيف يكون ذلك؟ ! وفي هذا التخيير لصيغة الفعل دليل على سفه عقولهم، وبلادة تفكيرهم، وسوء عقيدتهم، وفساد ايمانهم. [2]

لا ريب أن الوقوف على الأسلوب القرآني في لغة الخطاب ، وكيفية الانتفاع بصيغة الأمر أو غيرها من الصيغ في الكشف عن كل الجوانب المحيطة بالمعنى، يسهم في تشكيل طبقة اجتماعية تعج بمظاهر الكبر والكفر واللجاجة والخنوع.

3.4: النهي

الأصل في النهي أن يكون لطلب الكف عن الفعل على وجه الاستعلاء والإلزام، ويؤتى به لتحقيق معان بلاغية يمكن إدراكها من خلال السياق.[3]

وللنهي صيغة واحدة هي المضارع المقرون ب (لا) الناهية الجازمة، وردت في لغة الخطاب القرآني لبني إسرائيل في أكثر من (15) موضعا، على النحو الآتي:

- نهي من الله تعالى أو من نبيه عليه السلام لبني إسرائيل.
- نهي من اليهود بعضهم لبعض.
- نهي من الله تعالى لموسى عليه السلام ومحمد عليه الصلاة والسلام.

[1] سورة الأعراف، آ 138

[2] انظر، بنو إسرائيل في القرآن والسنة طنطاوي، محمد سيد:. ص498

[3] مفتاح العلوم السكاكي، ابو يعقوب يوسف: - ص320

يشكل النهى من الله تعالى المحور الرئيس في هذا الأسلوب، وغالبا ما يكون على حقيقته، رغم ما يتضمنه من معان بلاغية أخرى، كالنصح والإرشاد، كما في قوله: ﴿وَلَا تَلۡبِسُواْ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُواْ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾[1] – وقوله: ﴿لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهۡوَآءَ قَوۡمٖ قَدۡ ضَلُّواْ مِن قَبۡلُ ﴾[2]. أو التحذير والتهديد، كقوله:﴿وَرَفَعۡنَا فَوۡقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمۡ وَقُلۡنَا لَهُمُ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا وَقُلۡنَا لَهُمۡ لَا تَعۡدُواْ فِي ٱلسَّبۡتِ وَأَخَذۡنَا مِنۡهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا﴾[3].

ويغلب على صيغة النهي طابع التلطف والأناة، لا سيما تلك التي جاءت على لسان موسى عليه السلام، ولعل استخدام واو الجماعة يسهم في تعزيز هذا المعنى، كقوله: ﴿وَلَا تَرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَارِكُمۡ﴾.[4]

أما صيغة النهي من بني إسرائيل تجاه بعضهم لبعض، فلم تأت إلا في موضع واحد يظهر طبيعة الشخصية الإسرائيلية، التي تتميز بإصرارها على الكفر ورفضها للآخر، نحو قولهم:﴿وَلَا تُؤۡمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمۡ﴾ [5].

[1] سورة البقرة، آ 42

[2] سورة المائدة، آ 77

[3] سورة النساء، آ 154

[4] انظر سورة البقرة: 41. 42. 60. والنساء: 154. 171. والمائدة: 21-44. 77. وطه: 81.

[5] سورة آل عمران،آ 73

ولما لم ينتفع بنو إسرائيل بكل ألوان النصح والإرشاد والتحذير والتهديد، أخذت لغة الخطاب تتجه نحو تيئيس النبي الكريم عليه السلام من ايمان هؤلاء، كما يظهر من خطاب الله لموسى عليه السلام:﴿ فَلَا تَأۡسَ عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلفاسقين﴾[1] وخطابه للنبي عليه السلام:﴿ فَلَا تَأۡسَ عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾[2].

وتجدر الإشارة إلى أن التيئيس لم يرد إلا في سورة المائدة، وهي آخر ما نزل من القرآن في بني إسرائيل؛ ذلك أنها أخذت تعنف على القوم، وتحض المسلمين على قتالهم، وطردهم خارج المدينة.

4.4: أسلوب الاستفهام

يشكل الاستفهام أسلوبا رئيسا من أساليب لغة الخطاب القرآني في بني إسرائيل؛ وتكمن أهميته في أنه ينقلنا إلى مجموعة من المعاني البلاغية التي تسهم في إبراز جانب من الجوانب الفنية والجمالية لذلك المشهد.

والاستفهام طلب العلم بشيء لم يكن معلوما من قبل، يستخدم على حقيقته في مواضع معينة، أو لتحقيق أغراض أخرى ومعان بلاغية متعددة. وأدواته؛ حرفا الهمزة وهل، ومجموعة من الأسماء هي؛ ما، ومن، وأي، وكم، وكيف، وأين، وأنى، ومتى، وأيان.[3]

الاستفهام كونه رسالة خطابية يتطلب وجود طرفين رئيسين، هما: المرسل والمستقبل، وبهذا الفهم الأسلوبي والدلالي للتعبير القرآني، فإن لغة الخطاب توزعت في أسلوب الاستفهام على النحو الآتي:

[1] سورة المائدة، آ 26

[2] سورة المائدة، آ 68

[3] انظر، مفتاح العلوم السكاكي، أبو يعقوب يوسف؛ -ص308-309.

- خطاب الله تعالى إلى بني إسرائيل. وفي هذا النوع من الأساليب خرج الاستفهام عن حقيقته ليؤدي معاني بلاغية أخرى.
- خطاب النبوة إلى بني إسرائيل. لا سيما في: موسى عليه السلام، والنبي محمد عليه السلام.
- خطاب بني إسرائيل تجاه أنبيائهم.
- خطاب بني إسرائيل تجاه بعضهم لبعض.

خرج الاستفهام عن معناه الحقيقي لمعان أخرى يتضمنها الموقف السياقي في لغة الخطاب القرآني لبني إسرائيل في أكثر من (70)موضعا.

ففي خطاب الله تعالى لبني إسرائيل، خرج الاستفهام بمجمله إلى معان بلاغية، يشكل الأسلوب الإنكاري وهو المحور الرئيس فيها. كقوله:﴿ أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُواْ عَهۡدٗا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۚ ﴾[1]. ولم ترد هذه الصيغة (أَوَكُلَّمَا) إلا في بني إسرائيل، وهي صيغة لتأكيد الإنكار؛ ذلك أن نبذ العهد يكون أكثر قبحا بعد العقد، وأن الاستكبار يكون أكثر قبحا في حضرة النبي الكريم[2].

وغالبا ما يتضمن الإنكار معاني إضافية أخرى، كالإنكار المشوب بالتوبيخ والتقريع التعجب، نحو قوله: ﴿ أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ أَفَلَا

[1] سورة البقرة، آ 100

[2] انظر، أساليب الاستفهام في القرآن فوده، عبد العليم السيد؛. د.ط. القاهرة؛ مؤسسة دار الشعب. د.ت. ص22-23.

تَعۡقِلُونَ ﴾[1]. فقد ورد أن أحبارا من اليهود كانوا «يأمرون من نصحوه، في السر من أقاربهم وغيرهم باتباع محمد عليه السلام ولا يتبعونه»[2]

وكذلك الإنكار المشوب بالتقريع، نحو قوله: ﴿وَٱتَّخَذَ قَوۡمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِنۡ حُلِيِّهِمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٌۚ أَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمۡ وَلَا يَهۡدِيهِمۡ سَبِيلًا ﴾[3][4].

وهنا تأخذ لغة الخطاب طابع الأمر من خلال الاستفهام، كقوله؛ ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسۡلَمۡتُمۡۚ ﴾[5] أي: أسلموا، ولعل ذلك يتضمن معنى التوبيخ والتنديد؛ فهم أهل كتاب سماوي، كان الأجدر منهم أن يتبعوا النبي محمد عليه السلام ، لأنهم يعرفون نعته ووصفه[6]. يقول (الرازي): إنما جاء بالأمر على صورة الاستفهام، لأنه بمنزلته في طلب الفعل والاستدعاء إليه، إلا أن في التعبير عن معنى الأمر بلفظ الاستفهام فائدة زائدة، وهي التعبير بكون المخاطب معاندا بعيدا عن الانصاف لأن المنصف إذا ظهرت له الحجة لم يتوقف، بل الحال يقبل.

---

[1] سورة البقرة، آ44

[2] الكشاف الزمخشري، محمود بن عمر؛ - ج(1)- ص161

[3] سورة الأعراف، آ148

[4] انظر سورة البقرة: 85. 87. 91. 108. 133 . وص: 53, والمائدة: 74. 75. والأعراف: 169 .والتوبة: 30.

[5] سورة آل عمران، آ 20

[6] انظر، أسلوب الاستفهام في القرآن الكريم. غرضه. إعرابه يوسف، عبد الكريم محمود:. ط1 دمشق: مطبعة الشام. د.ت. ص28.

ونظيره قولك لمن لخصت له المسألة في غاية التلخيص والكشف والبيان، هل فهمتها؟ فإن فيه الإشارة إلى كون المخاطب بليدا قليل الفهم»[1].

وأيا كان الأمر، فإن بني إسرائيل أنكروا نبوته عليه السلام، وأخذوا يتهافتون على أعراض الدنيا، ويقولون سيغفر لنا، ويؤولون الكتاب بما يحقق رغباتهم الوضيعة، وهنا تتجه لغة الخطاب إلى أسلوب الاستفهام التقريري، نحو قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ يُؤۡخَذۡ عَلَيۡهِم مِّيثَٰقُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ﴾[2] .[3]

وغالبا ما تضمن التقرير معاني إضافية، كالتعجب والحث، كقوله: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزۡعُمُونَ أَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدۡ أُمِرُوٓاْ أَن يَكۡفُرُواْ بِهِۦ﴾[4] . والتقرير المتضمن معنى التحذير، كما في قوله؛ قوله؛ ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ يَشۡتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّواْ ٱلسَّبِيلَ[5] ﴿٤٤﴾ ويتجه الأسلوب الخطابي من خلال الاستفهام إلى معنى التعجب، كقوله :﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ يُدۡعَوۡنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ

[1] التفسير الكبير الفخر الرازي، محمد بن عمر: - ج(7). ص213

[2] سورة الأعراف، آ 169

[3] انظر في ظلال القرآن ، قطب، سيد:. مج(3). ج(9). ص626.

[4] سورة النساء، آ 60

[5] سورة النساء، آ 44

لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴾[1] والتعجيب هنا للنبي محمد عليه السلام من فعل أولئك الذين يستبدلون كلام الله بما يتوافق مع أهوائهم.

وفي هذا النوع من الأساليب قيمة تربوية وإن كان الخطاب موجه إلى بني إسرائيل إلا أنه يهدف كذلك إلى تحذير الأمة المسلمة من أن تتصف بصفات بني اسرائيل.

يظهر ذلك من خلال أسلوب التعجب المتضمنة معنى التوبيخ والتقريع، كما في قوله تعالى : ﴿أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ ﴾ثم يأخذ الخطاب بعدا إضافيا يتضمن معنى التهويل، كما في قوله: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾[2] : أي كيف حالهم؟ وهو استعظام لما أعد الله لهم، وتهويل لهم- وأنهم يقعون فيما لا حيلة لهم في دفعه. [3]

ولكن بني إسرائيل لم يستجيبوا لله تعالى، بل أنكروا ربوبيته، وادعوا بعد كل ذلك أنهم أبناء الله وأحباؤه، وأنهم بمنأى عن النار، فهي لن تصيبهم! خابوا وخسروا. ولهذا نجد لغة الخطاب تعمد إلى الاستفهام كقوله تعالى:﴿ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [4]-كما أنها تعمد إلى الأسلوب التهكمي ، كما في قوله ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ

[1] سورة آل عمران، آ 23

[2] سورة آل عمران، آ 25

[3] الكشاف الزمخشري ، محمود بن عمر : ، ج1 ، ص 377.

[4] سورة البقرة، آ 80

ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴾[1].

وهذه هي النتيجة المؤلمة لأولئك القوم، لو كانوا يفقهون، ما كانت إلا نتيجة لسلوكهم وبغيهم وإفسادهم في الأرض، يظهر ذلك من خلال الاستفهام المتضمن معنى النفي، كما في قوله تعالى:

﴿هَلۡ تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾[2].

يظهر لنا أن أسلوب الاستفهام، جاء ليأخذ طابع التدرج في خطاب الله لبني إسرائيل فمن أسلوب الإنكار والتقرير والتعجب والأمر والتهويل والتهديد والوعيد وصولا إلى التهكم والنفي.

ولعل ذلك يتفق ومراحل النمو في بنى إسرائيل، ذلك أن القرآن نزل منجما حسب الأحداث والوقائع، وغالبا ما تضمنت كل سورة من سوره القرآنية جملة من معاني الاستفهام الواردة في بني إسرائيل، ليسهم ذلك في تثبيت صفاتهم، وتحديد سلوكهم، والإشارة إلى غضب الله عليهم، لأنهم أهل عصيان وفجور.

وليس بعيدا عن ذلك، ما يتصف به أسلوب الاستفهام في خطاب أنبياء الله تعالى لبني إسرائيل؛ إذ أخذ الاستفهام بعده الإنكاري، نحو قوله تعالى: ﴿أَتُحَآجُّونَنَا فِي ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡ وَلَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ ﴾[3].[4]

[1] سورة المائدة، آ 60

[2] سورة الأعراف، آ 147

[3] سورة البقرة، آ 139

[4] انظر ،سورة البقرة: 140. وآل عمران: 70. 71. 99. 183 .والصافات: 125.

وقد يتضمن الاستفهام الإنكاري معاني أخرى، كالتعجب مثلا، نحو قوله: ﴿يَـٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَـٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾[1]

والإنكار مع النفي كقوله :﴿ هَلۡ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنۡ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلُ ﴾[2] والإنكار مع التوبيخ كقوله: ﴿قَالَ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡغِيكُمۡ إِلَـٰهٗا وَهُوَ فَضَّلَكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٤٠ ﴾[3]. وقوله: ﴿ لِمَ تُؤۡذُونَنِي وَقَد تَّعۡلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡۖ ﴾[4]. والإنكار مع التقريع، كقوله: ﴿أَعَجِلۡتُمۡ أَمۡرَ رَبِّكُمۡۖ ﴾[5] .

ثم يأخذ الاستفهام بعده التقريري، كما في قوله: ﴿أَلَمۡ يَعِدۡكُمۡ رَبُّكُمۡ وَعۡدًا حَسَنًاۚ ﴾[6].[7] ؛ **وما** بني إسرائيل دأبوا على التمرد والعصيان، فيلجأ النبي موسى عليه السلام إلى مناجاة ربه، ربه، ليدرأ العذاب عن نفسه وعن المؤمنين.

[1] سورة آل عمران، آ 65
[2] سورة المائدة، آ 59
[3] سورة الأعراف، آ 140
[4] سورة الصف، آ 5
[5] سورة الأعراف، آ 150
[6] سورة طه، آ 86
[7] انظر أيضاً، سورة البقرة: 246.

يستخدم لهذا المعنى أسلوب الاستفهام الدال على الاستعطاف، والمتضمن معنى الدعاء، وذلك في قوله: ﴿ أَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ﴾[1] أي: لا تهلكنا .[2]

وهنا تجدر الإشارة إلى أن هذا الأسلوب لم يرد إلا على لسان موسى عليه السلام، وفي ذلك ملمح مهم من ملامح الشخصية الإسرائيلية، وهو أنها لا تلجأ إلى الله تعالى حتى في وقت الشدة، إنها طبيعة النفس الإنسانية المشردة الطاغية المتكبرة.

وهذا ما يؤكده الاستفهام من خلال خطاب بني إسرائيل لأنبيائهم، نحو قول الحواريين لعيسى عليه السلام: ﴿ هَلۡ يَسۡتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيۡنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾[3] وما يتضمنه هذا الاستفهام من نفي المانع وليس لنفي الاستطاعة.[4]

إنهم قوم لا يكتفون بالمعصية والوقوف إلى جانب الباطل، بل ينكرون فعل الشخصية المؤمنة منهم، يظهر ذلك من خلال الاستفهام المتضمن معنى الإنكار، في قولهم: ﴿وَإِذۡ قَالَتۡ أُمَّةٌ مِّنۡهُمۡ لِمَ تَعِظُونَ قَوۡمًا ٱللَّهُ مُهۡلِكُهُمۡ أَوۡ مُعَذِّبُهُمۡ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُواْ مَعۡذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ﴾[5] .

[1] سورة الأعراف، آ 155

[2] انظر، الإتقان في علوم القرآن السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن؛. ص428.

[3] سورة المائدة، آ122

[4] انظر، أسلوب الاستفهام في القرآن الكريم. غرضه. إعرابه يوسف، عبن الكريم محمود؛ – ص4.

[5] سورة الأعراف ،آ 164

نلاحظ أن الاستفهام بالهمزة يمثل غالبية الاستفهام في بني إسرائيل، إذ جاء في أكثر من (40) موضعا، يليه الاستفهام ب(ما) في (14) موضعا، يليه الاستفهام بـ(هل) في (5) مواضع، يليه الاستفهام ب (كيف) في (3) مواضع، و(أنى) في (3) مواضع، و(من) في موضعين اثنين، و(ماذا) في موضع واحد. استعمل العليم الحكيم أسلوب الاستفهام في مجال محاججة الأنبياء للكافرين، وتفنيد حججهم ورفض آرائهم، وأحيانا عند عرض ما يدور بين الأنبياء وأقوامهم أو الكفار ومعبوديهم، أو بين الكفار بعضهم مع بعض.

5.4: النداء:

والنداء يعني طلب إقبال المخاطب أو دعوته بحرف نائب مناب فعل، ك (أدعو) أو (أنادي). وأدواته هي؛ الهمزة، وأيا، وأي، وآي، وهيا، ووا، ويا.[1]

ورد أسلوب النداء بكثرة في لغة الخطاب القرآني لبني إسرائيل، وجاء في أكثر من (40) موضعا، واقتصر على أداة النداء (يا).

تشترك أداة النداء (يا) بين البعيد والقريب، ويخصها بعضهم لنداء البعيد، يقول (الزمخشري)؛ هي لنداء البعيد، أو من هو بمنزلته من نائم أو ساه [2]وقد ينادى بها القريب .. إذا كان الخطاب المرتب على النداء في محل الاعتناء بشأن المنادى »[3].

عمدت لغة الخطاب إلى النداء ب (يا أهل الكتاب) في أكثر من (10) مواضع، وب (يا بني إسرائيل) في أكثر من (6) مواضع، وب(يا قوم) في أكثر من (6) مواضع، وب (يا أيها الذين هادوا) في موضع واحد، وب—(يا أيها الذين أوتوا الكتاب) في موضع واحد أيضا. واستغنى عن الأداة في أكثر من (7) مواضع.

---

[1] انظر، مفتاح العلوم السكاكي، ابو يعقوب يوسف؛ – ص 101.

[2] المفصل في علم العربية الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمرت – ط(2). بيروت؛ دار الجبل– 323له. ص309.

[3] البرهان في علوم القرآن الزركشي، محمد؛. تحقيق: أبو الفضل الياطي، القاهرة؛ دار الحديث. 2006– 1195.

أما المتكلم في هذه المواطن جميعها فهو الله تعالى أو نبيه المرسل، سواء كان هذا النبي هو موسى عليه السلام، أو النبي عيسى عليه السلام، أو النبي محمد عليه السلام.

أما الطرف الثاني فهو بنو إسرائيل، وهم بدورهم لم يستخدموا سوى جملة واحدة للنداء في القرآن الكريم كله وهي: (يا موسى). هكذا دونما تقدير أو إجلال لمقام النبوة الكريمة، خطاب يتضمن سمات هذا المجتمع الذي غلبت عليه اللجاجة والكفر والعناد والكبر.

ولعل لجوء لغة الخطاب إلى أداة النداء (يا)، وهي تتدفق من نبي الله موسى عليه السلام، يعبر عن حالة نفسية ووجدانية ألمت به، وبمن جاء بعده، من الأنبياء في حواراتهم مع بني إسرائيل، وكأن أسلوب النداء المتمثل ب(يا) يضفي نوعا من الاستعطاف والتودد لأولئك القوم، لعلهم يستجيبون أو يؤمنون، ففي امتداد الصوت ما ينبئ عن حالة نفسية مصورة لأحزانه وآلامه وآماله[1].

جاء الخطاب بالنداء من الله عز وجل لبني إسرائيل للتنبيه على عظيم الأمر المطالبون له، بلام، كقوله تعالى:﴿يَـٰبَنِىٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ﴾ [2]. ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَـٰبَ ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلۡنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم﴾[3].

وغالبا ما تتضمن لغة الخطاب من الذات العلية إثارة الانتباه والتأكيد لتحقيق مفهوم العبودية الخالصة في بني إسرائيل، فتذكيرهم بالنعم يستوجب الطاعة للإيمان بالنبي محمد عليه السلام[4] .

---

[1] انظر علم المعاني ، فيود، بسيوني عبد الفتاح؛. ط(3). القاهرة: مؤسسة المختار. 2004- ص331.

[2] سورة البقرة، آ 40

[3] سورة النساء، آ 47

[4] انظر، سورة البقرة: 47. و122. والمائدة: 15. و19. طه: 80. والنداء في اللغة والقرآن فارس، أحمد:. ط(1). بيروت: دار الفكر اللبناني. 1989. ص135.

أما النداء من نبي موسى عليه السلام (يا قوم) فجاء يعج بمظاهر التودد والاستعطاف فنلاحظ قوله:﴿ يَـٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ ﴾[1].وقوله: ﴿ يَـٰقَوْمِ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾[2].

وليس ثمة شك أن هذا الأسلوب لا يقتصر على موسى عليه السلام، بل يغلب على لغة الخطاب لدى جميع الأنبياء والمصلحين، فلنلاحظ قوله تعالى على لسان عيسى عليه السلام: ﴿وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ﴾[3]. والأسلوب ذاته على لسان النبي محمد عليه السلام:﴿ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَـٰسِقُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾[4].

ولكن تجدر الإشارة إلى أن أسلوب النداء على لسان موسى عليه السلام، يكاد يكون أكثر رقة وتوددا من غيره من الأنبياء؛ ذلك أنه منهم، فخطابه لهم جاء ب (يا قوم)، أما النبي محمد عليه السلام، فكان خطابه ب (يا أهل الكتاب)؛ لأن محاججته كانت لليهود والنصارى وبهذا يتضح لنا أن لغة الخطاب من خلال جملة النداء تنقلنا إلى واقع حي مليء بالمعاني والعبر.

[1] سورة البقرة، آ 54

[2] سورة المائدة ، آ 20

[3] سورة المائدة، آ 72

[4] سورة المائدة، آ 59

ولعل أسلوب النداء في بني إسرائيل يتضمن معنى الحث، فالنداء ب (يا أهل الكتاب) يذكرهم بسمو منزلتهم، فهم أهل كتاب منزل من الله تعالى، وكذلك في نسبتهم إلى إسرائيل وهو يعقوب عليه السلام تشريف لهم، ولو كانوا يعلمون.

وغالبا ما يلي النداء الأمر والنهي والاستفهام وكأنه يعد النفس ويهيئها لتلقي تلك الأساليب، ولذا فهي تتقوى به، لأن النداء يوقظ النفس ويلفت الذهن، وينبه المشاعر، فإذا ما جاء بعده الأمر أو النهي أو الاستفهام، صادف نفسا مهيأة يقظة، فيقع منها موقع الإصابة، حيث تتلقاه بحس واع وذهن منتبه »[1]

ولعل هذا التنوع في استخدام الأساليب من خلال النداء يسهم في استمالة المخاطب، وبث روح الطمأنينة في قلبه، فيجعله أكثر استجابة لهذا الأمر أو النهي أو غيرهما من الأساليب الإنشائية الطلبية.[2]

وإذا كان أسلوب الأنبياء تجاه بني إسرائيل يعج بمظاهر التلطف والاستمالة والتودد، فإنه لم يكن كذلك من بني إسرائيل تجاه أنبيائهم؛ ذلك أن لغة الخطاب تعود لتؤكد من خلال النداء سمات بني إسرائيل واتصافهم باللجاجة والكبر والعناد والتمرد والعصيان، انظر إلى نداءاتهم لنبيهم موسى عليه السلام فلن تجد إلا أسلوبا واحدا، وذلك كقولهم: ﴿يَـٰمُوسَىٰ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهۡرَةً ﴾{البقرة: 55}. وقولهم: ﴿يَـٰمُوسَىٰ لَن نَّصۡبِرَ عَلَىٰ طَعَامٖ وَٰحِدٖ ﴾ {البقرة؛61}[3]

[1] علم المعاني فيود، بسيوني عبد الفتاح:. ص 336.

[2] انظر، النداء في اللغة والقرآن فارس، احمد محمد:. ص159-160.

[3] انظر أيضا: سورة المائدة: 22. 24. والأعراف: 138

كل مرة يطلبون من موسى عليه السلام أن يدعو ربه لتحقيق هذا الغرض أو ذاك. وفي ذلك مظهر مهم من مظاهر الشخصية الإسرائيلية، التي تتسم بالجهل والكبر والحمق فهي لم تدرك حقيقة الإيمان، ولم تتذوق طعم الدعاء، ولم تؤمن إيمانا حقيقيا بعد.

الخاتمة:

في نهاية الدراسة التي قمنا بها لموضوع بني إسرائيل في القرآن الكريم – دراسة أنثروبولوجية لسانية – وصلنا إلى عدة نتائج منها:

1. أن اللغة وسيط حتمي للاتصال الإنساني، فباللغة يستطيع الإنسان أن يجرد هذا الوجود المادي والإنساني في خصائص وعلاقات وقوانين
2. بقدر ما يملك الإنسان من رصيد لغوي يكون في إمكانه خلق الاتصال وتوصيل ما يدور في ذهنه من أفكار وآراء، كما أنها هي الوسيلة التي تمكنه من التوحد مع الثقافة التي ينتمي إليها، والارتباط عضويا بالمجتمع الذي يعيش فيه.
3. أهمية اللغة في الدرس الأنثروبولوجي وهي نتيجة وصل إليها العالم الأنثروبولوجي مالينوفسكي والتي تقول " وظيفة اللغة ليست مجرد وسيلة للتفاهم أو للتوصيل بل وظيفة اللغة هي كونها حلقة في سلسلة النشاط الإنساني المنتظم، هي جزء من السلوك الإنساني، إنها ضرب من العمل وليس أداة عاكسة للفكر".
4. الدرس الأنثروبولوجي اللساني الغربي لا يمكن تطبيقه على النص المقدس لأنه يؤدي إلى خلل في الدلالة كما أنه يدخل النص المقدس ضمن دائرة العقائد الخرافية في الأدب الشعبي.
5. أهمية الدرس الأنثروبولوجي بالمنظور الإسلامي
6. توضيح الفرق بين مفهومي (إسرائيلي ويهودي)، واستخدام اليهود لمصطلح إسرائيل لربطهم بأطوار زمنية لم يعيشوها.
7. قسم القرآن الكريم اليهود إلى فريقين مؤمني أهل الكتاب، ذكر صفاتهم وأثنى عليهم وهم قلة والثانية هي فرقة الكافرين وهم الأغلبية منهم.
8. إن أفضلية بنو إسرائيل، التي فضلوا بها على العالمين كانت في زمن معين ولم تدم عليهم، وبعدها لعنوا وحل عليهم انتقام الله وغضبه.
9. بيان عنصرية اليهود وعدم تورعهم في ارتكاب أي نوع من الآثام والكبائر، واستخدام كل الوسائل لتحقيق مصالحهم.

10. بيان شدة غدر اليهود وخيانتهم لأي عهد أو ميثاق أبرموه مع غيرهم، لذلك لم يوفوا بأي منها أبدا.

11. لقد استخدم القرآن أسلوب التدرج مع يهود المدينة وهو يذكرهم بأخلاق أسلافهم وصفاتهم، كي يتعظوا ولا يتمثلوا بهم، لكنهم لم يرعوا وأصروا واستكبروا استكبارا.

12. سير يهود المدينة على نهج الكافرين من سلفهم في معظم جرائمهم.

13. لا يوجد مكان ولا زمان حل فيه اليهود إلا مارسوا الإجرام، دون وازع من دين أو ضمير، ويختلقون المبررات لذلك.

14. كل الجرائم التي قام اليهود بها كانت عن علم بحكمها الشرعي، وضررها البشري والاجتماعي.

15. كل العقوبات التي نزلت بهم كانت متدرجة، ضمن منهج تربوي لإصلاح نفوسهم.

16. تنوعت العقوبات بتنوع آثامهم، ما بين التوبيخ واللوم والإنكار والاستهزاء والندم إضافة إلى الخسف والمسخ واللعن والصعق وغيرها.

17. توزعت لغة الخطاب القرآني لبني إسرائيل في ثلاثة حقول دلالية: حقل ألفاظ السلوك، وحقل ألفاظ الوصف، وحقل ألفاظ الجزاء، وجاءت الألفاظ في الحقول كلها لتصور لنا نموذجين من نماذج الشخصية العاصية والشخصية المؤمنة.

18. كما أخذت أساليب الإنشاء الطلبي الواردة في لغة الخطاب القرآني، كالأمر والنهي والاستفهام والنداء، طابع التدرج فيما تخرج إليه من معان بلاغية، كالنصح، والإرشاد والإباحة والامتنان، ثم المحاججة والتكذيب، إلى أن يأخذ الأسلوب طابع الإهانة والتحقير.

هذه مجموعة من النتائج التي توصلنا إليها في ختام هذا البحث، ويبقى الباب مفتوحا أمام الدارسين.

قائمة المصادر المراجع

*القرآن الكريم.

أولا : المصادر

1. ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس، د ط، د ت.
2. أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي، **أسباب نزول القرآن**، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، بيروت لبنان، 1411هـ-1991م
3. أبو السعود، **إرشاد العقل السليم** دار الفكر، بيروت، د ط، د ت
4. أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، **جامع البيان في تأويل آي القرآن** دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط3، 1420هـ
5. أبو حيان محمد بن يوسف، **البحر المحيط**، تحقيق: عادل عبد الموجود ورفاقه، ط 1، بيروت، دار الكتب العلمية، 1993م.
6. أبو محمد عبد الحق القاضي الملقب بابن عطية الأندلسي، **المحرر الوجيز في تيسير الكتاب العزيز**، تحقيق عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط 1، د ت
7. أبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، دار الكتب العلمية، الطبعة 5، 1417هـ-1996م
8. الاستاذ ظفر الاسلام خان، **التلمود / تاريخه و تعاليمه**، دار النفائس، ط 6، 1405هـ، 1985م.
9. الآلوسي، أبو الفضل شهاب الدين، **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**، بيروت، دار إحياء التراث العربي، 1985م.

10. الإمام أبو محمد الحسين البغوي، **معالم التنزيل والتفسير والتأويل**، دار الكتب العلمية، ط1، 1415هـ-1995م.

11. الإمام الحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (773هـ-856هـ) **فتح الباري بشرح صحيح البخاري**، تحقيق عبد العزيز بن عبد الله بن باز، ورقم كتبها وأبوابها وأحاديثها محمد فؤاد عبد الباقي، دار الرشيد، د ط، دت، رقم الإيداع 2000/2079، الترقيم الدولي، 977.6092.09.8

12. الإمام محمّد الرازي فخر الدين ابن العلاّمة ضياء الدين عمر **تفسير الفخر الرازي المستشهد بالتفسير الكبير و مفاتيح الغيب** – 604/544 هـ -الطبعة الأولى دار الفكر للطباعة والنشر و التوزيع، لبنان، بيروت.

13. **أنوار التنزيل وأسرار التأويل**، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان، ط1، 2003م-1424هـ

14. أنيس، إبراهيم: **دلالة الألفاظ**، ط3، مكتبة الأنجلو مصرية، القاهرة، 1976م.

15. تفسير **النسفي**، دار إحياء الكتب العربية، د ط، د ت.

16. الجرجاني، عبد القاهر؛ **دلائل الإعجاز**. قرأه وعلق عليه: محمود محمد شاكر. ط (3). جدة: دار المثني. 1992م.

17. الزركشي محمد، **البرهان في علوم القرآن**. تحقيق: أبو الفضل المياطي، القاهرة، دار الحديث. 2006م،د ط.

18. سعيد حوى، **الأساس فبي التفسير**، دار السلام، د ط، د ت، الناشر عبد القادر بكار.

19. سعيد حوى، **الأساس في التفسير** دار السلام للطباعة، ط3، 1991م-1412هـ

20. السكاكي، أبو يعقوب يوسف: **مفتاح العلوم**. ضبطه وعلق عليه؛ نعيم زرزور. ط(ا) بيروت؛ دار الكتب العلمية .1983م.

21. سيبويه ، أبو بشر عثمان بن قنبر : **الكتاب**، تحقيق: عبد السلام هارون، ط2، الرياض، دار الرفاعي، 1988م.

22. سيد قطب، **في ظلال القرآن** ،دار الشروق، ط 25، 1417هـ-1996

23. سيد محمد الطنطاوي، **التفسير الوسيط**، مطبعة السعادة، حقوق الطبع محفوظة للمؤلف.

24. السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن، **الإتقان في علوم القرآن**، ضبطه وصححه وخرج آياته: محمد سالم هاشم، ط 2، دار الكتب العلمية، بيروت، 2007م.

25. صابر طعيمة **بنو إسرائيل بين نبأ القرآن الكريم وخبر العهد القديم**، عالم الكتب، ط1، 1404هـ-1984م، بيروت

26. عبد الرحمن السعدي **تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان**، تحقيق عبد الرحمن بن معلا اللويحق، دار السلام ، الرياض، ط 2، 1422هـ-2002م

27. عبد الرحمن بن محمد الرازي ابن أبي حاتم، **تفسير القرآن العظيم مسندا عن رسول الله والصحابة والتابعين** تحقيق أسعد محمد الطيب، دار الفكر،للطباعة والنشر،1424 هـ-2003م

28. عبد الفتاح الخالدي، **الشخصية اليهودية من خلال القرآن** –تاريخ وسمات-ومصير- دار القلم، دمشق، ط1، 1419هـ-1998م.

29. عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني النحوي، **أسرار البلاغة** ، قرأه وعلق عليه أبو فهر محمود محمد شاكر، دار المدني للنشر، جدة، د ط،1991م.

30. العلامة محمد بن علي الشوكاني، **فتح القدير**، دار الحديث، القاهرة ط3، 1418هـ-1997م.

31. القاضي ناصر الدين أبي سعيد عبد الله بن عمر بن محمّد الشرازي البيضاوي، **تفسير البيضاوي المسمّى أنوار التنزيل و أسرار التأويل** حقّقه محمّد بن صبحي بن حسن حلاق والدكتور محمود أحمد الأطرش، ط 1، دار الرشيد، دمشق، بيروت،2000م.

32. لابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، دار الرشيد، للكتاب والقرآن الكريم، الجزائر، ط1 ، 2005م-1426هـ

33. محمد أبو زهرة، **المعجزة الكبرى القرآن** –نزوله-كتابته-جمعه-إعاجزه- جدله-علومه-تفسيره-حكم الغناء به-،دار الفكر العربي، د ط، د ت.

34. محمد أبو زهرة، **زهرة التفاسير**، دار الفكر العربي، د ط، د ت.

35. محمد شحاته، **تفسير القرآن الكبير**، ط 2، دار الكتب العلمية، طهران، 2000م.

36. محمد علي الصابوني، **صفوة التفاسير**، دار القرآن الكريم، بيروت، ط 4، 1981م.

37. محمد متولي الشعراوي، **خواطر تفسير القرآن الكريم**، أخبار اليوم، قطاع الثقافة، د ت، دط.

38. محمد. سيد الطنطاوي، **بنو إسرائيل في القرآن والسنة**، دار الشروق، الطبعة الأولى، 1997م.

ثانيا: المراجع

39. ابن بطوطة أبو عبد الله ، **رحلة ابن بطوطة**، دار التراث، بيروت،1968م، د ط.

40. ابن قيم الجوزية، **هداية الحيارى**، تحقيق عثمان جمعة ضميرية، إشراف بكر عبد الله بو زيد، دار عالم الفوائد، د ت، د ط.

41. أبو القاسم محمود بن عمر، **الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل** دار إحياء التراث العربي، ط1، بيروت، 1997م.

42. أبو هلال أحمد، **مقدمة في الأنثروبولوجية التربوية**، المطابع التعاونية، الأردن، عمان، دت، دط.

43. أحمد بن عبدالله بن إبراهيم الزغيبي **العنصرية اليهودية و آثارها في المجتمع الإسلامي والموقف منها** مكتبة العبيكان، الطبعة الأولى، 1418هـ-1998م، الرياض.

44. أحمد شلبي، **مقارنة الأديان : اليهودية**، مكتبة النهضة المصرية، ط 8، 1988م.

45. الأزهر الزناد، **نظريات لسانية عرفنية**، الدار العربية للعلوم، دار محمد للنشر، منشورات الاختلاف، تونس ،2010م.

46. اسماعيل قباري محمد، **الأنثروبولوجيا العامة**، منشأة المعارف بالإسكندرية،1973 م

47. الإمام شَمس الدين بن قيم الْجوزية، **صحيح إغاثة اللهفان من مقاصد الشيطان** تَحقيق مُحمّد أحمد عيسى، دار الرشيد: الجزائر، الطبعة الأولى، عام 2007م.

48. أنور الجندي، **منهج الإسلام في بناء العقيدة والشخصية**، دار الاعتصام للطبع والنشر، أحاديث إلى الشباب المسلم، القاهرة، د ط،د ت.

49. بدران الضناوي، وهذيان الضناوي، **النهر المارد**، دار الجنان، مؤسسة الكتب الثقافية –ط الأولى 1407هـ -1987م.

50. البهلي الخولي، **بنو إسرائيل في ميزان القرآن**، دار القلم، دمشق، سوريا، الطبعة الأولى، 2003م.

51. البهنساوي، حسام: **علم الدلالة والنظريات الدلالية الحديثة**. ط(1). القاهرة: زهراء الشرق. 2009م.

52. **التوقيف على مهمات التعاريف المناوي** ت 952-1031 هـ، تحقيق د. محمد رضوان الداية –ط الأولى -1990 م

53. الجباوي علي، **الأنثروبولوجيا علم الإناسة** جامعة دمشق ،1997م،دط.

54. حسن الباش، **القرآن والتوراة أين يتفقان وأين يفترقان**، الجزء 2، دار القتبية، د ط، 1998م.

55. حسن ضاضا، **اللسان والإنسان مدخل إلى معرفة اللغة**، الطبعة الثانية، سوريا دمشق، دار القلم للطباعة والنشر والتوزيع ،1990م.

56. حسن ظاظا، **الفكر الديني اليهودي أطواره ومذاهبه**، معهد البحوث والدراسات العربية، د ط، 1971م، الإسكندرية.

57. حسين عبد الحميد أحمد رشوان، **الأنثروبولوجيا في المجال التطبيقي**، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية،1989م.

58. حميده ، مصطفى: **نظام الارتباط والربط في تركيب الجملة العربية**. ط(1). بيروت: مكتبة لبنان ناشرون. مصر: الشركة المصرية. 1997م

59. رمضان عبد التواب ، **لحن العامة والتطور اللغوي**، الطبعة 2 ،مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، 2000م.

60. رمضان عبد التواب **علم اللغة ومناهج البحث اللغوي**، الطبعة 3، مطبعة الخانجي، القاهرة، 1997م.

61. الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمر **المفصل في علم العربية**- ط(2). بيروت، دار الجيل، 1323هـ

62. سعد الدين السيد الصالح، **العقيدة اليهودية وخطرها على الإنسانية**، دار الصفا للطباعة والنشر، ط2، 1410هـ-1990م، القاهرة

63. سعد المرصفي، **الفكر اليهودي**، مكتبة المنار الاسلامية، الطبعة الأولى، 1431هـ ، 1992 م، الكويت.

64. سعود بن عبد العزيز خلف **دراسات في الأديان اليهودية والنصرانية**، أضواء السلف، الطبعة الأولى، الرياض 1997م.

65. سيد القمني، **إسرائيل التوراة التاريخ، التضليل**، دار قباء للطباعة والنشر،1998م، القاهرة، د ط.

66. السيد صبري إبراهيم، **علم اللغة الاجتماعي**، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية ، 1995م.

67. شاكر سليم، **قاموس الأنثروبولوجيا**، جامعة الكويت، 1981م

68. الشنقيطي، **أضواء البيان**، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، 1408 هـ-1988م، د ط

69. صافي، محمود: **الجدول في إعراب القرآن وصرفه وبيانه**، دمشق: دار الرشين. بيروت: مؤسسة الإيمان. 1998م.

70. صالح الخالدي، **القصص القرآني، عرض وقائع وتحليل أحداث**، ج1، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى،1998م.

71. طقوس، بسام؛ **دليل النظرية النقدية المعاصرة**. ط (1). الكويت: مكتبة العروبة. 2004م.

72. الطويل، السيد رزق؛ **بنو إسرائيل تاريخ وتحقيق**. د.ط. القاهرة؛ دار المعارف. 1980م.

73. عاطف وستي، **الأنثروبولوجيا الاجتماعية**، الطبعة الثانية، دار النهضة العربية، بيروت، 1981 م.

74. عبّاس محمود العقاد، **كتاب حقائق الإسلام و أباطيل خصومه** دار الكتاب العربي،ط3، 1966م

75. عبد الرحمن ابن خلدون، **مقدمة ابن خلدون** المسمى" **ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر** "،تحقيق محمد محمد تامر، مكتبة الثقافة الدينية، الطبعة الأولى، 2005م-1426هـ.

76. عبد الرحمن حسين الميداني، **مكايد اليهود عبر التاريخ**، دار القلم، ط 2، 1978 م، دمشق.

77. عبد الصبور شاهين، **القراءات القرآنية في ضوء علم اللغة الحديث**، د ط، مكتبة الخانجي، بالقاهرة،1966م.

78. عبد العزيز سليمان نوار، د. محمود محمد جمال الدين، **التاريخ الأوروبي الحديث من عصر النهضة حتى نهاية الحرب العالمية الأولى**، دار الفكر العربي، 1999م،د ط.

79. عبد العزيز محمد حسن، **مدخل إلى اللغة**، د ط، دار الفكر، القاهرة، 1988م.

80. عبد الفتاح أحمد يوسف، **لسانيات الخطاب وأنساق الثقافة**، الطبعة الأولى، منشورات الاختلاف، الجزائر، 2010م.

81. عبد الله عبد الرحمن يتيم، **كلود ليفي ستراوس قراءة في الفكر الأنثروبولوجي المعاصر** الطبعة 1، إصدارات بيت القرآن، المنامة، البحرين،1998م.

82. عبد الوهّاب عبد السلام طويلة **مغالطات اليهود و ردّها من واقع أسفارهم** ، الطبعة الأولى، دار القلم، دمشق، 2007م.

83. عبد صبور شاهين **علم اللغة العام**، الطبعة 6، مؤسسة الرسالة، بيروت لبنان، 1993م.

84. عبده الراجحي، **اللغة والمجتمع**، الطبعة 2، دار النهضة العربية، بيروت لبنان،2004م.

85. عزوز، أحمد؛ **أصول تراثية في نظرية الحقول الدلالية**. د.ط. دمشق؛ منشورات اتحاد الكتاب العرب. 2002م

86. عفيف عبد الفتاح طباره، **اليهود في القرآن**، الطبعة الثانية، دار العالمين، لبنان، بيروت،1995م

87. عفيفي محمد الهادي، **في أصول التربية**، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1972م، د ط.

88. علي عبد الواحد وافي، **اللغة والمجتمع**، الطبعة 2، دار إحياء التراث العربي، لبنان، بيروت،1951م.

89. علي عبد الواحد وافي، **علم اللغة**، الطبعة 9، شركة نهضة مصر للطباعة والنشر ، 2004م.

90. علي عبد الواحد وافي، **فقه اللغة**، الطبعة 6، لجنة البيان العربي مطبعة الرسالة، مصر،1986م.

91. علي عبد الواحد وافي، **نشأة اللغة عند الإنسان والطفل**' نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة ،مصر، 2003م، د ط.

92. عمر، أحمد مختار: **علم الدلالة**. ط (5). القاهرة: عالم الكتب. 1998م

93. فارس، احمد محمد: **النداء في اللغة** والقرآن، ط1، دار الفكر اللبناني، 1989م

94. فاضل صالح السمرائي، **على طريق التفسير البياني**، ج1، النشر العلمي، جامعة الشارقة، 1423هـ-2002م، د ط، الإمارات العربية المتحدة.

95. فرج الله . عبد الباري، **اليهودية بين الوحي الإلهي والانحراف البشري**، دار الآفاق العربية، 2004م د ط.

96. فهيم حسين، **قصة الأنثروبولوجيا –فصول في تاريخ الإنسان**، سلسلة عالم المعرفة (198) الكويت،1986م، د ط.

97. فهيم حسين، **قصة الأنثروبولوجيا فصول في تاريخ علم الإنسان**، عالم المعرفة، د ط، الكويت،1986م.

98. فوده، عبد العليم السيد؛ **أساليب الاستفهام في القرآن**. د.ط. القاهرة؛ مؤسسة دار الشعب. د.ت.

99. فيود، بسيوني عبد الفتاح، **علم المعاني**. ط(3). القاهرة: مؤسسة المختار. 2004م.

100. قيس النوري، **مدارس الأنثروبولوجيا**، جامعة بغداد ،د ط، 1991 م.

101. كريم زكي حسام الدين ،**اللغة والثقافة دراسة أنثرولغوية** د ط، د ت، كتب عربية.

102. كريم زكي حسام الدين، **اللغة والثقافة دراسة أنثرولغوية لألفاظ وعلاقات القرابة في الثقافة العربية**، الطبعة 2،النشر الالكتروني للكتب العربية، جامعة الزقازيق، مصر،2000م.

103. مازن الوعر، **مدخل في قضايا أساسية في علم اللسانيات الحديثة**، الطبعة الأولى،1988م.

104. محمد أبو زهرة، **بحوث في الربا**، د ط، د ت، دار الفكر العربي، القاهرة.

105. محمد أديب الصلح، **اليهود في القرآن والسنة**، دار الهدى، ط 1، 1993م، الرياض.

106. محمد الأخضر الصبيحي، **مدخل إلى علم النص ومجالات تطبيقه**، الطبعة الأولى، دار العربية للعلوم ،منشورات الاختلاف، الجزائر،2008م.

107. محمد الجوهري، **الأنثروبولوجيا – أسس نظرية وتطبيقات عملية** – مطابع سجل العرب، الطبعة الأولى، القاهرة، 1980م.

108. محمد الخطيب **الأثنولوجيا–دراسة المجتمعات البدائية**، منشورات دار علاء الدين، دمشق الطبعة الأولى، دت.

109. محمد بيومي مهران، **بنو إسرائيل**، الجزء4، دار المعرفة الجامعية، د ط، 1999م، الإسكندرية، مصر.

110. محمد عبد الله الدراز، **الدين** بحوث معهد دراسة الأديان، دار القلم، د ت د ط

111. محمد عثمان شبير، **مخاطر الوجود اليهودي على الأمة الإسلامية** ،دار النفائس –ط– الأولى 1412هـ 1989م.

112. محمد عزة دروزة، **اليهود في القرآن**، المكتب الإسلامي، د ت، د ط.

113. محمود السعران، **علم اللغة مقدمة للقارئ العربي**، د.ت د ط، لبنان بيروت، دار النهضة العربية للطباعة والنشر

114. محمود حمدي زقوق، **الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري**: نقلا عن **الاستشراق** لـ د.موسى الحسني، القاهرة، د ت، د ط.

115. مصطفى صادق الرافعي، **تاريخ آداب العرب**، المكتبة العصرية، صيدا بيروت، 2005م، دط.

116. مصطفى مسلم، **معالم قرآنية في الصراع مع اليهود**، دار القلم، دمشق، ط 2، 1999م.

117. مؤنس محمد، **الحضارة– دراسة في أصول وعوامل قيامها وتدهورها–**، عالم المعرفة (198)، الكويت 1978 م، د ط.

118. ميلاد القرحي، **تاريخ أوروبا الحديث والمعاصر من عصر النهضة إلى الحرب العالمية الثانية**، منشورات الجامعة المفتوحة، الطبعة الثانية،1995 م.

119. نصر الله، يوسف **الكنز المرصود في قواعد التلمود**، دمشق، دار القلم، بيروت، دار العلوم، الطبعة الأولى، 1408هـ- 1987م.

120. **نظم الدرر في تناسب الآيات والسور**، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط 1، 1415هـ-1995م

121. هادي نهر **علم الدلالة التطبيقي في التراث العربي**، الطبعة الأولى، دار الأمل للنشر والتوزيع، الأردن،2007م.

122. هادي نهر، **التفسير اللغوي الاجتماعي للقراءات القرآنية**، الطبعة 1، دار العالم للكتاب الحديث،الأردن،1429هـ.

123. وصفي عاطف، **الأنثروبولوجيا الثقافية**، دار النهضة العربية، بيروت،1971م، د ط.

124. يوسف، عبد الكريم محمود: **أسلوب الاستفهام في القرآن الكريم. غرضه. إعرابه.** ط1 دمشق: مطبعة الشام. د.ت.

ثالثا: المعاجم

125. أبو الحسن علي بن إسماعيل النحوي اللغوي الأندلسي المعروف بابن سيده، **المخصص** تحقيق خليل إبراهيم جفال، دار إحياء التراث العربي، بيروت 1417هـ - 1996م الطبعة الأولى.

126. أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور الافريقي المصري، **لسان العرب**، ط 3، دار صادر، بيروت لبنان، 2004م

127. أبو هلال العسكري، **الفروق في اللغة** تحقيق لجنة إحياء التراث العربي في دار الآفاق الجديدة، مكتبة لبنان بيروت، ط 4، 1400هـ-1980م.

128. الراغب الأصفهاني، **المفردات في غريب القرآن**، تحقيق وضبط محمد سيد كيلاني، دار المعرفة، لبنان، د ط، د ت.

129. الراغب الأصفهاني، **معجم مفردات ألفاظ القرآن**، تحقيق يوسف الشيخ محمد البقاعي، ط1، دار الفكر ، بيروت، 2006م.

130. الفراهيد ي، الخليل بن أحمد، **كتاب العين**،. تحقيق؛ مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي. د.ط. مصر، دار الهلال، د ت

131. **رابعا: الكتب المترجمة**

132. أ.ف آر بالمر: **علم الدلالة إطار جديد**.، د ط، ترجمة صبري السيد، مصر، دار المعرفة، 1999م.

133. أ.ف آر بالمر، ترجمة مجيد الماشطة، **علم الدلالة**، د ط، حقوق الطبع والنشر محفوظة للجامعة المستنصرية ،1985م.

134. ايكه هولتكرانس، **قاموس مصطلحات الأنثروبولوجيا والفلكلور**، ترجمة محمد الجوهري وحسن الشامي، دار المعارف بمصر،،القاهرة ،1971م.

135. بيلزرالف، هويجراهاري، **مقدمة في الأنثروبولوجيا العامة**، ترجمة محمد الجوهري وآخرون، دار النهضة المصرية، القاهرة، 1977م

136. **تاريخية الفكر العربي الإسلامي**، ترجمة هاشم صالح، مركز الإنماء القومي والمركز الثقافي العربي، ط3، 1998م.

137. تأليف مجموعة من الكتاب، **مدخل إلى مناهج النقد الأدبي**، ترجمة رضوان ضاضا، مراجعة د.المنصف الشنوفي، عالم المعرفة، سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب –الكويت، صدرت السلسلة في يناير 1978م بإشراف أحمد مشاري العدواني.

138. جيرو، بيير: **الأسلوبية**. ترجمة: منذر عياشي. ط(2). حلب؛ دار الإنماء الحضاري. 1994م.

139. رومان جاكبسون وموريس هالة، ينظر **أساسيات اللغة**، ترجمة سعيد الغانمي، المركز الثقافي العربي ، 2008م.

140. ريتشاد إدوارد –**الأنثروبولوجيا الاجتماعية**، ط5 ، ترجمة أحمد أبو زيد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الإسكندرية،1975م

141. ستيفين أولمان **دور الكلمة في اللغة**، ترجمة كمال بشر، القاهرة الطبعة،10 مكتبة الشباب سنة 1986م.

142. كلوكوهون كلايد ، **الإنسان في المرآة** ، ترجمة شاكر سليم، بغداد ،1964م، دط.

143. لينتون رالف ، **الأنثروبولوجيا وأزمة العالم الحديث**، ترجمة عبد المالك الناشف، المكتبة العصرية، بيروت،1967م

144. لينتون رالف، **دراسة الإنسان**، ترجمة عبد المالك الناشف، المكتبة العصرية، بيروت،1964م.

145. ماريوباي، **أسس علم اللغة** ، ترجمة أحمد مختار عمر، الطبعة 8 ،عالم الكتب، عمان، الأردن،1998م

146. محمّد عبد الله دراز، **كتاب أخلاق القرآن**، التعريب والتحقيق د عبد الصبور شاهين، مراجعة، محمد السيد بدوي، مؤسسة الرسالة، دار البحوث العلمية، د ت،د ط

147. هرسكوفيتز ميليفل، **أسس الأنثروبولوجيا الاجتماعية**، ترجمة رباح النفاخ ،وزارة الثقافة، دمشق ، 1974م.

148. وحيد الدِين خان، **كتاب الإسلام يتحدّى (مدخل علمي إلى الإيمان)**، تعريب د ظفر الإسلام خان، مراجعة وتحقيق عبد الصبور شاهين، مكتبة الرسالة، د ت، د ط

خامسا: الكتب باللغة الأجنبية

149. Barnuow v ,cultural anthropologie, home wood illios ,irwin inc.,1972

150. Brigitte juanals,jeansmax noyer, d,hymes vers une pragmatique et une anthropologie communicationnelle,laboratoire cirs,universite paris x,nanterre,hermes 48,2007

151. Darnell ,regana and edition 1978,reading in the history of man's search to know his world and himself, vintage book edition,

152. Kottak phillip ,anthropologie the exploration of human diverty ,mc grow, hill inc.,new york,1994

153. Louis jacque dorais ,« anthropologie du language »,document produit en version numérique par jean-marie tremblay,professeur en sociologie au cégep de chicoutimi.dans le cadre de la collection « les classiques des sciences sociales »,2005,edition du renouveau pédagogique,chicoutimi ,québéc canada,p7-

154. Nicholson,c,anthropologie education,london,1968

155. R.koenker,lingistic anthropology article

سادسا: الرسائل الجامعية:

156. بابا أحمد رضا، **دراسة لسانية صورية للوحدات اللسانية الدالة "ضمير المتكلم نموذجا"**، مذكرة ماجيستير في اللسانيات التطبيقية، السنة الجامعية 2005م-2006م ، جامعة تلمسان.

157. رمضان بن يوسف عبد الهادي الصيفي، رسالة ماجيستير، بعنوان: **منهج القرآن الكريم في التعامل مع جرائم اليهود (دراسة تطبيقية بين الماضي والحاضر)**، ،إشراف د. زكريا بن إبراهيم

الزميلي، الجامعة الإسلامية، غزة، عمادة الدراسات العليا، كلية أصول الدين، قسم التفسير وعلوم القرآن، 1430هـ-2009م.

158. شايف عكاشة، منهجية الأمر و النهي في الأديان السماوية دراسة مقارنة، رسالة جامعية لنيل شهادة دكتوراه الدولة في الأنثروبولوجيا، إشراف: أ.د.عبد الحميد حاجيات، أ.د.عبد الله بن حلي ، جامعة أبي بكر بلقايد تلمسان، كلية الآداب و العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية ، قسم الثقافة الشعبية، 2001/2000.

159. عبد الغني عماد، تكليف من د ناصر اليحي، تقديم طالبة سوسن العتيبي **تلخيص كتاب، سوسيولوجيا الثقافة المفاهيم والإشكاليات من الحداثة إلى العولمة** pdf، ماجيستير ثقافة إسلامية، الشعبة الأولى.

160. فاطمة الزهراء بلحجي، **القراءة الأنثروبولوجية للقصص القرآني**، رسالة دكتوراه، إشراف د. عبد الحفيظ بورديم، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، قسم الثقافة الشعبية، جامعة أبي بكر تلمسان، 2011م-2012م.

161. فاطمة الزهراء بلخجي، القراءة النثروبولوجية للقصص القرآني –رصد ونقد-، رسالة دكتوراه، إشراف د. عبد الحفيظ بورديم، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، قسم الثقافة الشعبية، جامعة أبي بكر تلمسان، 2011م-2012م

162. نعيمة عبد الله البرش **آفات النفس كما يصوِّرها القرآن الكريم**، دراسة موضوعية، رسالة مَاجيستير في التفسير وعلوم القرآن، إشراف د راس محمود قاسم، الجْامعة الإسلامية، غزّة قسم التفسير وعلوم القرآن، 2008م.

سابعا: المجلات

163. أبو زيد حامد ،الطريق إلى المعرفة، كتاب العربي ، مجلة العربي ، الكويت ،2001م

164. أبو زيد-الطريق إلى المعرفة-كتاب العربي رقم46 منشورات مجلة العربي ،الكويت ،2001

165. أحمد علوان حقي، **بنو إسرائيل واليهود الذين هادوا (دراسة تحليلية)**، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، مجلة جامعة الشارقة، المجلد 3، العدد 1، فبراير 2006م

166. أوهام النهضة واستراتيجية القراءة الحداثية للقرآن، حسن أبوهنية، جريدة الغد، 25-03-2006م

167. سمير شريف أستيتية، ثلاثية اللسانيات التواصلية، مجلة عالم الفكر، العدد5، مجلد 34، 2006، ص11. نقلا عن صلاح الدين زرال، الظاهرة الدلالية عند علماء العربية القدامى حتى نهاية القرن الرابع الهجري، الطبعة الأولى، الدار العربية للعلوم، منشورات الاختلاف،2008م،

168. الشخصية الإنسانية في الفكر الإسلامي، لنزار العاني صـ 28 مأخوذ من كتاب ((آفات النفس كما يصوِّرها القرآن الكريم))، دراسة موضوعية، رسالة مَاجستير في التفسير وعلوم القرآن، لِنعيمة عبد الله البرش، إشراف د. راس محمود قاسم 2008 م، الجْامعة الإسلامية، غزّة قسم التفسير و علوم القرآن

169. عبد الغني عماد، تكليف من د ناصر اليحي، تقديم طالبة سوسن العتيبي تلخيص كتاب ، سوسيولوجيا الثقافة المفاهيم والإشكاليات من الحداثة إلى العولمة pdf،ماجيستير ثقافة إسلامية، الشعبة الأولى

170. عمار شلواي، مقالة نظرية الحقول الدلالية، مجلة العلوم الإنسانية، جامعة محمد خيضر بسكرة، العدد الثاني، جوان 2002م

171. عمار شلواي،،مقالة **نظرية الحقول الدلالية**، مجلة العلوم الإنسانية، جامعة محمد خيضر بسكرة، العدد الثاني، جوان 2002م.

172. عياد ،محمود: الأسلوبية الحديثة محاولة تعريف. مجلة فصول- مج(ا). ع/2. يناير/ 1981 ص124

173. لطفي بوقربة، محاضرات في اللسانيات الاجتماعية، محاضرة ألقاها في جامعة بشار ،السنة الجامعية 2002م-2003م

174. مجلة الأثر، الخطاب القرآني والمناهج الحديثة في تحليله –دراسة نقدية–، أ. صليحة بن عاشور، جامعة ورقلة، الجزائر، عدد خاص: أشغال الملتقى الدولي الثالث في تحليل الخطاب، ص 17

175. مجلة اللسان الحر: العدد 2 السنة الأولى 2008م تصدر عن الأكاديمية الأوروبية العربية الثقافية والإعلام محمد أركون وسيط ثقافي في مقال د. عبد الحفيظ بورديم.

176. محمد قطب عبد العال، نظرات في قصص القرآن،ج1، مجلة دعوة الحق، السنة السادسة، العدد9،عن إدارة الصحافة والنشر برابطة العالم الإسلامي، أكتوبر،1986م،مكة المكرمة.

177. منهج القرآن الكريم في التعامل مع جرائم اليهود(دراسة تطبيقية بين الماضي والحاضر)، إعداد الطالب رمضان بن يوسف عبد الهادي الصيفي، إشراف د. زكريا بن إبراهيم الزميلي، 2009م.

178. موسوعة النابلسي للعلوم الإسلامية، تفسير القرآن الكريم، مج 2.

179. LA BIBLE,TRADUCTION OECUMENIQUE DE LA BIBLE ,comprenant l'Ancien et le Nouveau Testament,traduit sur les textes originaux hébreu et grec, nouvelle édition revue 1990,ALLIANCE BIBLIQUE UNIVERSELLE-LE CERF

180. RAFAEL farco benthien,Antoine Meillet ;Comment les mots changent de sens ;édition Dodo press,atelier du centre de recherches historique ,Revue éléctronique du CRH,mise en ligne 21 avril 2011,consulté 14 mars 2013

ثامنا: مواقع الأنترنت

181. أحمد بن محمد الضبيب، مقالة بعنوان، عوامل تأثير اللغة الانجليزية على اللغة العربية، الطبعة الأولى، مؤسسة الجزيرة للصحافة والطباعة والنشر، المملكة العربية السعودية، الرياض، الأحد 19 نوفمبر 2000م، www.al-jazirah.com/2000/20001119/ar.htm

.url :http//arch.revues.org/3576

182. إيدجرس بولوم، عنوان المقالة: اللغة والسلوك اللغويات الانثروبولوجية، ص 666، العنوان الالكتروني :www.mohamedrabeea.com/books/book1_402 pdf موقع
أ.د.محمد سعيد ربيع الغامدي، أ . العلوم اللغوية قسم اللغة العربية كلية الآداب والعلوم الإنسانية ،جامعة الملك عبد العزيز ،بحوث لغوية قصيرة
183. مقالة في الانترنيت، عنوان المقالة السحر ، الجن ، بني اسرائيل ، سيدنا سليمان ، هاروت وماروت، الخميس 9، يونيو 2011: http : //rev facts.blogspot.com/2011/06

فهرس الموضوعات

شكر و تقدير

إهداء

مقدمة ..... أ

المدخل: بعض المفاهيم عن الأنثروبولوجيا

تمهيد **1**

1. مفهوم الأنثروبولوجيا **3**

2. نشأة الأنثروبولوجيا وتاريخها **6**

أولا – الأنثروبولوجيا في العصور القديمة **6**

أ–عند الإغريق(اليونان القدماء) **6**

ب–عند الرومان **7**

ج–عند الصينيين القدماء **7**

ثانيا– الأنثروبولوجيا في العصور الوسطى : **8**

أ–العصور الوسطى في أوروبا **8**

ب–العصور الوسطى عند العرب **8**

ثالثا– الأنثروبولوجيا في عصر النهضة الأوروبية **11**

3. فروع الأنثروبولوجيا **13**

–تمهيد **13**

أ–الأنثروبولوجيا الفيزيقية أو الطبيعية **15**

ب–الأنثروبولوجيا الثقافية **17**

1– علم اللغويات **20**

2– علم الآثار القديمة (Archeology) **23**

3– علم الثقافات المقارن "الإثنولوجيا " Ethnology **24**

ت –الأنثروبولوجيا الاجتماعية **25**

الفصل الأول: اللغة والمجتمع

تمهيد: **29**
1 اللغة ظاهرة اجتماعية متغيرة **30**
2 –أسباب التغير اللغوي **35**
1.2–الصراع اللغوي : **36**
2.2–الاحتكاك اللغوي **39**
3.2– الغزو اللغوي..... **41**

الفصل الثاني: الأنثروبولوجيا اللغوية

1– البحوث المنبثقة عن اشتراك علم اللغة بعلم الأنثروبولوجيا **46**
1.1الأنثروبولوجيا اللغوية Linguistic Anthropology..... **46**
2.1– علم اللغة الإثنولوجي Ethnolinguistics..... **47**
3.1–الاثنوغرافيا الدلالية semantic ethnography **48**
4.1– الأنثروبولوجيا المعرفية cognitive anthropology..... **50**
5.1– اثنوغرافيا الاتصال ethnography of communication **52**
2– الأنثروبولوجيا اللغوية **55**
3– الدراسة الأنثروبولوجية اللسانية للنص القرآني على المنهج الغربي **61**
1.3–علمانية المناهج الجديدة:..... **62**
- **رفض البعد الغيبي للوحي:** **62**
- **اعتماد المبالغة في التأويل:** **64**

2.3 منهجية الدراسة الأنثروبولوجية اللسانية عند محمد أركون: **69**

الفصل الثالث: التفصيل القرآني لقصة بني إسرائيل

1– القصة في القرآن **74**
2– **الحكمة من التفصيل القرآني لقصة بني إسرائيل** **77**

3-إسرائيل في السياق القرآني 89
4-بنو إسرائيل في السياق القرآني 94
5-اليهود في السياق القرآني 113
6- الفرق بين مصطلحي بني إسرائيل واليهود في القرآن ..... .125
أولا: بنو إسرائيل. **126**
ثانيا: اليهود..... .....**128**

الفصل الرابع: نعم الله على بني إسرائيل وموقفهم الجحودي منها
(دراسة أنثروبولوجية)

1-نعم الله المتوالية على بني إسرائيل بعد خروجهم من مصر **131**
2 -تفضيل اللَّه بني إسرائيل على عالَمِي زمنهم..... **138**
3- فرق البحر: **145**
4-النجاة من عدوهم: **155**
5- فساد طباع وأخلاق بني إسرائيل كما يصورها القرآن الكريم..... **163**
1.5-تمهيد **163**
2.5 أهمية العقيدة للفرد و المجتمع **171**
3.5-سوء أدبهم مع الله وعداوتهم للملائكة وقتلهم الأنبياء.....**174**
1°) تَجسيم الإله والشرك في الربوبية.....**174**
2°)عداوتهم لجبريل عليه السلام: **181**
3°) الوقاحة مع رُسُل الله عليهم السلام :.....**183**
4.5-تَحايُلُهم على استحلال مَحارمَ الله و جحودُهم الْحقَّ بعد بيانه : **185**
5.5- نبذهم لكتاب الله تعالى و اتباعهم السحر : **196**
6.5-الحرص على الحياة وإفراطهم في حب المال: **200**

الفصل الخامس: دراسة لسانية للغة الخطاب القرآني عن بني إسرائيل

1. التفسير البياني لبني إسرائيل كما يصورها القرآن الكريم..... **211**
أ –عبادة العجل من دون الله..... **212**
ب – الكذب على الله وتحريف كتابه..... **217**
ت– جرأة اليهود على الله..... **226**
ث– التحايل على استحلال المحرمات. **232**
ج– تكذيب الأنبياء وقتلهم:..... **237**
3–الحقل الدلالي للغة الخطاب القرآني في بني إسرائيل **246**
1.3–تمهيد **246**
2.3: حقل ألفاظ السلوك..... **251**
3.3: حقل ألفاظ الوصف **257**
4.3: حقل ألفاظ الجزاء..... **262**
4–أساليب الإنشاء الطلبي..... **267**
1.4–تمهيد **267**
2.4: أسلوب الأمر **267**
3.4: النهي **274**
4.4: أسلوب الاستفهام **276**
5.4: النداء **284**
الخاتمة **290**
قائمة المصادر و المراجع **293**
فهرس الموضوعات **312**

ملخص:

قامت هذه الدراسة على إلقاء الضوء على أهم جوانب الدراسة الأنثروبولوجية اللغوية، ثم وضحنا فيها علمانية المناهج الجديدة التي تسعى إلى أنسنة القرآن؛ بمعنى اعتبار النص القرآني مجرد نص أنتج وفق المقتضيات الثقافية التي تنتمي إليها اللغة، وبيّن استحالة تطبيق مناهج متجددة في إنسانيتها على الكلام الإلهي (القرآن الكريم).كما قدمنا آيات قرآنية تتحدث عن بني إسرائيل والابتلاءات التي تعرضوا لها، ونعم الله الكثيرة عليهم، إضافة إلى صفاتهم، ثم تناولنا لغة الخطاب القرآني لقصة بني إسرائيل التي حظيت بنصيب وافر من اللوحات الفنية، والتعبيرية، وبشكل عام، فإن لغة الخطاب القرآني عن بني إسرائيل تمثل نصا دلاليا، ينطلق باللغة إلى مستوى يعج بالطاقات الإيحائية، التي تشكل تربة خاصة للدراسة اللسانية.

الكلمات المفتاحية: القرآن الكريم – أنثروبولوجيا لسانية – بنو إسرائيل – اليهود.

Résumé :

Cette étude repose essentiellement sur la projection de la lumière sur les principaux côtés de l'étude anthropologique linguistique. Nous y avons éclairé les différents et nouveaux objectifs qui mènent à la sérénité de l'âme par l'intermédiaire du Coran, en considérant que le texte du livre sacré émane des circonstances culturelle auxquelles s'apparente la langue arabe. Nous y avons démontré l'impossibilité d'appliqué les programmes, humains et récents sur la parole de dieu (le saint coran).

Nous y avons exposé de nombreux versets du livre qui se rapportent aux fils d'Israël, les revers qui les ont frappés et les immenses faveurs qu'ils ont reçues du seigneur, en plus de leurs descriptions. Nous y avons tenté de faire recours au style du discours coranique pour décrire leur histoire qui comporte plusieurs tableaux artistiques et expressifs, d'une façon générale. Le style discoureur du coran à propos des fils d'Israël représente un genre littéraire qui offre à la langue un niveau où se mêle des énergies de révélations et qui constituent une base spéciale et féconde a la linguistique.

Mots clés : coran- anthropologie linguistique- fils d'israel.

abstract:

This study is mainly based on the projection of the light on the major sides of the linguistic anthropological study. We have informed the different and new objectives that lead to serenity of the soul through the intermediary of the Quran, by considering that the text of the sacred book emanates from cultural circumstances that resemble the Arabic language. We have demonstrated the impossibility to carry out the programs, human and recent, on the word of God (the Holy Quran).

We have exposed many verses of the book that relate to the sons of Israel, the setbacks that hit them and the immense favors they have received of the Lord, in addition to their descriptions. We have attempted to use the style of Quranic discourse to describe their history which includes several artistic and expressive paintings in general.

The style of the Quranic discourse about the sons of Israel is a literary genre that offers language level where energy revelations mix in and constitute a special and fruitful basis for language (i.e.; linguistics).

Key words: Koran- Linguistic anthropology- Sons of Isarael- Jewich.